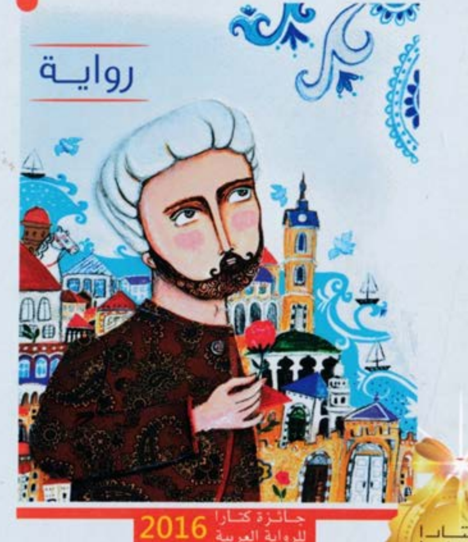
YAHYA YAKHLOF

يحيى يخلف

راكب الريح

رواية







مكتبة 510

مكتبة | 510

راكب الريح

رواية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2015/11/5417)

813.9

يخلف، يحيى حسن.

راكـــب الريـــح/ يحيى حسن يخلف.- عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2015

( ) ص

ر.إ.: 2015/11/5417

الواصفات: القصص العربية//العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957 - 00 - 616- 7

- راكب الريح – رواية
- يحيى حسن يخلف .
- الطبعة العربية الأولى : الإصدار الثاني 2017
- الغلاف : الفنانة التشكيلية ضحى الخطيب .
- مراجعة وتدقيق : خالد سليم
- الاخراج الداخلي : **دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر**



دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس 4610065

ص.ب 926463 الرمز البريدي 11118 عمان – الاردن

Email: shorokjo@orange.jo

دار الشروق للنشر والتوزيع

رام الله – المصيون نهاية شارع مستشفى رام الله

هاتف 2975632 - 2991614 - 2975633 فاكس 02/2965319

Email : shorokpr@palnet.com

يحيى يخلف

مكتبة | 510

راكب الريح

رواية



2017

الفصل الأول

يـــافـــا 1795

ولد يوسف لأب يعمل بالتجارة، ويسكن بيتًا مبنيًا على النمط المملوكي على سفح التلة، التي تعلوها السراي، حيث يقيم الـــوالي العثماني عبد الله بك.

والده امتهن صناعة الصابون. له مصنع ومتجـــر في الســـوق القريبة من الجامع الكبير الذي بناه الإمام الشيخ محمد بيي بمعمـــار عثماني فريد.

شذّ والده أحمد آغا باختيار التجارة؛ فالعائلة، أبًا عـــن جـــد، كانت تعمل في صيد السمك، وصناعة السفن، والإبحار في المراكـــب إلى موانئ المتوسط.

يوسف هو الابن الوحيد لوالديه. ولد عنـــدما غـــزا القائـــد المصري محمد بك أبو الذهب المدينة لافتكاكها من الـــزعيم ظـــاهر العمر، في تلك الأيام القاسية التي شهدت حربًـــا دمويـــة وتخريبًـــا وخرابًا.

ربته أمه بحنانة وأحسنت تربيته، ونبغ مبكرًا، إذ أرسله والـــده إلى حلقات الدراسة في الجامع الكبير الذي كـــان يشـــهد حلقـــات تدريس من كبار العلماء والفقهاء ورواة الحديث، فتعلّم الفقه واللغة والعلوم. كما أرسله إلى مدرسة الراهبات، ليتعلّم اللغة الفرنسية.

وفي حلقات التدريس، عشق الخط العربي، وسحرته تكويناته وجمالياته. درس فنونه على يد الشيخ خليل الداري، فتعلم، وهو فتى، خط الثلث؛ لأن معلّمه الشيخ خليل قال له إنَ من يتقن خط الثلث يستطيع أن يتقن بقية الخطوط، ومن لا يتقنه لن يبدع في الخط، ولن يكون من مشاهيره.

أتقن خط الثلث في زمن قصير واظب فيه على التمرين والتأمّل، وزيارة مكتبات المساجد يبحث عن الثلث في عناوين وخطوط المخطوطات، وكم كان يبهره الزخرف، والتزيين الذي تتنوع وتتعدد به أشكال الحروف. كما كان يختلف إلى المساجد ويدرس انسياب حركة الآيات وتشكيلها، وروعتها وأناقتها في رقشها ونقشها وهي تزيّن المحاريب والقباب والأروقة، وتضفي على المساجد حسنًا وورونقًا وبهاء.

ومن خط الثلث تعلّم خط النسخ، وألمَ إلمامًا بسيطًا ببقية الخطوط: المكّي، والشامي، والقيرواني، والكوفي، والفارسي، والمغربي، والأندلسي، والعثماني ومنه الديواني، والرقعي، وغيرها من الخطوط.

ومن الخط العربي انتقل إلى الرسم. رسم الوجوه والخيول والزهور. تعلّمه من رسّام أحد البازارات في حيفا. أتقن الرسم بقلم الفحم، وبألوان الشمع، وألوان الزيت.

كان فتى حيويًا وذكيًا وطموحًا. أحب الخط العربي، وأحب الرسم، وأحب البحر، وأحب القفز من الأعالي إلى أحضان الأمواج الصاخبة، وأحب طبيعة يافا: تلالها، وأسوارها، ومنارتها، وأسواقها،

ومساجدها، وحمّاماها، وخاناها، وشاطئها، وقوارب الصيادين في عمق بحرها.

كان يوسف أيضًا وسيمًا، جميل الطلعة، يمتلك عينيْ صقر، وحاجبين مرسومين كأنهما خُطا بقلم، وجبينًا كالفضة، وشعرًا كستنائيًّا، وأنفًا مستقيمًا، وفمًا دقيق الشفتين. ويبدو بقفطانه الأبيض والطاقية الحمراء المشغولة بصِنّارة هنانة، والشال الأخضر الذي يزنّر وسطه؛ مثل أمير من أمراء الأستانة، بل إنّ النساء من أحباب هنانة كنّ يشبّهن جمال خلقته بجمال النبي يوسف، الذي عشقته النساء حتى الذهول.

كبر وبيده قصبة يرسم فيها خط الثلث من جهة، وعيناه على البحر من جهة أخرى. صار منذ أن اشتد عوده يترل مع رفاقه المنحدر باتجاه البحر بعد العودة من حلقات الدرس، ويقضي من العصر حتى الغروب في اللعب والسباحة، كما يلذ له أحيانًا أن ينقطع عن البحر ويذهب إلى السوق التي تكتظ بالباعة والمتسوقين، ويستمتع بمشاهدة السلع المعروضة: أقمشة فاخرة، وملابس مزركشة ومطعّمة باللؤلؤ، ومحلات بهار تعرض التوابل المستوردة من بلاد الصين والهند، ومحلات تعرض البسط المجدلاوية المنسوجة على النول، والسجاجيد العجمية المنسوجة في أصفهان، ومحلات صابون صناعة يافا وأخرى صناعة نابلس، وأسواق جانبية لبيع الحبوب والزيت والغزل والنسيج وزيت الزيتون، وسوق الحريم التي تبيع الأقمشة وكلف العرائس، وتتخصص في بيع الحلي: أساور وخلاخيل وخواتم وقلائد وسلاسل. صناعة متقنة، وتحف فنية مشغولة بمهارة، كان يحب

أن يرى المتسوقين الذين يلبسون أزياء المدينة أو الريف، وأزياء عربية وتركية ويونانية وفرنسية، من بحّارة وحجاج وشيوخ ورهبان وأعيان وأغوات. كانت السوق تمثل تنوع المدينة، وتنوع قاصديها من حوض المتوسط للتجارة أو الحج أو الصيد، أو بناء السفن والقصور. كان يحب هذه الأجواء، بما فيها من ازدحام وروائح ورجال. لكنه كان يحب، بعد عودته للمترل، أن يختلي بالريشة ودواة الحبر والورق ليخط الآيات والحكم والأمثال بخط الثلث. وكان يحلو له أيضًا الجلوس أعلى التلة يستغرق في التأمل ويصغي لنداء البحر.

وما إن وصل إلى مرحلة الشباب المبكر، حتى اكتسب لياقة وجسمًا مفتول العضلات، وبنية متينة، وجرأة تفوّق فيها على أقرانه، وخصوصًا في رياضة القفز من أعلى أسوار يافا إلى المياه العميقة، التي كان الأولاد يمارسونها في الأعياد.

كان الصيادون يراقبونه وهو يتسلق السور وينتظرون قفزته. كما كان الصبيان الذين يعودون من عملهم في مصانع الفخار والمدابغ، يتوقفون وهم في طريقهم إلى بيوتهم التي تحاذي الشاطئ في منطقة تلال الرمل، حيث تتجاور بيوت الفقراء مع ثكنات الجنود من حامية يافا.

تتوقف حركة الصيادين الذين يصلحون شباكهم قبل الغروب، يرفعون رؤوسهم إلى الأعلى، إلى السور الشاهق، يراقبون صعوده إلى أعلى برج يُحجم بقية الأطفال عن الصعود إليه، وتتعلق أبصار عمال الدباغة والفخار بخطواته السريعة والواثقة وهو يصعد صعود النمور، ويتوقف المارة، وتطل نساء الحرملك من شرفات قصر القلعة،

ويسترعي ذلك انتباه بعض جنود الحراسة الذين يحرسون القصر. كما أن أصحاب الحوانيت، الخواجات المهاجرين من بحر إيجة، الذين يبيعون النبيذ وأنواعًا أخرى من الخمور، يخرجون وهم يمسحون بالمناشف أياديهم التي تفوح منها رائحة بهار السجق، ويجلسون على كراسي القش وعيونهم مشدودة. ويبدأ القلق يطل من حدقات العيون، على الرغم من أنها ليست المرة الأولى.

لا يفكر سواه بالصعود إلى قمة البرج، ويواصل الصعود خفيفًا رشيقًا، وتخشى العيون عليه من التعثر والسقوط؛ فالرمال تغطي مصاطب الحجارة الضخمة، ويمكن أن تخونه قدماه، فيتزلق إلى خطر غير محسوب. لكنه يتحلى بالثقة والحذر، ويصعد بلا كلل.

يصل أخيرًا. يصل وهو يلهث. ولا ينتظر كثيرًا. يفرد ذراعيه على سعتهما، مثلما تفعل النسور. يتمتم بشفتيه قراءة صامتة، ثم – وهنا تنشدّ القلوب وتدق نبضاتها بعنف– يتهيأ للقفز؛ يشدّ صدره إلى أعلى، ويحرر باطن قدميه من الجاذبية، ويندفع اندفاعة جسورة، يثب وثبة نمر، يطير في الفراغ، ويبدو في الفضاء الهائل كقشة، وفي الفضاء، ومع الريح الخفيفة، يلعب بالهواء، أو يلعب به الهواء. يدور حول نفسه. وتدور معه العيون. وتخفق القلوب. وتصبح اللحظة ساعة. يدور ويدور ويشده صخب البحر وهياجه إلى الأسفل. وعندما يشتد شبق الموج، يغلق جناحيه، ويسدد ساعديه إلى أسفل. وبجسارة قلبه وروحه، يشق الموج ويغطس وسط تصفيق وصفير وهرج ومرج. وتقترب الجموع من الشاطئ بانتظار إطلالة رأسه من المياه التي يعكّرها الزبد والرغوة. وحين يصعد من العمق، ويطل رأسه

ثم جذعه ويلوح لهم، يرتفع الثناء. وبعد هذه القفزة، يحلو له أن يكمل رياضته بالسباحة واختراق الموج والذهاب إلى العمق، إلى عرض البحر. وتظل الجموع تنتظره إلى أن يعود.

ذات مرة، وجد نفسه بعد أن أتم قفزته وغطس، ثم سبح نحو عمق البحر، وجد نفسه وجهًا لوجه أمام حوت انشقت الأمواج عنه وصعد إلى السطح وهو يطلق عمودًا من الماء والرذاذ من فتحة نفّاثته التي تعلو رأسه الضخم، ظهر رأسه الرمادي وزعانف ظهره المنقّطة، وكان يفتح فكيه.

داهم يوسف خوفٌ ورعب، فارتبك ولم يدرِ ماذا يتعين عليه أن يفعل. وانتقل الرعب إلى يديه اللتين لم تعودا تقويان على التجديف. ثمّ إنّ الحوت أغلق فكيه وتوقف. بل إنه توقف عن نفث الماء، وسكنت حركته، وبقيت المسافة بينهما على حالها، وبدا كما لو أنهما يتبادلان النظرات. لم يبدِ الحوت أية حركة توحي بالعداء. بدأت الطمأنينة تتسلل إلى قلبه. رفع الحوت ذيله وغاص تحت الماء. اختفى تحت الأمواج التي اصطدمت بعضها ببعض، وعلا زبدها. وبدوره، غاص يوسف تحت الماء، وبدأ يسبح عائدًا بأقصى ما يستطيع. سبح وواصل السباحة تحت الماء، ثمّ صعد إلى السطح ليتنفس.

لم يعد يشاهد الحوت. لعلّه عاد من حيث أتى عندما اقترب من المياه الضحلة.

في تلك الليلة، كانت حكاية يوسف والحوت حديث المدينة، حديث القصر ومجالس الوالي والأغاوات ونقباء الأشراف، ومجلس

الجواري؛ الجواري اللواتي يرتدين فوق قمصانهن شالات الكشمير، يغطين بها أذرعهن البضّة وصدورهن العامرة.

مجالس الوالي والأغاوات والأشراف تتحدث عن نبوغ وشجاعة وجسارة صبي، ومعجزة ظهور حوت في شواطئ يافا، ففي هذا البحر، لم يسبق للبحّارة والصيادين الذين يجوبون البحر المتوسط أن شاهدوا حوتًا، ويعرفون أن مواطن الحيتان تقتصر على المحيطات.

في مجلس الوالي، قال شيخ المسجد الكبير إنّ يافا لم يأتِ إلى شواطئها حوت إلا في العهود القديمة، أيام النبي يونس عليه السلام، عندما أوحى الله للحوت بحفظه في بطنه ونقله إلى شواطئ يافا، حيث نجّاه الله من الغرق. وقال شيخ المسجد أيضًا إن العلماء والفقهاء يقولون إن حوت النبي يونس كتب له أن يبقى حيًّا مدى الدهر ببركة الأنبياء ومعجزاتهم، ولعله الحوت ذاته الذي يطوف من زمن إلى آخر في الأمكنة التي مرّ بها الرسل.

أولى الوالي اهتمامًا كبيرًا لهذا الحدث، وطلب أن يأتوا إليه بهذا الشاب ليسمع منه الحكاية، وأثنى بعض الحاضرين على الفتى، وقالوا إنه سيكون له شأن كبير. وفي مجالس الجواري، كان الحديث عن الحوت مناسبة للإطراء والثناء على الفتى يوسف، والتحدث عن وسامته، وجمال خلقته، ورشاقة جسده، وما يثيرهن في صدره وعضلاته وبطنه. وعلى الرغم من أنهن شاهدنه عن بعد، فقد ذهبن لوصف ما لم يشاهدنه، كجهازه الذكوري وشعر عانته.

وعلى الرغم من ذياع صيت ولده، فإنّ أحمد آغا ظل يساوره القلق من تعلق الولد بالبحر ورسم الخطوط، ونزوعه إلى المغامرة

الجسورة، فقد كان يهيئ ولده ليخلفه في تجارة الصابون، ويضمر له حياة هادئة لا يتعرض فيها للشقاء أو الخطر، حياة يتخذ فيها موقعًا بين الأعيان والأشراف، فلا يبرح يافا إلاّ إلى بيت المقدس ومكة المكرمة والحرمين والأستانة وديار شام شريف، حياة يجد فيها مجلسه في الأعياد والمناسبات في قصر الوالي، ويتخيّله وهو يلبس كسوة فاخرة عليها شال مطرز بخيوط الذهب، وعمامة كبيرة، وتكسو وجهه لحية وشاربان مشذبان، ويكون له رأي في العقد والعزم، ويتقدم في المكانة الاجتماعية، فينال لقب الباكوية.

غير أن الولد الذي شب وبدأ شعر شاربه وذقنه يبزغ وينمو ويعطي لوجهه مهابة وفتوّة، ما زال متعلقا بالبحر والرسم، ويبدو أن طموحه يتجاوز كل الحدود.

بدأت تظهر عليه علامات تمرد مبكر؛ فقد بدأ يتأنق في ثيابه، ويختار قمصانًا من البضائع القادمة من الهند، قمصانًا ملونة ومزركشة ومشجرة وتتفتح على نسيجها ورود وزهور، يلبسها فوق سروال شامي، وعلى رأسه طاقية لا تغطي كامل شعره الطويل.

ويوسف الجميل، الذي له جمال النبي يوسف، كما قالت حبيبات هنانة، مرّ بالتحوّلات التي يمر بها الفتيان، ودخل في مرحلة مراهقة عنيفة؛ إذ كان محط أنظار صبايا المدينة وجواري القصر. وكان يواعد البنات في ضواحي يافا الشمالية، عند بساتين الحمضيات والتفاح، التي تحاذي ضفاف نهر العوجا، أو جريشة، كما يسميه أهالي يافا. هناك متنزه طبيعي، بين المياه والينابيع وحدائق الورد، هناك كان يلهو معهن ويمسك بأياديهن، ويمسد شعورهن،

ويداعب خدودهن. ومر أثناء ذلك بتجربة جسدية صاعقة، إذ أغوته جارية حسناء مجرّبة، لها عينان واسعتان ونظرات تشبه المخالب، أغوته بالدخول إلى الغابة فتجاوب معها، وطلبت منه –إمعانًا منها في الغواية– أن يلعبا لعبة يمارسها الأطفال ببراءة، لعبة "عريس وعروس"، وتقضي اللعبة بأن يلاحقها فتهرب منه بين الأشجار، تعصب عينيه فيلحقها وهي تصفق بكفيها ليقتفي أثر خطواتها ورائحة عطرها. الرائحة فعلت فعلها وأوصلته إلى حالة حارقة من الشبق. أحسّ بالنيران تشتعل داخله. ظلت تستدرجه في بساتين البرتقال، ثمّ توقفت وخلعت ثيابها وفكت العصبة عن عينيه، وفوجئ بها عارية، شعرها يتطاير، وصدرها نافر، نهداها بارزان بحلمتين ورديتين، وبطنها أملس. ازداد اشتعالاً، فخلع قميصه واندفع يعانقها. وعند ذلك، تحولت شفتاه إلى جمرتين، وما إن لامست شفتاه نحرها، حتى صرخت صرخة مرعبة، احترق أسفل رقبتها عند نحرها بجمر شفتيه.

كانت تلك هي تجربته الأولى. لم يدرِ ما الذي حصل. أي بركان هذا الذي يسكنه، وكيف تحوّل جسده إلى سفود نار؟!

وسط ذهول حارق، شاهدها تعدو عارية، تحمل ثوبها وتهرب وتتعثر، ثم تغيب وراء الأشجار. كانت حمى تغلي في جسده. انبطح على الأرض، وحاول أن يفكر أو يرتب أفكاره. مرت لحظات ولحظات، ثمّ.. أغمض عينيه وأخذته سِنَةٌ من النوم.

عندما استيقظ، وجد نفسه محاطًا بكوكبة من جواري القصر، ينظرن إليه بشغف وانبهار، وقد أماطت كل منهن الخمار، فظهرت له وجوه تركية وشركسية وقوقازية وألبانية.

ألقت إحداهن عليه غصنًا من شجرة ليمون تفتّحت عليه زهور بيضاء. وألقت أخرى بعِرق من الريحان، وثالثة بباقة من النرجس البري. ومن خلفهن، تقدمت جاريته التي تغطي رقبتها بشال أحمر. نظرت إليه بعنجهية ونزق. كان شالها يغطي شعرها ويغطي أثر قبلته على نحرها. وكانت، كما يبدو، قد كسبت رهانًا ما. ثمة تواطؤ ونظرات انتصار. يا لدهاء هؤلاء المحظيات اللائي مللن البلاط والبخور والشهوات والإمتاع والتسرّي والانتظار وراء باب الحرملك! يا لخيالهن الملتهب! كم يَتُقن إلى أن ينطحهن كبش المغامرة.

***

الفصل الثاني

تعلّق يوسف بالبحر. يسبح للعمق بحثًا عن الحوت. بحث طويلاً دون أن يعثر عليه. سأل مرارًا البحّارة الذين يختلفون إلى حانات الشاطئ ما بين الرسوّ والإقلاع، يبحثون عن روح وراح. يندس بينهم ويسأل عمّا إذا كانوا قد شاهدوا في عمق المتوسط حيتانًا، فكانوا يسخرون منه، ويقولون إن موطن الحيتان المحيطات وليس البحار. يسرد لهم حكايته مع الحوت في عمق الشاطئ، فيضيقون به ذرعًا، ويقول أحدهم إن ما يسرده مجرّد خيال، وينصحه بأن يوظّف سعة خياله في كتابة الشعر.

ويضيف آخر: إذا كان يرغب في اتخاذ صيد الحيتان مهنة له، فليذهب إلى عدن، وهناك يمكنه الاختلاط بأمهر الصيادين، ويتعلّم منهم ويبحر معهم في المحيط الهندي.

لكنّه لم يكن يرغب في امتهان صيد الحيتان، وإنما يبحث عن حوت بعينه أحبّه وشعر بألفة نحوه.

أقنع نفسه بأن ما حدث له مع الحوت ربما يكون صدفة، وربما يكون، كما قال أحد الفقهاء، حوت النبي يونس، وأنه محظوظ لو كان الأمر كذلك. ولعلّ الحوت زار شاطئ يافا، ثمّ مضى بعيدًا في رحلته الأبدية.

***

لم يعد يقفز إلى البحر من أعلى السور، أو من محيط المنارة، فقد كبر على اللعب مع الصبية، وكبر على استعراض مهارته لجلب الإعجاب. لكنه ظل شابًّا محببًا لأصحاب الحوانيت الصغيرة من المهاجرين الذين يبيعون السجق والخمور. وكثيرًا ما كان يختلط بالشباب والصبايا والأطفال الذين يمرحون على الشاطئ. بل إنّه تعلّق بفتاة شقراء كانت تمرح مع رفيقاها على بقعة جانبية من الشاطئ بعيدًا عن الاكتظاظ والازدحام، فتاة غريبة لم يرها من قبل، اعتادت المجيء إلى الشاطئ مع رفيقاها ليسبحن بعيدًا عن الأعين، ثم يلعبن على الشاطئ، ويبنين من الرمال تلالاً وأشكالاً غريبة. وامتلك يوسف الجرأة التي مكّنته من اللعب معهن، إذ علّمهن بناء البيوت من رمل الشاطئ، وأثار اللعب معهنّ خياله، فكان يأتي باكرًا قبل وصولهن، فينتحي ذلك الجانب البعيد من الشاطئ، ويطلق الخيال ويصنع قصرًا يحاكي قصر الحاكم، أو قصرًا يحاكي السراي، ومن بعد ذلك، قصورًا يتخيّلها ويصنع لها جندًا وأبراجًا.

كانت الرياح تهدم قسمًا مما بناه في كل مرة. ولكنّ الفتيات يتوقفن أمام أطلال قصوره ويبدين إعجابهن بما بقي من جمالها وروعة معمارها، وحتى بنات قصر الوالي من حرائر وجوارٍ كنّ يلقين نظرات من وراء الأسوار، ومن خلال المناظير التي تمكنهن من رؤية ما وراء جدران الحرملك.

سحرته الفتاة الشقراء واسمها ماري. سحرته هذه الفتاة الشقراء بيضاء البشرة ذات العينين الزرقاوين، فظل يدعبس ويسأل،

حتى عرف أنها ابنة قنصل الدولة العلية العثمانية في مدينة باردو بفرنسا، وأمها طبيبة فرنسية، وعائلتها تقضي عطلتها الصيفية في منزلها الفاخر في البيوت المتدرجة على التلة.

عندما رآها لأول مرة، كانت تميّز نفسها عن الأخريات بلباسها؛ فثوب السباحة الأسود الذي تلبسه من قطعة واحدة تغطي قامتها حتى الركبتين، وفي الوقت نفسه، تبرز صدرها وخصرها. بينما الأخريات من بنات طبقة يافا اليونانية الغنيّة يلبسن القمصان الفضفاضة والسراويل الطويلة البيضاء.

كانت ماري، أو على الأصح ميراي، كما يلفظها الفرنسيون، لطيفة ولها رقّة البسكويت، وكانت تتكلم الفرنسية بطلاقة، وتتكلم التركية بطلاقة أيضًا. أما العربية، فتتحدثها بصعوبة، وبلهجة مغرقة في محليتها.

كان يلذ ليوسف أن يحدثها باللغة الفرنسية التي تعلّمها بمدارس الراهبات. وكانت تتجاوب معه في الحديث. حدّثها عن الحوت وأثار خيالها. وحدّثها عن هوايته في كتابة الخط العربي في تشكيلات ساحرة، ورسم الوجوه والبحر والخيول والقوارب، فلفت ذلك اهتمامها. وحدّثها عن اهتمامه بالمعمار المملوكي والعثماني، ورغبته في إكمال دراسته في الهندسة المعمارية، فأبدت إعجابها. وبدورها، حدّثته عن مجتمع باردو، وكيف تسهر وتستقبل الغرباء بكل الود، وعن حريّة النساء ومشاركتهن في الحياة العامة، وإباحة الاختلاط بين الذكور والإناث في المدارس وفي المسارح وحفلات الرقص. وحدّثته عن الإتيكيت والبروتوكول وعالم القناصل وزوجاتهم وعائلاتهم

ومآدهم وحفلاتهم وأناقة ثيابهم وعطورهم، وتعلقهم بالروايات الرومانسية. وحدّثته أيضًا عن باريس، وطبقتها العالية من النبلاء والإقطاعيين ورجال الكنيسة، والصراع الذي تشهده الآن بين هؤلاء والفلاحين والجياع في الشوارع. وحدّثته عما سمعت من فوضى في أحيائها وميادينها ينشرها الدهماء والرعاع، الذين يثورون على النظام الملكي.

أثار حديثها عن فرنسا اهتمامه؛ فلأول مرة يسمع شيئًا من شاهد عيان عن نمط الحياة هناك. رسمت في ذهنه صورتين لذلك الغرب الذي يسمع عنه: صورة عن أناقة الحياة، وصورة عن بؤسها.

***

التقى بها مرات عديدة، وكانت سعيدة به، وعبّرت عن سعادتها بدعوته لزيارتها في منزل عائلتها. قالت له إنّ العائلة تنظّم حفلة موسيقى في البيت لعدد من أسر يافا، وبعض القناصل الأوروبيين المقيمين في القدس، وشخصيات رسمية من السراي، وإن والدها استقدم فرقة أوركسترا من باردو، وإنه سمح لها بدعوة أصدقائها من الجنسين.

لكنه لم يذهب؛ لأنه، من جهة، لا يملك بدلة سوداء رسمية يحيط بياقة قميصها شريط ملوّن يربط على شكل فراشة، ومن جهة أخرى، لأنّه لا يتقن الرقص.

***

عندما حل فصل الشتاء، وتساقطت الأمطار وهبّت الرياح وتلاطمت الأمواج. توقف عن بناء قصوره من الرمال، ونقل بناءها بالرسم على الورق، الورق الدمشقي السميك بلونه العاجي.

عندما يرسم قصوره على الورق، يستطيع أن يلوّنها، ويستطيع ان يزوّقها ويزركشها، وتتحول إلى لوحة. أبدع في رسم الصور على الورق، حتى إنّه لم يعد يفكّر في بنائها من الرمل على الشاطئ، بل إنّه انتقل من رسم القصور إلى رسم الأسواق والحوانيت والبضائع والمتسوقين من الرجال والنساء، ومن الفلاحين الذين يعرضون على جوانب الطريق بضائعهم من الخضار والفواكه، ورسم الصيادين وقواربهم وهم يصيدون الأسماك بشباكهم.

عرض رسومه المزدانة بالضياء والظلال واللمسات والخيال، وبما هو بيزنطي أو مملوكي من قصور يافا ومآذنها وقبابها وما يحيط بها من أشجار مثمرة وزهور وورود، عرضها على ماري، فأبدت دهشة وفرحًا. وبالغت في الثناء والإعجاب. وقالت بلكنتها الفرنسية التي تشبه زقزقة العصافير: إنها صور مشرقة لسحر الشرق.

انتقى منها واحدة قدمها لها هديّة. لوحة عن الطراز المعماري لأسواق يافا، وما تحويه حوانيتها من توابل وسجّاد وصناعات تقليدية، لوّنها واعتنى بتلوينها وتظليلها، وزركشتها، وصنع لها إطارًا، فاسعده أن يتلقى الثناء والإعجاب. حملتها إلى البيت وقد غمرتها المسرّة.

***

كثرت الرسوم التي تحولت إلى لوحات وملأت البيت. وبدأت أمّه هنانة تتذمّر من الفوضى التي دبّت في المكان. وتفهّم والده أحمد آغا قلقها، فاكترى بيتًا قريبًا من كنيسة الأرمن ليكون بازارًا للرسم وتخزين الرسوم واللوحات وبيعها.

سهر يوسف على تنظيف البازار ذي المعمار العثماني، ودهانه، وطلاء جدرانه، وزخرفتها. خصص صالة للعرض، وصالة للرسم، وصالة للجلوس، وغرفة للنوم.

سهر على إثراء معرفته بفنون الرسم والألوان، ورغب في الانتقال للرقش بالفسيفساء، فسافر إلى الأستانة، واطّلع على لوحات الفسيفساء في الكنائس البيزنطية، واختلط بعمامل وورش صنع الفسيفساء.

طاف في مدن بلاد الشام والعراق. واطّلع على رسومات لرسامي البازار الذين يرسمون لوحات شعبية عن البيئة المحيطة متأثرين بالفن السلجوقي والمغولي والفارسي التبريزي، ويبيعون لوحاتهم لسيّاح ورحّالة وبعثات أجنبية. وأمضى فترة طويلة في مدينة عكا مترددًا على بازارات الرسم في خان العمدان وخان الفرنج والسوق الأبيض وحمّام الباشا، وكان للسور والقلعة والخانات والجوامع والأبراج والساحات والبحر والسفن وقوارب الصيد نصيب كبير؛ فمعظم الرسامين لا يرسمون الأشخاص ولا كل ما له روح من حيوان أو طير، امتثالاً لما ينهى عنه رجال الدين المتشددون. لكن بعضهم

رسم وجوه شخصيات وعمالٍ ونساء، وأسماكًا وطيورًا، بل إنّ ثمة من رسم حوريات البحر بلا حرج.

التقى (بازركانات) السوق، واطّلع على أساليبهم في العرض، ومهارتهم في البيع والتسويق، وبراعتهم في التعامل مع السائحين والزوّار والمتنزهين. ودقق في الرسوم واللوحات ذات الإطار، المحلية أو المجلوبة من الخارج. وكانت ثمة لوحات مخبأة لا تعرض إلا للخاصة، وهي اللوحات المحظور عرضها، لعشيقات وعشّاق، ولنساء شبه عاريات يخلبن الألباب.

سحرته وفتنته تلك اللوحات المحظورة، لكنه لم يتمكن من اقتناء أي منها؛ لأن ثمنها باهظ، ولأنّ البازركان لا يبيعها إلا للأجانب.

وظلت تلحّ عليه رغبته في الانتقال إلى الرسم والرقش بالفسيفساء، فاشترى الأدوات اللازمة من ملاقط وأدوات تكسير المواد، إلى قطع صغيرة، لكي يهيئ نفسه ذات يوم للتفرغ لهذا الفن العريق الذي يحتاج إلى أناة وصبر وذوق.

***

اشتهر بازار يوسف، وكثر المترددون عليه. نشط في الرسم والبيع، تردد عليه سيّاح وحجاج وقباطنة سفن وكبار الموظفين في السراي وعائلات من علية القوم. وامتلأت جيوبه بمسكوكات ذهبية من فئة سكوين، وفضيّة من فئة البشلك والبارة، ومسكوكات نحاسية من فئة الزلطة والأكتشة.

خبّأ نقوده مع أمّه بهنانة. وكانت بهنانة لا تتوقف عن حضّه على الزواج، وتعرض عليه أسماء صبايا من كبار عائلات يافا، وتزنّ، كما النحلة، على مسمع والده أحمد آغا بمناسبة وبلا مناسبة، من أجل تزويجه؛ فهو ولدهما الوحيد، وحان الوقت ليريا أولاده قبل فوات الأوان.

وكان يلذ له أن يسمع ذلك؛ إذ كانت صورة ماري تملأ خياله، لكنه لم يكن في عجلة من أمره.

غير أنّ والده كان له رأي آخر؛ فما دام اختار طريقًا غير طريق التجارة، ولمس ذلك من ابتعاده العنيد عن هذا الخيار، فيتعيّن أن يكمل علومه في هندسة المعمار في الأستانة. وقد أعلن رأيه أمام بهنانة ذات ليلة مخاطبًا ولده، ومتجاهلاً زنين بهنانة: يا بني، بنيت قصورًا على الرمال وعلى الورق. وحان الوقت لتتعلّم بناء القصور على الأرض، قصور حقيقية تجمع ما بين المعمار والخيال، وتكون فريد عصرك في هذا المضمار.

وكان يوسف يرغب حقًا في دراسة علم الهندسة في الأستانة، ويعيش هناك في مناطق سحر البسفور وجزر الأميرات ويطلع على ما خلّفته الحضارة البيزنطية من معمار ولوحات فنية وأيقونات وأعمال رقش بالفسيفساء، وما أضاف عليها العثمانيون من لمسات وتزويق وتشجير وخطوط ومآذن وقباب وأروقة وغيرها من بذخ الفنون.

لكنّه في الوقت نفسه، لا يرغب في هجر فن الرسم، ولا يرغب في الاغتراب عن يافا. لا يرغب في الابتعاد عن البحر والمنارة والميناء والأسوار والأبراج والتلة وصخرة الأميرة والسراي وقصر الوالي

والبيوت الحجرية المتدرجة، ولا يرغب في الابتعاد عن هنانة وأحمد آغا، ولا عن غوايات الجواري على ضفاف نهر الجريشة، ولا عن الصبايا اللواتي يسبحن على بقعة آمنة على امتداد الشاطئ، ولا عن ماري ذات الإطلالة المبهجة، ولا عن ضجيج الحياة في الأسواق وتنوّع الحياة وألقها وكثرة العابرين والزوّار والسياح، وبعد ذلك أو قبله، لا يريد الابتعاد عن البازار بألوانه وكائناته وعمائره وأسواقه وأقواسه.

لكنّ أحمد آغا كان يرتّب لولده أمور حياته المستقبلية، ويمهّد له الطريق على مهل.

***

زارته ماري في البازار مرات ثلاثًا.

المرة الأولى زارته مع والدها، تلك السيدة الفرنسية الأرستقراطية التي تتحدث بأناقة، وتبتسم بأناقة، وتلبس الثوب العصري بأناقة، وتضع على رأسها القبّعة بمنتهى الأناقة.

المرة الثانية زارته برفقة والدها وصديقة للعائلة ذات حضور طاغٍ.

يومها، جلست السيدة الفرنسية أمامه لكي يرسم لها بورتريه بقلم الفحم الأسود، فرسم وهو يلقي نظرة على السيدة الفرنسية، ونظرتين على وجه السيدة المرافقة ذات الشأن وذات الحضور الطاغي، التي كانت تلبس قفطانًا تركيًّا بنفسجيًّا من الحرير الخالص،

ومطرزًا بلمسات رشيقة لزهور بريّة عند الصدر، وتلف خصرها بحزام عريض، وتغطي كتفها بشال يمنحها ترفًا ومهابة.

كانت تشيح بنظراها عنه كلما التفت إليها.

أنهى البورتريه للسيدة الفرنسية بمشقّة. وأمل بأن تتاح له فرصة تقديم مشروب القهوة لهنّ في غرفة الجلوس، إلاّ أن السيدة ذات الشأن كانت على عجلة من أمرها، فاعتذرت الأم الفرنسية بلباقة وأناقة. غير أنّ السيدة ذات الشأن توقفت قبل أن تغادر، ودققت في لوحة على الحائط، لوحة من رسومه الأخيرة تمثّل أسطورة يافا منذ العهد الإغريقي (أندروميدا). دققت بها ونظرت إليه وابتسمت. لعلّها ابتسامة استحسان.

في الزيارة الثالثة، جاءت ماري وحدها. طرقت الباب ودخلت بوجهها الطفولي، وعينيها الزرقاوين، وشعرها الأصفر، وأنفها الدقيق، وفمها رقيق الشفتين، وثوبها الفضفاض.

استقبلها في غرفة الجلوس. جلست وقدمت له طبقًا من الحلوى، وقالت له إنّها حلوى فرنسية صنعتها أمّها بيديها.

وقالت له إنها جاءت لتودعه، لأنها عائدة مع العائلة إلى فرنسا، وإن الباخرة ستغادر في وقت مبكّر من صباح الغد.

واغرورقت عيناها وألقت بنفسها على صدره.

كانت حركة عفوية. وكانت تعبّر بصدق عن مشاعرها. ربت على كتفها، ومسح دمعها، واعتبر ذلك تعبيرًا صادقًا لا تشوبه غواية.

بعد أن هدأت، تمنى لها رحلة سعيدة ووصولاً بالسلامة. وحكت هي بدورها كلامًا لا يقل أناقة عن كلام أمها. وتحيّن الفرص ليسألها عن تلك السيدة ذات الشأن التي سحرته حتى الذهول، لكنها كانت تواصل الحديث بلغتها الفرنسية التي تحاكي الزقزقة دون توقف، ولم تحن الفرصة إلا وهي تتهيأ للانصراف، فقبل أن تغادر، تمكن من طرح سؤاله، فابتسمت وغمزته بعينها اليسرى قائلة: إنها العيطموس، السيدة ذات العزة، الأميرة القادمة من الأناضول.

***

الفصل الثالث

شاءت الأقدار أن تدخل العيطموس حياته.

العيطموس هي المرأة كاملة الأنوثة، كاملة الأوصاف. اقتحمت حياته أو اقتحم حياها ذات صباح بمذاق الزبيب المخمّــر. دخلــت بنصيفها البرتقالي الشفّاف الذي يغطي رأسها ويلتف حول كتفيهــا. استقبلته بقصرها الصغير ذات صباح له صفاء اللبن الرائب. دخلت تسبقها رائحة مسك تذري فتيته تحت ثيابها. دخلت متوردة الخدين، ففوجئ وتاهت نظراته. دخلت رافعةً الرأس، أنــف أقــنى شمــوخ، وذراع مزين بالحلي والخواتم، ويد مخضبة بالحناء مــا بــين الرســغ والأصابع، والحلق يتأرجح تحت أذنيها ويشي بسحر هامتها وعلوها.

كان قد ذاع صيتها في يافا عندما حلّت في قصر يجاور منطقــة قصور الوالي وكبار ضباط الحامية العسكرية. كان هذا القصر الصغير قد شيّده جركس باشا، أمير البحار لجزر بحر إيجة. وتناقلت الألســن أن العيطموس محظيته وعشيقته، وقد لبّى رغبتها في الانتقــال مــن الأستانة إلى مدينة يافا ووهبها هذا القصر. كان يحيط بها الغمــوض. تناقلت الألسن نتفًا من المعلومات التي تتفوّه بها الجــواري وبعــض التجّار الأرمن الذين يتاجرون بالتحف والمشغولات اليدوية.

قالوا إنها يهودية، لكنها شوهدت تمارس العبــادة في مصــلّى النساء الملحق بالمسجد الكبير في حي العجمي. وقالوا إنها مســيحية، لكنّ الجواري أكّدن أنّها تضع إلى جانب سريرها نسخة من كتــاب التوراة. وقالوا إنّها تعتنق البوذية عندما لاحظوا ترددها على صخرة

الأميرة على الشاطئ وممارسة رياضة التأمل. لكنهم كفّوا عن ذلك عندما أسست تكية بجانب مسجد حسن بيك في المنشيّة، عرفت بتكية جركس باشا الخيرية، التي كانت تقدم وجبات الطعام للفقراء والدراويش والمسافرين.

قالوا إنّها ثريّة تملك عقاراتٍ وأموالاً وأسطولاً من السفن التجارية تحظى بحماية أمير البحر جركس باشا.

أحاطها الغموض؛ فلم يعرف أحد إن كانت تركية أم شركسية أم من أصول إغريقية. لكن مع مرور الأيام، أصبح لها محبّون من الناس الفقراء والبسطاء لتواضعها، فرغم مكانتها كسيدة في مجتمع الأثرياء والأعيان وكبار التجار، فقد كانت تتصدق على المحتاجين، وتزور المرضى في البيمارستان، وتوزع لحم الأضاحي في الأعياد.

دعته لزيارة قصرها بعد أن زارت بازاره ومرسمه ومتحفه برفقة زوجة القنصل وابنتها. أرسلت له مع أحد خدمها أو جواريها رقعة مكتوبة بخط اليد، خطّتها هي أو خطّها سواها، لا يهم، المهم أنها دعته، وحددت الرقعة أنها اجتماع من أجل التكليف بعمل.

كان لا بد من أن يسأل عنها قبل تلبية الدعوة. ما أكثر الكلام! فهناك من يبالغ، وهناك من يقلل الشأن. هناك من يمدح، وهناك من يقدح. لكن تاجر الجواهر في سوق الذهب، اليهودي (إريك مولخو)، الذي هاجر إلى يافا قادمًا من إزمير، كان يعرفها؛ يعرف أصلها وفصلها، فهي مسيحية من إزمير. لكنه لا يعرف إن

كانت غيّرت ديانتها أم لا. وهي من عائلة عريقة تعمل في تجارة السجّاد.

تاجر السجّاد يزيد أفندي، وهو من أشهر تجّار السوق في هذا المجال، حكى معلومات سمعها من صاحب المصنع الذي يورّد له البضاعة من أعالي الأناضول، فقال إنّ قراصنة في الماضي هاجموا أطراف إزمير واختطفوا أطفالاً من إحدى المدارس المسيحية، ونقلوهم إلى جزيرة رودس في بحر إيجة، وباعوهم في سوق الرقيق، فاشتراهم تجّار من الأستانة وباعوهم إلى باشاوات وأعيان، فأخذ الذكور ليخدموا في القصور، وأخذت الإناث لضمهن الى سلك الجواري في حرملك الولاة والباشاوات، ومن بينهن كانت العيطموس. لم يكن هذا هو اسمها، فقد كان اسمها هيلين، لكن هذا هو الاسم الذي أطلقوه عليها في حرملك قصر السلطان عندما أهداها سيدها جنكيز باشا إلى القصر، فالعيطموس هي السيدة كاملة الجمال. كانت في الثامنة من العمر حين انضمت إلى حرملك هذا الباشا، وفي هذا الحرملك، تمت أسلمتها، فتعلّمت الكتابة والقراءة، وحفظ القرآن، وأداء الصلاة والصيام، وقواعد السلوك والتصرف، والعزف على آلات الموسيقى والغناء والرقص، وتعلّم اللغتين التركية والعربية، لغة القرآن، واللغات الأوروبية. وعندما انتقلت من قصر جنكيز باشا إلى قصر السلطان، كانت قد أصبحت فتاة بالغة، وكانت إلى جانب جمالها قد امتلكت الثقافة التي تؤهّلها لدخول الحرملك.

وللقصة بقية تعزى تفاصيلها لأمير بحر إيجة جركس باشا.

كان قصرها قريبًا من قصر الوالي والسراي، لذا، ربطتها صلات حميمة مع نساء الوالي ومحظياته من الجواري.

***

ذهب في صباح اليوم التالي، وفوجئ بأنه لا توجد عند باب قصرها حراسة. طرق الباب ففتح له أحد الخدم. وكانت تنتظره خادمة أو جارية سوداء نمّ لباسها عن أنّ لها شأنًا عند سيدها. رحبت به ورافقته إلى الليوان الذي يستقبل به الضيوف. انتظر قليلاً قبل أن تطلّ العيطموس.

أذهلته إطلالتها، لكنّه سيطر على إحساسه الأرعن، وقابلها بتهذيب ورقّة. وبيدها المخضّبة، أشارت له بالجلوس على المتكأ بجانب النافذة المطلة، عن بعد، على بساتين البرتقال القريبة.

جلست ولم تأبه برعشة لمحتها، سرت في أطراف أصابعه، فلعلّها اعتادت ذهول الرجال الذين يقابلونها لأول مرة.

جلست وظلت الجارية الحبشيّة التي تصاحبها تقف في زاوية من زوايا المكان.

تعاملت معه برقّة أيضًا. قالت له إنّها سمعت عنه من نساء الوالي وجواريه. سمعت عنه من تجّار الذهب والجواهر. سمعت عنه من قنصل فرنسا في القدس، فلم تتردد عندما عرضت عليها صديقتها زوجة القنصل مرافقتها، وإنّها أحبت رسومه وأعجبت بأسلوبه، وبالألوان التي يستعملها. كما أثنت على لوحة (البورتريه) التي رسمها للسيدة.

كما أبدت إعجابها بالبيت العثماني الذي اختاره ليكون بازارًا ومرسمًا.

ثمّ صمتت، وأشارت إلى الجارية لإحضار العصير أو الشراب.

نشطت الريح فجأة، فهبّت نسمة تحمل رائحة أوراق الليمون. وكان يداري ارتباكه ويحاول أن يتماسك ويجد كلامًا يقوله.

قال مداريًا ارتباكه: الطقس اليوم ربيعي جميل.

أجابت بابتسامة ماكرة: صحيح، نهار رائق.

إذ ذاك، انتبه إلى أنها اختارت لباسها بلون ثمار الحمضيات وأوراقها؛ فثوبها الأخضر الفستقي ينسجم مع نصيفها البرتقالي الشفّاف الذي يغطي رأسها، وعند الحاجة، يمكن أن يصبح خمارًا.

هزّ رأسه بالموافقة، وردد قولها: صحيح، نهار رائق.

قررت انتشاله من الارتباك، فعادت تتحدث عن لوحة الأميرة الأسطورة أندروميدا التي لفتت نظرها في مرسمه.

– إنها تحفة.. تحفة رائعة.

ابتسم، وحاول أن يعقّب. لكنها أكملت: ثمّ إنك استعملت في عملك مواد من بيئة يافا؛ الألوان المضيئة والهادئة كشمس يافا وبحرها وبرتقالها وزهورها، ولون رمالها.

انتشلته من حيرته. التقط عمق ثقافتها. قال لنفسه إنّه أمام سيدة مختلفة؛ جمالها الخارجي لا يحجب جمالها الداخلي.

جاءت الجارية بالشراب؛ آنية من فضة وكؤوس من بلّور نقي.

شرب من عصير الليمون الممزوج بالنعنع والعسل. شربت من كأس آخر رقيق الزجاج ممتلئ بشراب لونه أحمر، لعله نبيذ. شربت دون أن تشعر بالحرج.

كم تمتلك من الجرأة، وكم هي بارعة في مد الجسور بينها وبين من يجالسها!

نظر إليها كسيدة آتية من الأناضول وبحر إيجة بثقافة منفتحة تختلف عن ثقافة يافا المحافظة.

خطر له أن يسألها عن العمل الذي من أجله جاءت هذه الزيارة، لكن بدا له أن ذلك ليس من دواعي اللياقة، وأنه يتعين عليها هي أن تبادر.

وحان الوقت عند ذلك. هل قرأت أفكاره؟

قالت: لعلّك تتساءل عن سبب دعوتي لك؟

هزّ رأسه بالإيجاب. فأكملت: بعد أن شاهدت لوحاتك وبراعتك في رسم الوجوه، رغبت في أن أكلّفك برسم لوحة بحجم كبير.

دقق في ملامحها كما لو أنه يرسم في خياله جبينها وحاجبيها وعينيها، فقالت، وقد توقعت ما يخطر بباله: لن تكون صورتي.

وأضافت: سنتحدث بالتفاصيل فيما بعد.

وأكملت: سأدفع لك أضعاف ما يدفعه الآخرون.

- لم نتفق بعد على رسم اللوحة. يتعيّن أن أعرف أولاً ما الذي سأرسمه.

- ما دامِ الأمر كذلك، فيجب أن أقول لك ما يتعيّن أن أقوله من دون إبطاء.

صمتت قليلاً وهي تحدق بوجهه الوسيم، وعيناها ترعيان في قسمات وجهه، وكأنما جماله لفت نظرها في تلك اللحظة، ثم قالت: أريد أن ترسم لوحة فريدة لرجل يهمني أمره، رجل عالي القامة، له مهابة السلاطين.

قالت ذلك، ثمّ نهضت دون أن تبعد نظرها عن وجهه، فلعلّها تلتقط شيئًا من رد فعله. نهضت دون أن تقول شيئًا. ذهبت إلى حيث تقف جاريتها الحبشيّة. همست لها برقّة، ثم عادت، بينما توجهت الجارية إلى الداخل.

قالت له: سترى صورة صغيرة له مرسومة بالألوان.

لم يقل شيئًا، كما لم يبد منه أي رد فعل، فصمتت على مضض.

دخلت الجارية تحمل لوحة صغيرة بإطار ذهبي.

تناولت اللوحة، تأملتها قليلاً ثم أدارتها نحوه. رسم لرجل في الخمسين يلبس قفطانًا أخضر اللون، ويضع على رأسه قبعة الـ(كالافي) مزينة بشريط ذهبي وهو يدير الدفة ومن خلفه شراع وعلم البحريّة الأحمر الذي يتوسطه هلال ونجمة، وتغيّب وجهه لحية كثيفة الشعر، لكنّ عينيه تبدوان كعيني صقر، وتنم ملامحه عن قسوة وصرامة. لم يكن بحاجة لأن تقول له إنّها صورة جركس باشا.

ظلّ يدقق في الرسم، ويبحث عن العيوب، وكاد يبدي رأيه، لكنه لم يفعل.

حوّل نظراته إليها. انتظرت منه أن يقول شيئًا. ظل صامتًا دون أن يبدي رأيًا.

وضعت اللوحة جانبًا، ثم سألته: ماذا تقول؟

فكّر قليلاً، ثمّ أجاب: لو كان العرض رسم صورة لك، لما ترددت.

تغيّرت ملامح وجهها. عبست. لم تتوقع أن يرفض عرضها.

وقفت، كما لو أنها تشعره بأن اللقاء انتهى.

فوجئ بهذا الغضب الناري الذي اشتعل في وجهها فجأة، فوقف على مهل وتهيأ للمغادرة.

أشارت للجارية بمرافقته، وغادرت الصالة.

مشى أمام الجارية، وخرج من الباب، واندفع سريعًا في الممر الذي يخترق الحديقة. وفي الخارج، كان نسيم البر القادم من البحر رقيقًا وعليلاً وحنونًا، لكن ذلك لم ينعشه. كان يشعر في أعماقه بهزيمة.. هزيمة ما.

***

كبرت الهزيمة في داخله. وأيقن أنّ جركس باشا له عندها شأن عظيم. فمن هو جركس هذا؟ ويا لمكانته في قلبها!

كيف تحولت من نسمة إلى زوبعة، ومن سيدة مختلفة تسكنها ثقافة مختلفة، إلى غجرية تتصرف برعونة؟

راجع نفسه. استعاد كل اللحظات وكل الكلام الذي قيل حين جالسها. أين أخطأ وأين أصاب؟

لقد حاول أن يرفض عرضها بنعومة، فهل جانبه الصواب؟

هل هو قليل الخبرة لا يتقن مخاطبة سيدات القصور؟

هو أبدى رغبته في رسمها، فلم غضبت هذا الغضب الذي حولها بلحظة من غزالة إلى لبؤة؟

وهل لجركس باشا كل هذه الحظوة عندها لتعتبر رفض رسمه إهانة لها، ويتعيّن ألا يرد لها طلب؟

أيقن أنه لكي يعرفها أكثر، يتعيّن عليه أن يعرف شيئًا عن جركس باشا.

حاول أن يسأل عنه أولئك القادمين من إزمير وكريت وردوس، لكن المعلومات عنه كانت شحيحة.

حاول أن ينسى الإهانة التي لحقت به، لكنه لم يفلح. وبالرغم من أنّه حاول أن يبدو طبيعيًّا أمام أمّه هنانة ووالده أحمد آغا، إلا أنهما لاحظا قلقه من شروده وعزوفه عن الرسم وكتابة الخط.

في النهار، يقضي الوقت مع الناس لينسى؛ يخالط الصيادين والباعة الجائلين على الشاطئ، أو يذهب للأسواق ويعرّج على واحد من بيوت القهوة، حيث يجتمع هناك المغنّون والعاطلون عن العمل، فيستقبله (الأسطى) بترحاب، ويقدم له القهوة المطبوخة، ويشير لعازف الربابة أن يرحب به، كما هي العادة عندما يدخل بيت قهوته واحد من علية القوم.

في الليل، يهاجمه الأرق والقلق والتفكير المضني. يفكر وتراوده الهواجس: هل يكرهها أم أنّه يقرع السن ندمًا لأنه ارتكب حماقة بتعاليه وتسرعه. يفكر بها، بتلك المرأة المفعمة بالأنوثة. يستحضر ملامحها؛ وجهها الذي له نعومة أوراق الورد، عينيها السوداوين مثل عيني غزالة لا يفزعها صياد ولا تخيفها قسورة. يا لنصيفها البرتقالي الذي لا يحجب غوايتها ولا يخفي نارها! أهو أرق إهانة هذا الذي يعذّبه أم أرق عشق؟

لماذا تصرف معها برعونة كما لو أنها جارية؟

لقد خلقت العيطموس لتكون ملكة، هكذا حدّث نفسه.

تتكرر الأسئلة وتتداح دوائرها وتتسع، ولا ينام إلا بعد عذاب وسقم.

***

إلى البساتين الشمالية ذهب يتنزّه ويفرّج عن نفسه بالرسم. ركب جواد والده، وحمل على كتفه مخلاة فيها أوراقه وأقلامه وأدوات الرسم.

كان بحاجة لأن يرسم، بحاجة لأن يتنفس، بحاجة لأن يعبّر بالرسم عما يعجز عن التعبير عنه بالكلام.

هناك كان متنزهون، يا للصدفة! إنهم يحتفلون بموسم النبي أيّوب.

المتنزهون عائلات، وتجمعات شبابية قادمة من مدن وأرياف. وثمة مجموعة من الخادمات يصحبن سيداهن، ثم يتحينّ الفرصة للإفلات وإطلاق أقصى طاقات المرح.

أودع جواده في الخان القريب، ثمّ مشى مصطحبًا المخلاة بحثًا عن دغل من أشجار البرتقال.

دخل المكان ذاته الذي التقى فيه بتلك الجارية التي صعقها بناره وترك ندوبًا على نحرها.

جلس على بساط العشب الذي تطرّزه زهور بريّة حمراء وبنفسجية وصفراء.

فتح المخلاة، وأخرج الأوراق وأدوات الرسم، ووضعها جانبًا.

كان بحاجة إلى قليل من التأمل.

عاد وأخرج من المخلاة تفاحة؛ فقد حرص على أن يحمل معه شيئًا من الفاكهة. ظل يتأمل وهو يقضم التفاحة.

بعد حين، صار مهيأً للرسم. قضم من التفاحة قضمة أخيرة، وألقى بقاياها.

مهّد الأرض وجعلها مستوية على قدر طبق الورق العاجي السميك، وأخرج أقلام الفحم: الأسود منها والرمادي، القاسي منها واللّين، وأخرج أيضًا الممحاة اللينة كالعجين، ومنديلاً صغيرًا من الحرير ليمسح به فتات الفحم الذي يسّاقط على صفحته العاجيّة، وكذلك السائل الصمغي المثبّت للرسوم.

فرد طبق الورق على سعته وثبّته، ثم تمدد على الأرض وأخذ ينظر إلى الورق ويفكّر. كان بحاجة إلى فحص زوايا الورقة وامتدادها ليقرر من أين يبدأ.

كان يستند إلى كوعه الأيسر. أمسك كتلة الفحم بإبهامه وسبابته، وبدأ يرسم الإطار العام للوجه، والعينين، والحاجبين، والخدين، والذقن، والشعر الذي يغطيه نصيف شفّاف.

ثم شرع في الرسم بعمق وتأمّل، يرسم ويمحو، يرسم ويظلـــل، يرسم بالأسود، ثم يستعمل الرمادي، رسم المرأة، رسم الأميرة، رسمها تستند إلى الصخرة، صخرة الأميرة المحاذية للشاطئ. ظل يرسم حتى أدركه التعب.

أنجز في ساعات ما يحتاج إلى أيام. أفرغ شحنة كانت كامنة في أعماقه مثل النار الكامنة في قلب صخرة.

استلقى على ظهره. كانت أشعة الشمس تتســـلل مـــن بـــين أغصان شجر البرتقال وتغمر وجهه.

انتبه إلى أصوات تقترب، أصوات نســـائية يخالطهـــا ضـــحك وتعابير مرح.

ومن بين الأشجار، أقبلت الخادمات يضحكن ويمرحن ويثـــرن الصخب. من المؤكد أهن يخترن دائمًا هذه البقعة من المتره الكـــبير للمواعدة أو البحث عن نزوة. كنّ خمسًا بثياب زاهية.

عندما رأينه، غطّين شعورهن، وأقبلن نحوه بلا وجـــل. ولِـــمَ الوجل وهن اللواتي يعرفنه منذ أن كان فتى يقفز من أعالي الأســـوار؟ بل ولِمَ الوجل وكل واحدة منهن تتمنى لو ترك آثار شفتيه وشمًا على صدرها أو خدّها مثلما فعل على نحر واحدة منهنّ؟

أحطنه وسط دهشته، قمانفن وضحكن وتغامزن وهن ينظرن إلى الصورة التي رسمها؛ فقد عـرفن أنّ صـاحبة ذلـك الوجـه هـي العيطموس، السيدة ذات العزّة.

عند ذلك، سارع إلى قلب الصورة. وجمع أدواتـه وأقلامـه وأعادها إلى المخلاة.

***

الفصل الرابع

في مرسمه، وضع الرسمة جانبًا. لم يتأملها. ألقاها كما لـــو أنّــه يتمنى أن ينساها ولو إلى حين.

عندما تهيأ للرسم، خطر له أن يرسم أميرة يافــا، الأســـطورة أندروميدا التي تعود للعهد الإغريقي، والتي سميت الصخرة التي تقابل الشاطئ باسمها.

قليل من الأهالي يعرف حكايتها. لكن الجالية اليونانية تقدّسها وتقيم لها عيدًا. يجتمع أفرادها –رجالاً ونساءً، أطفالاً وفتيانًا– عنـــد الشاطئ في فصل الربيع ويحتفلون. يحملون معهـــم باقــات الـــورد وزجاجات النبيذ ويمرحون ويرقصون. وفي نهاية الحفـــل، يكســـرون أواني الخزف، ثم يصمتون ويتطلعون إلى السماء. بعضهم يرسم إشارة الصليب وينصرف. وبعضهم الآخر تظل عيونهم معلقة في السماء إلى حيث تسكن الأميرة الأسطورة في مجرّة تجاور مجرة درب التبّانة تعرف بمجرّة المرأة المسلسلة.

عندما رسم وجه أندروميدا، بحث في خياله عن ملامح امـــرأة يونانية، لكنه، من حيث يشعر أو لا يشعر، رسمت يـــده امـــرأة، أو رسمها قلبه الأرعن. رسم العيطموس بإطلالتـــها المبهجـــة، بكامـــل أنوثتها، برأسها المرفوع وأنفها الأشم.

وجد نفسه يرسمها بجانب الصخرة. لم يقيّد يديها بالسلاسل كما تقول الأسطورة، بل زيّن ذراعيها بالأساور والحلي.

***

استحم وتناول طعامًا خفيفًا، ولبس منامته وذهب إلى سريره.

أفاق من نومه باكرًا، اغتسل وتناول فطورًا خفيفًا، ولبس ملابس العمل، ولفّ ورقة الرسم العاجية وأدخلها برفق في المخلاة الواسعة، ووضع حامل الرسم تحت إبطه، وخرج ميمّمًا شطر الشاطئ.

مشى باتجاه المنحدر. هرول أو تدحرج فوق الرمال الناعمة الذهبية. غذ السير عندما أصبح أمام الأمواج التي تكر وتفر بهدوء حينًا، وبصخب أحيانًا أخرى.

كان الوقت باكرًا، والصبح بدأ يتنفس. ويبدو الشاطئ خاليًا، وثمة سفينة تجارية في العمق. ومراكب الصيادين تبدو من بعيد كرؤوس الدبابيس. ومحلات اليونانيين الذين يبيعون البسطرمة والسجق والخمور ما زالت مغلقة.

عند صخرة الأميرة، حط رحاله. نصب الحامل أمامها وثبّت عليه الورقة العاجية، وتراجع خطوات إلى الخلف واستغرق في تأمّل وجه أميرته، وجه العيطموس. شعر إذ ذاك بعذوبة الندى.

ها هي العيطموس، ومن خلفها الصخرة الحقيقية. ها هي تتطلع إليه بعينين لا يسكنهما خوف ولا فزع. سبق أن شاهد رسمًا للأميرة أندروميدا في كنيسة بيزنطية رسمها الرسام مقيدة بالسلاسل بعد أن قدّمها والدها الملك كوبيوس قربانًا للتنين الذي هدّد بإغراق يافا في البحر.

كان البيزنطي قد رسمها مقيدة بالسلاسل، والرعب يملأ وجهها بتجاعيده، ويشوّه جمالها المذهل.

لماذا أعاد برسمته الألق والنور إلى وجهها؟ لماذا أقصى عنها العتمة، وأدخل إليها حزمة شمس؟

كان قد صمّم، وهو يتمدد على فراشه ويستجدي النعاس، أن يستكمل اللوحة، ويزيدها إضاءة. قرر أن يلونها بالألوان الزيتية، يرسمها لنفسه ولا يعرضها أمام أحد، يرسم أشواقًا من حرير، ورغبات شديدة الرعونة.

اقترب من اللوحة. أخرج من المخلاة علب الألوان والفرشاة.

ثبّتها على الحامل ثمّ انهمك في العمل. أضاء الوجه بلون النبيذ الفاتح، والعينين بلون عسل النحل، والشفتين بلون الياقوت، والنصيف بلون حجر الكهرمان. ولوّن أساورها بألوان الذهب والفيروز واللازورد.

وفيما كان يبحث عن لون يناسب الصخرة، شعر بحركة خفيفة خلفه، مثل حفيف شال حرير يلامس ظاهر الرمال.

التفت خلفه. فوجئ بخادمة تلف جسدها النحيل بعباءة سوداء طويلة، وتغطي وجهها بخمار أسود.

بادرته قائلة: أتعبتني.

وأردفت: ذهبت أبحث عنك في البازار ولم أجدك.

سألها بارتباك: من أنت؟

كانت تنظر إلى اللوحة. وكانت نظراتها تائهة.

لم تجب. كانت مأخوذة، ربما بالألوان، وربما بالذراع المليئة بأساور بلون الأحجار الكريمة، وربما بالوجه الذي ازداد ألقًا وجمالاً.

– من أنت، وما الذي جاء بك في هذا الوقت؟

ابتسمت، وقالت، بما يشبه رفيف جناحي حمامة زاجلة: هات لوحتك واتبعني.

فوجئ، ارتبك، ترنّح تفكيره، أُرتِج عليه.

أدركت الخادمة حيرته، فغيّرت نبرتها وأوصلت الرسالة الشفوية بنبرة جافّة كأنها تطلق الكلام من براثنها: السيدة النبيلة صاحبة العزّة تنتظرك.

نزع اللوحة عن الحامل ولفّها، وحمل المخلاة. لم استجاب بهذه السرعة؟ أكان صلحها أمنية؟

***

في طريقه إلى قصرها بصحبة الخادمة، كانت التداعيات تضطرب في أعماقه، وأدرك أنّ جواري أو خادمات نزهة البساتين أذعن سرّه، وأن السيدة عرفت أنّه رسمها، وكان يحاول أن يخمّن هل استحسنت ذلك أم استهجنته.

كان يرجّح أن ذلك أغضبها، وما كان لها أن تطلبه في هذا الوقت المبكّر لولا أنّ النار تشتعل في صدرها. أكانت السيدة مادة للنمائم على ألسنة جواري قصر الوالي وأميراته؟

خطر له أن يحتك بالخادمة ويحادثها، فلعلها تخبره شيئًا.

سألها: هل السيدة مستيقظة في هذا الوقت المبكّر؟

أجابت بصوت خفيض: السيدة مصابة بالأرق هذه الأيام.

وأضافت: كن حذرًا، فعندما تغضب السيدة، فإنّ غضبها صعب.

***

رافقته الجارية السوداء إلى صالة الاستقبال وأشارت له بالجلوس.

جلس ووضع المخلاة جانبًا. بسط اللوحة وقلبها، ثمّ وضعها على المنضدة ذات المفرش الموشّى بخيوط الذهب.

انتظر طويلاً قبل أن تدخل العيطموس بوجه عبوس.

دخلت متكدرة، بعيون مرشوشة بنعاس صعب. دخلت دون أن تنظر إليه. جلست دون أن تطرح السلام. جلست وأشاحت بوجهها جانبًا.

ظلل المكان صمت ثقيل، كان خلالها يقلّب أمره، ويبحث عن مدخل للكلام.

واتته الجرأة، فبدأ الكلام وهو يرسم على شفتيه ابتسامة ما. قال ما بين مساحة الجد والهزل: أنبيٌّ وحقود؟

التفتت إليه، وبدا أنّه نجح في فتح باب الحديث. وقرر أن يقدّم نفسه كشخص دمث يمتلك قامة عالية، وكفنّان يشار إليه بالبنان.

تفحّصته، كأنها تراه لأول مرة. كان قلقه قد اختفى، وشعر أنها تقلّب أمرها.

امتدت يده وقلب اللوحة.

ترددت نظراتها قبل أن تلقي نظرة على اللوحة. ألقت نظرة خاطفة، ثم أشاحت بوجهها، وتناولت من على منضدة أخرى مروحة وفردتها بحركة عصبية وحركتها أمام وجهها طلبًا لهواء بارد.

راقبها وقد ذهب القلق وغمرت قلبه طمأنينة وبرد وسلام، وراقب مروحتها ذات المقبض العاجي وريش النعام، وتلذذ بنعومة بشرتها، حتى إنّه ودّ لو يقبل خدّها.

التفتت إليه بعد طول صمت. كانت ممتلئة بجمر الكلام، وقالت موجهة عينيها إلى عينيه: اصغ إليّ.

وواصلت بجرأة نَمِرة: أنا العيطموس. هل تعرف من هي العيطموس؟

وصمتت قليلاً. وكان مأخوذًا.

أكملت بالجرأة ذاتها: قالوا لي إنك رسمتني. وإنك استبطنت أسطورة أندروميدا. وهذا لم يغضبني، لكنّه وجد قبولاً مني. وطوال الليلة لم أنم، هل تدري لماذا؟ لأنّ مشاعرك وصلتني.

وعادت لتنظر الى اللوحة، وتتمتم: كيف حفظت ملامح وجهي؟ وكيف رسمتني بنجاح وقد التقيتني لبرهة قصيرة؟

وصمتت. ولعلّها تنبهت إلى أنها تندفع بالكلام اندفاعًا، فصمتت، ثم أكملت بهدوء واعتداد: تعرضت لمواقف كثيرة مشابهة، لكن عليك أن تعلم أنك، رغم أناقتك وجمالك، لم يخطر ولن يخطر ببالي أن أذهب معك بعيدًا. لماذا؟ لأنني أعشق رجلاً آخر، ولا أعشق رجلين بوقت واحد.

كان مأخوذًا، وكانت مذهلة. لم يقل شيئًا، وتركها تواصل أخذ زمام المبادرة.

لكنّها توقفت قليلاً عن الكلام وأغلقت المروحة، ونحّتها جانبًا، وعادت تدقق في اللوحة، ثمّ أضافت: لمت نفسي مرتين: مرة حين

غضبت منك وتصرفت برعونة يوم رفضت طلبي، ومرة ثانية اليوم، حين طلبت حضورك بهذه الطريقة.

تهيّأ ليقول شيئًا، لكنها أشارت له بأن يصمت، فصمت.

بعد أن أفرغت ما في جعبتها، ونظرت مليًّا إلى وجهها في اللوحة وما فعلت ألوان النبيذ والعسل والكهرمان وسائر ألوان الأحجار الكريمة من سحر، بدأت نظراتها ترقّ، ووجهها يضيء.

قالت، بعد أن اكتمل هدوؤها وفتحت مروحتها لتجلب الهواء البارد: الآن وقد أيقنت أنك استبطنت صورة أندروميدا ورسمتني بهذه الروعة، أعرض عليك مرة أخرى ما عرضته عليك أمس الأول.

ظلّ صامتًا، تفحّصت ملامحه، واستدركت قائلة: لوحة حائط كبيرة، ترسمني كأندروميدا، وترسم جركس باشا في اللوحة كرمز للبطل (بيرسيوس) الذي نزل من السماء على حصانه المجنّح وأنقذها من الموت.

وابتسمت ابتسامة فتلقفها بوجدانه، كأنما وردة تفتّحت في اتساع قلبه، وبعد الابتسامة قالت: أرجوك لا ترد طلبي.

لم يخطر بباله أن يرفض، لكنه لم يتسرّع بالموافقة.

– أدفع لك أضعاف ما تطلبه.

كان يحدّث نفسه: فلتعشق من تشاء، يكفيني أن أراها طوال فترة الرسم. على الأقل، منها الحسن، ومن عيني النظر.

قالت له: هل الصمت علامة الرضى؟

ابتسم، فانفرجت أساريرها، وعادت نسمة، وغزالة.

تناول اللوحة وأخذ يلفّها وهو يتهيأ للمغادرة، فأوقفته وانتزعت اللوحة من يده، وقالت: هذه اللوحة لي. هذه اللوحة تبقى معي.

أجاب: لم أنهها، ما زالت تحتاج إلى شغل.

قالت: أكملها وأعدها لي، وأدفع لك ثمنها.

سألها مازحًا: كم تدفعين؟

– أدفع ما تطلبه.

صمت.

– كم تريد؟

صمت ولم يجرؤ على الكلام. لو كان شجاعًا في تلك اللحظة، لقال لها وهو يغرز عينيه بعينيها: قُبْلة، فقط قُبْلة!

***

الفصل الخامس

سماء صافية، ونهار نظيف، ويافا مكللة بألق، والبحر يزداد زرقة.

لقد بدأ فصل الربيع بطقس معتدل ودافئ. قلّت الناس في الشوارع والأسواق، وكثرت على طول الشاطئ وفي محيط المنارة، بينما رائحة الشواء ودخانه تنطلق من البيوت التي تتدرج نزولاً على التلة تحت قصر الوالي، وتنبئ عن سعادة العائلات بهذا اليوم البهيج.

انشغل يوسف خلال الأسبوع الماضي في تجميع الحصى والقواقع والأصداف من على الشاطئ، واختار قطعًا مكعّبة من الزجاج الملوّن والزجاج المعشّق. وقطعًا من البلّور النقي من مصنع زجاج في عكّا. وزار مصنع القرميد في سهل البطوف واختار ما شاء له أن يختار من القطع الصغيرة المشويّة في أفران ذات درجات حرارة عالية. ومن حيفا أحضر الملاقط والمكابس وكسّارات تحوّل كل شيء إلى مكعبات متساوية الحجم. ووضع ذلك كله في صندوق فائق الزخرفة. لقد قرّر أن يحوّل اللوحة إلى جدارية من الفسيفساء.

اليوم، تحتفل يافا وأهلها، وتحتفل هنانة وأحمد آغا بعيد الربيع، أو الذي يسميه بعض المهاجرين من بلاد فارس عيد النيروز. يحتفل أبواه في فضاء الحديقة التي تحيطها أشجار مثمرة، وتنمو فوق عشبها نباتات برية: أقحوان، ونرجس، وشقائق النعمان. حتى إنّ رقعة الحشيش المشذّب التي تمتد حتى آخر السور، تبدو كما لو أنها سجّادة من لؤلؤ وأحجار كريمة.

* * *

في وقت مبكّر، فرشت هنانة بساطًا فوق العشب، وفوق البساط، مدّت الأرائك والوسائد، فالضيوف والمهنئون من المعارف والجيران يتزاورون في مثل هذا اليوم، لذا، وضعت هنانة على صواني الفضة اللامعة ما لذ وطاب من الحلوى: لقمة القاضي، وزنود الست، والمعمول بالفستق الحلبي، والكعك بالتمر، والمطبّق، والمشبّك، والزلابية.

أما هو، فقد كذب كذبة بيضاء، وأبلغ أبويه منذ ليلة أمس أنه سيسافر إلى قرية الشيخ مونّس لشؤون تتعلق بعمله.

اغتسل في الصباح الباكر، وحلق ذقنه، وتعطّر، وهو يفكّر برحلة البراري برفقة السيّدة وحاشيتها.

دعته منذ أمس الأول إلى مرافقتها بنزهة في التلال، كما تفعل في مثل هذا اليوم من كل عام. دعته وألحّت في دعوته، وما كان لها أن تلحّ؛ فهذه الفرصة أتته من حيث لا يحتسب.

***

نهر العوجا أو جريشة، فركة كعب من يافا شمال المنشية والنزهة، تتدفق المياه العذبة من قانا ورأس العين والمصرارة من جبال نابلس والقدس، وتندفع في الأودية العميقة وتتعرّج ثم تلتقي وتكوّن مجرىً واحدًا، يتجاوز الصخور ويصنع شلالات صغيرة ويغسل الحجارة الكبيرة في مجراه، ويترك الطحالب تنمو على بعض ضفافه، ويسير باندفاع طاويًا المسافات، ثمّ عندما يقترب من بحر يافا، يسير

الهوينا، وتصفو مياهه. وعلى ضفتيه، تنمو أدغال من أشجار الحمضيات والزيتون والكرمة والتين، وسهول مزروعة بالقمح والشعير. وفوق سطحه الرقراق، تحوم طيور القطا واللقلق والكركزان والبجع الأبيض والصقر الحوّام. وعلى سطحه الرقراق، تجري قوارب الصيادين والمتنزهين، وتحوم حولها طيور الإوز، تلتقط ما يلقيه لها الأطفال من فتات.

بدأت الرحلة بجولة نهرية بقارب شراعي.

لم يكن غيره في الرحلة سوى السيدة وجاريتها السوداء، وصاحب الزورق الذي يدير الدفّة.

كانت السيدة تلبس ثوبًا يافاويًّا مطرزًا برسومات النجوم وعرق الريحان وساعة الحياة، وتنتعل حذاء خفيفًا من الجلد الطري. وكانت تغطي شعرها بغطاء من الحرير بلون البحر، وتبدو حيويّة، ووجهها مضيء، كأنما الهواء المشبع برائحة البرتقال يرسل بين الفينة والأخرى نسمة طريّة إلى محيّاها. وكانت تعبّر عن ابتهاجها بالغناء، غناء إزمير أو الأستانة، غناء فيه عشق وتغاريد بلابل.

كان يسند ظهره إلى حافة القارب، ويمسك بيده أوراق رسم مقوّاة، ويخط بقلم الفحم خطوطًا. يداري ارتباكه، ويتظاهر بدور الرسام. بينما هي تنطلق في الغناء والمرح بلا حرج، دون أن تعبأ بوجود جاريتها السوداء، أو الرجل الذي يدير دفة القارب؛ فالجارية، كما يبدو، كاتمة أسرارها، بينما صاحب القارب اعتاد على مرح ركابه وصخبهم، فلا وقار اصطناعيًّا في مياه هذا النهر وبطحائه.

كانت تغني وتنظر إليه. وكان يرفع رأسه عن الورق، ويرسل إليها بعينيه نظرات الاستحسان والرضى.

بعد أن اكتملت النزهة النهرية، عادوا إلى ضفاف النهر، حيث تنتظر العربة التي أقلتهم، والحوذي العجوز الذي يبقى في حالة الاستعداد.

وكان ينتظرهم أيضًا بعض الخدم المكلفين بالحراسة أو إعداد المائدة.

كان البساط قد فرش على حافة النهر، بعيدًا عن العربة والخدم، وفوق البساط، أريكة وبعض المساند ومظلة زاهية، كي تحجب الشمس الساطعة، أو تمنح شيئًا من الخصوصية.

جلست السيدة، وجلس يوسف. وابتعدت الجارية السوداء التي تبقى صامتة، ابتعدت قليلاً، وظلت واقفة متأهبة تنتظر إشارة من السيدة لو احتاجت منها خدمة.

كان الوقت لا يزال مبكرًا على موعد الغداء. لذا، اتكأت السيدة على المسند، وألقت نظرة على صفحة النهر. ولفتت نظرها إوزّة تعوم بتؤدة دون أن تعبأ بالقوارب التي تجوب النهر جيئة وذهابًا.

عبّرت عن سعادتها بالقول: ما أجمل الطبيعة!

وأضافت: إنها طبيعة هذه الأرض المقدسة.

ثمّ نظرت إلى أوراقه، وسألته: هل رسمتني في القارب؟

أجاب بابتسامة: رسمت همسات صوتك، وموسيقى روحك.

ضحكت وقالت: أحسنت أيها الخجول.

وأضافت: يتعيّن أن يتحلى الرسام بجنون فني.

ثمّ أكملت: أردت أن أتعرّف عليك عن قرب، وأن تتعرف عليّ. أنا صريحة وواضحة لا أضع على وجهي قناعًا، أحببت أن تعرفني كما أنا، لترسم روحي فعلاً.

انتبه إلى جرأتها، وانتبه أيضًا إلى أنها تتجاهل ذكر جركس باشا في حديثها.

أجابها: روحك جميلة، روحك مطعّمة بحضارات المتوسط.

ضحكت ضحكة مجلجلة وقالت: أيها الخجول، كم أنت خبيث وجميل!

شعر بأنها تفتح له أبوابها ونوافذها، فقال وهو يتهيأ للوقوف: ما رأيك في أن نتمشى قليلاً ونلقي نظرة على زهور التلال؟

هزت رأسها بالإيجاب. جمعت نفسها ووقفت. وخطر له أن يمسك يدها ويساعدها على الوقوف، إلا أنه لم يفعل.

وقفت، ومشت إلى جانبه. وكانت تتثنى وهي تمشي برشاقة. كانت ممتلئة بطاقة وحيوية. وكان هو كذلك.

حاولت الجارية السوداء أن تمشي خلفهما، إلا أنّ السيدة أشارت لها بالبقاء حيث هي.

أطلّ السهل من وراء دغل الأشجار، سهل تكسوه الخضرة والعشب وزهور تطرّز المشهد كله، وصخور وأحجار كبيرة نحتتها الرياح وشذّبتها، فامتلأ السهل بمزيد من السحر.

توقفت كأنما تحاول أن تستوعب كل هذا الجمال.

توقف إلى جانبها، وخطر له أن يلف ذراعه حول كتفها، إلا أنه لم يجرؤ.

قالت: يا لروعة زهور يافا، الأحمر والأصفر، الناري والنبيذي والليلكي، القاني والفاقع! إنها زهور البحر المتوسط. تذكرني بزهور تلال إزمير.

تقدّم ومشى نحو حديقة الرب، نحو عمق هذه الحياة البرية، ولحقت به. كان دغل من زهور بيضاء منقّطة في الوسط بنقطة صفراء. انحنى وقطف منها زهرة، وقال: إنها زهرة النرجس البرّي.

تناولتها من يده ونظرت إليها بإعجاب وفرح. انحنى مرة ثانية ليقطف باقة منها، إلا أنها استوقفته: لا تقطفها. دعها تزهو بنفسها في موطنها.

ثمّ أشارت بيدها: انظر هناك، كم هي جميلة تلك الزهور الحمراء فاقعة اللون!

مشى نحو الزهرة التي تزهو بأوراقها الحمراء، التي تتوسطها نقطة سوداء وقال: إنها زهور شقائق النعمان.

انحنت وتفحّصت الزهرة وشمّت رائحتها مع هبوب نسيم شديد الرقّة. رفعت رأسها وملأت رئتيها بالهواء.

مشت ومشى إلى جانبها. وكلما تقدما، ينفتح المشهد على مزيد من بساتين الألوان: هذا أقحوان، وهذا الزعمطوط أو عصاة الراعي، وهذه خزامى، وتلك سوسنة، ومن بين الأشواك، تتفتح زهرة الخرفيش بلون زهري ساحر، وإلى جانبها زهرة الترمس تشكل زهورها تدرّجًا، وتبدو مثل منارة البحر. وواصلا السير. وراء الحجارة زهرة زعفران، وخلف نبات الخرفيش زنبقة بريّة، وزهور الحمّيض والخبيزة والمصيص والمرّار والسنّاريّة وأوراق السرخس.

زهور وألوان وشموخ، فلسيقان بعض الأزهار عنق زرافة، وعرف ديك، وعين غزالة، تشرئب تيجانها وميسمها وأوراقها، كأنها تطل من شرفة. وتزهو بجمالها مثل صبيّة تستغرق في أحلامها. وتضرب جذورها الطريّة في التربة. وتحيط بها الأعشاب النديّة.

بدت السيدة مستغرقة بالفرح بهذا الجمال من أشكال وألوان وروائح، ومن عطرٍ ما حبسته قارورة يطلق سحره حتى الذهول في فضاء يتسع حتى آخر المدى.

وجه السيدة تورّد، وارتسمت على محيّاها المسرّة. وعبرّت له عن ابتهاجها بتعبيرات وحركات ورشاقة وقفزات فرح، وكلام مثل زقزقة العصافير.

شعر أنها طفلة قريبة من القلب، وأنها، رغم هالة المكانة الاجتماعية، تتحوّل إلى راعية وابنة بلد، وأنها تتماهى مع الطبيعة وتصبح قرنفلة.

كاد في لحظات فرحها يعانقها. أحسّ أن عصافير رعناء ترفرف في شغاف القلب. لكنه شكم جنونه، ومنع نفسه من التهور.

كانت فرحة فقط، وأناملها تمسك بزهرة النرجس. لم ترسل له أية إشارة تشجّعه على أن يلتصق بها، وأن يلف ذراعه حول خصرها، وأن يهمس في أذنها كلمة.

كانت مثل طفلة تفرح ببراءة، وتنطنط بين الأشواك ببساطة وعفوية وسذاجة. لم يكن في عينيها سهم، ولا كانت في قلبها غواية. لكن كانت أشياء كثيرة لم تقلها بدت جليًا في بريق عينيها تنمّ عن أشواق عذبة، أشواق كقصيدة تغفو على موسيقاها الداخلية.

***

عادا بإطلالة فرح وزهو وتيه، وكان الخدم قد رتّبوا المكان، ووضعوا صواني الفاكهة والحلوى والعصير.

جلست هي أولاً، واتكأت على الأريكة، وزهرة النرجس بين أناملها. جاء الخادم ترافقه الجارية السوداء، فحمل إبريق الشراب وصبّ لها كأسًا.

جلس هو قريبًا على البساط وجذب المسند واتكأ، وتناول بدوره كأسًا من رحيق الماورد.

كانت أعشاب نضرة تحيط بهذه الخلوة. وكانت تتكئ وتمد جسدها على راحته مثل حورية بحر. وكان بعض ساقيها مكشوفًا، ويظهر فوق القدم خلخال من فضة. ها هي تنشر أمامه سحرها، أهي حركة عفوية أم مقصودة؟

كانت رائحة شواء تأتي من بعيد، من وراء العربة. وكان الخدم ينهمكون في إعداد وجبة الغداء.

جالت عيناها في الضفة الأخرى للنهر. هناك عائلات، ودخان شواء، ولهو أطفال، وقارب يحمّل المتنزهين، وبهجة حياة. واستغرقت في لحظات تأمل.

خطر له أن يمسك الزهرة البيضاء ويزرعها في خصلات شعرها. خطر له أنّ اللحظة مناسبة لقليل من الجرأة.

فجأة، قطعت تأملها وقالت له: أتدري؟

وأخذت نفسًا عميقًا ثمّ أكملت: كنت أتساءل: ماذا لو كنت امرأة عادية بلا خدمٍ، مثل أولئك النساء العاديات اللواتي يستمتعن باللهو والفرح والعوم؟ ماذا لو واتتني الجرأة وأحضرت معي زجاجة

نبيذ؟ ماذا لو خلعت المنديل الذي يترك جزءًا من شعرها حرًا، وتركت الهواء يداعب وجهي ويتلاعب بشعري؟ ماذا لو خلعت حذائي وشمّرت ثيابي وجلست على حافة النهر ومددت ساقيّ إلى الماء وتركت التيار يدغدغ قدميّ بلا حرج؟ ماذا لو انتابني جنون الحياة وخلعت ثيابي وألقيت بنفسي في أحضان النهر وسبحت إلى الضفة الأخرى؟

كانت تتساءل وترتسم على وجهها ملامح امرأة أخرى، امرأة ترفل بثوب من حرير شفَاف وتركض فوق العشب حافية وشعرها يتطاير، تركض وتصعد فوق ضباب ورياح ومطر، امرأة مبللة بالندى.

لحظتها، امتدت يده وتناول زهرة النرجس البري من بين أناملها، ورفع يده المرتعشة ليزرعها في خصلة شعرها. لحظتها، رفعت يدها بسرعة واعترضت يده وأمسكت بالزهرة، وأعادها إلى أناملها وهي تنظر حولها. جفل، يا لقلبه الأرعن! يا للخيال الماكر!

حاولت أن تهدئ روعه، وأن تعيد له الهدوء، فغيّرت الحديث قائلة: متى تبدأ العمل؟

ورسمت ابتسامة رقيقة، وأضافت: متى سترسم روحي؟

ظلّ صامتًا، ورغب أن يدعها تتحدث، فواصلت الكلام: روحي تتوق دائمًا إلى الانتقال إلى ضفة أخرى. هل تعلم أنّ أهل

الهند من أتباع الديانة الهندوسية يؤمنون بأنّ الجسد يفنى والروح لا تفنى، فإذا مات إنسان، تنتقل روحه إلى جسد إنسان آخر.

تنهّدت وصمتت قليلاً ثم واصلت: إذا صحّ ذلك، فروحي متحدّرة من روح نساء الأندلس. نساء غرناطة أو طليطلة أو قرطبة، نساء جميلات وجريئات ويعشقن الحياة.

كانت في تلك اللحظة منتشية، تسكنها روح عاشقة، ويحلّق خيالها في العصور الزاهية، وتزداد أمامه تألقًا.

ثمّ نظرت إليه نظرة جذلى، نظرة طالت حتى أربكته. لكنّها أعطته انطباعًا بأنها تبسط له الحبل، فكان يتعيّن عليه أن يبقي الحبل موصولاً.

كان بودّه إذ ذاك، أن يبسط لها كفّيه ويتلقّف كفيها. كان بحاجة للتواصل مع روحها الجميلة. لم يكن بحاجة إلاّ للمسة يد منها، حتى ينبت له جناحان ويطير.

كانت الزهرة لا تزال بين أناملها. لذا، هرب من نظراتها إلى الأعشاب والطحالب المحاذية لمياه النهر المندفعة، ومنها إلى الضفة الأخرى التي أهاجت ذاكرتها وذكرياتها.

جاءت جاريتها السوداء المقرّبة. اقتربت ورمقته بنظرة ماكرة أدخلت على قلبه الحيرة. ثم انحنت وهمست في أذن السيدة. ثم اعتدلت وظلت واقفة.

عندها، سألته السيدة، وهي تستعيد شخصية أميرة ذلك القصر الذي يتخذ له مكانًا على أطراف الرابية المطلة على البحر: متى تبدأ العمل؟

استعاد بدوره شخصية الرسام المواظب على عمله: نبدأ من الغد. ولك مفاجأة: سأحول اللوحة إلى جدارية من الفسيفساء.

قال ذلك ونظر إلى وجهها ليرصد أثر المفاجأة على ملامحها. فوجئت. زقزق ورفرف فرح في عينيها. كادت تعبر عن سرورها بكلام. لكنها لم تقل، وإنما بدا لو أنّ هالة من بهجة ونور تكلل رأسها. اغتنم لحظة سرور، وقرر أن ينسحب؛ إذ شعر أنّ الجارية ربما تكون قد لفتت نظر سيدها إلى أنها تذهب بعيدًا في رفع الكلفة مع شاب أعزب ذاع صيته بين جواري الحاكم.

عندما ابتعدت الجارية، ذهب التكلّف، وعادت ترسم على شفتيها ابتسامة.

تجرّأ وسألها: هل سببت لك إزعاجًا؟

اتسعت الابتسامة وأجابته: لا تقلق.

وأردفت: المهم أنني أوصلت للجميع رسالة أنك من أهل البيت.

ثمّ إنها أمسكت زهرة النرجس ورفعتها برفق وزرعتها في شعرها.

– أهذا ما كنت تود أن تراه؟

هزّ رأسه هزّة خفيفة لا تنم عن فرح، وكان يقلّب أمره ويفكّر في الانصراف.

قال بكل ما بوسعه من رقة وتهذيب: يتعيّن عليّ الآن أن أغادر. بهانة وأحمد آغا يحتفلان وحدهما في عيد الربيع.

نظرت إليه مليًّا، وعرفت أن ما عكّر صفاء عينيه الجميلتين هو حركة الجارية التي وجهت لها لفت نظر.

قالت بهدوء: لا تقلق.

أجاب بصوت خفيض: سعدت بقضاء نصف نهار معك. وأعدك أن أبدأ بالعمل منذ الغد.

– ابق قليلاً وتناول معي الغداء.

– لحظة السرور ومضة. وقد عشتها.

***

الفصل السادس

مانحة ومانعة هي. مقبلة ومدبرة معًا. محافظة ومتحررة معًا. ذات عزّة وذات بساطة معًا. عينان يرفرف فيهما طائر عناق وطائر فراق.

ملامح مظللة بالقداسة ومظللة بالغواية. أي امرأة هذه التي يمكن أن تنقسم إلى امرأتين؟!

أي تجربة أنت مقبل عليها. ارسم ورقّش، واصنع لوحتك التي تنبع من أحاسيسك الحمقاء، ومن دقات قلبك الأهوج، ومن حلم طائش يراودك.

ها أنت في ليوان القصر تنتظر، تقف مثل عاطل عن العمل.

لا أحد سوى الجارية الحبشية.

ما عادت السيدة تطيل المكوث معك. ما عادت تبسط لك الحبل. ما عاد هناك فرح الشقائق والأقحوان والخزامى، وبهجة غناء وحركات ورشاقة وكلام مثل زقزقة عصافير. ما عادت ترتسم على محيّاها المسرّة. ما عادت تتماهى مع الطبيعة وتتحول إلى قرنفلة.

ما زلت تنتظرها للاتفاق على مواعيد الرسم.

الجارية الحبشية تراقبك كغراب يحط على شجرة ولا يبرحها. هيّأت نفسك لرسم اللوحة، وظللت تنتظر الفرصة. يتعيّن أن تكون أمامك لتكون اللوحة ناطقة.

يتعيّن أن تجلس على أريكة قبالتك وهي تتكئ وتتمدد بانسياب جسدها الذي يفصح عن تفاصيل مناخها وتضاريسها وطقسها الرائع. عليك أن تتابع ألقها بقلبك المضنى من قمة النصيف إلى استدارة الخلخال، ومن شحمة الأذن إلى باطن القدم.

تغمرك بالفاكهة والطعام والشراب. وتطلب منك الانتظار تحت سمع تلك الجارية التي تشبه العسس وبصرها.

مرت أيام وأنت تنتظر، تنتظر حتى أذان العصر في هذا الليوان، فتعود إليك وتعتذر. تعتذر وتسقيك من عينيها كأسًا من عسل غوايتها.

نظرتها تجعل الدماء تسري في عروقك حارّة وساخنة. تعود أدراجها ويتعلق بصرك بجسدها متأودة ومتثنيّة بغنج ودلال.

لكنها فجأة توقفت عن الظهور.

مضت أيّام وأنت وحدك في الليوان. الخدم رهن إشارتك يقدمون كل ما تريد، لكنك تعاف حلو الشراب ولذيذ الطعام؛ فغيابها يملأك بالمرارة.

***

كان قد رتّب في خياله خطوات العمل. رسم الصورة بعلو الخيال. اختار الألوان من الطبيعة وما عليها من ورود ونباتات وقشور الفاكهة. أصبح كل شيء على ما يرام.

جهّز في خياله كل شيء، بكثير من الجرأة وقليل من التهيّب.

ها هو غروب المساء الثالث يقترب، فاحمل أدواتك وغادر هذا المكان متسللاً على رؤوس أوجاعك.

لم يكن ثمّة ما يمكن أن يدفعك للعمل سوى بسمة من ثغرهـــا، وتلويحة من يدها، ورنّة من خلخالها، وهفهفة من ردائها، وتأود وتثنٍّ من قامتها.

غابت عنك. غاب عطر. وغابت هالة غواية. وغـــاب ســـواد كحل، وكرز شفة، وعقيق قرط، ولؤلؤ يحيط بجيدها النبيل.

فامض في طريقك، واخرج من هذا الليوان دون كأس عسل، وجمرة شوق. امض إلى ليلة أرق، وعطش ليل.

***

عادت بعد أربعة أيام من الانتظار.

عادت خفيفة رشيقة، فملأ وهجها الليوان.

عادت بثوب قرمزي مزخرف من حرير الدمقس: مليحة مثـــل تمايل غصن، مهفهفة الخصر، مصقولة الترائب. وضحكتها مجلجلة.

عادت بإطلالة مفعمة بنسيم الصبا.

عادت، واندفعت المشاعر كصدمة واعتصرت قلبه. مشـــاعر سرور ووحشة دخلت قلبه كصهيل خيول ورشقات مطر ولمعة برق.

أطلّت عليه في الليوان، فاصطدمت اللحظات بعضها ببعض. أطلت عليه فجأة، ومرت هزّة أو قشعريرة أو حرقة أو مرارة دمعة قبل أن يصدق ما تراه عيناه.

لحظات وقبضة من حديد اعتصرت روحه ووجدانه وقلبه الغريق.

كاد يفتح لها ذراعيه ويحتضنها. كاد يهمّ بها ويطبع على جيدها قبلة.

طرحت عليه تحية صباح، واستدارت وهي تلف شعرها بغطاء شفّاف، وأشارت له بيدها أن اتبعني.

دخل حرم القصر: ليوان وراء ليوان، قاعة كبيرة، زينة وتزويق، أصص وورود ونباتات تتسلق من وراء النوافذ، أقواس ورواق، منمنمات هندسية، غرف عديدة، مكتبة مفتوحة مزدانة بالكتب والمخطوطات، حمّامات وغرف للطبخ، خادمات بلباس موحّد، نماذج لأسلحة ودروع تزيّن الجدران.

مشت أمامه خطوة خطوة، كمشي قطاة إلى غدير.

عبرت أمام غرفة واسعة بابها مفتوح، ووشى سرير كبير وفخم بداخلها، تحيط به من كل الجوانب ناموسية من قماش الشيفون الشفّاف؛ بأن الغرفة هي مخدعها.

توقّفت وبدا أنّها تشاور نفسها. ثمّ استدارت وتوجهت إلى غرفة واسعة تجاور المكتبة، وأشارت له بالدخول.

كان متهيّبا، بل قلقًا، تبحث عيناه عن الجارية الحبشية.

دخل غرفة واسعة تحوي خزانة ملابس وشراشف وصناديق. وعلى جانب آخر، مقاعد جلوس.

– اجلس. قالت برقّة.

جلس وجلست على مقعد قبالته. كان ثوبها القرمزي يعطي لخديها لون التفّاح. وكان يحسّ بالانكماش وسط هذا البذخ، نظرًا لملابس العمل التي يرتديها.

قالت له: غبت عنك وسببت لك قلقًا. أليس كذلك؟

هزّ رأسه. قالت: ذهبت إلى عكا.

وأضافت: أحضرت معي القماش ومعجونًا من نادر الألوان وفرشاة من شعر السمّور.

ثمّ وقفت وعمدت إلى صندوق في الزاوية، وفتحته، وأخرجت كيسًا من قماش، وقالت: وأحضرت لك شيئًا.

وأخرجت من الكيس قفطانًا وقميصًا وسترة صديري وعمامة فاخرة.

– هي هديّة لك. وأرغب في أن أراك ترتديها وتبدو بها شيخ شباب.

كان لا يزال مأخوذًا ونظراته تائهة. فقال بكل دماثة: ما أحلاكِ!

لاحظت ارتباكه وقلقه، فحاولت أن تخرجه من إحساسه بالغربة؛ فلأول مرة يدخل هذا الحرملك دون أية مقدّمات.

بسطت كسيدة الحبل له، وبدأت تمازحه. ثمّ اقترحت عليه أن ينتقلا إلى المكتبة ليشربا القهوة.

وفي المكتبة التي تحوي خزائن أنيقة تضم كتبًا ومخطوطات، بدأت تتحدث عن محتوياقا من كتب التراث العربي، والكتب الفرنسية التي تصلها من سعادة قنصل الدولة العليّة وحرمه في باردو.

أحضرت خادمة بيضاء جميلة القهوة على صينية فضّة، ولم تظهر خلفها الجارية الحبشيّة.

شرب القهوة وشعر أن عينيها لم تبتعدا عن وجهه، وأنّ عليه أن يخرج عن صمته، فبعد أن أعاد فنجانه إلى المنضدة. قال: نبدأ العمل منذ صباح الغد.

أطلقت ابتسامة واسعة، وأجابت: أنتظرك. نم جيدًا الليلة، لكي ترسم روحي كما وعدت.

***

الفصل السابع

خرج من القصر منتشيًا. ترك أدواته وأوراقه وألوانه. ونسي الهدية، نسيها أو تناساها. ونسيت أو تناست أن تحمّله إيّاها. تركها مكانها عن غير عمد، كما لو أنّ عقله الباطن قرر أن يترك شيئًا من أثره قريبًا من خزائن ملابسها.

خرج خفيفًا نشطًا مثل طائر يفرد جناحيه ويطير لأول مرة.

مشى على قدميه ولم يكترِ واحدة من عربات النقل التي تجرّها البغال. رغب في أن يعود إلى البازار عبر الشوارع والأزقة وحركة الأسواق والحارات.

في طريقه، مرّ على الأسواق التي بناها أبو نبّوت. وكان الفلاحون من المناطق السهلية في الأرياف يعرضون على مداخلها الخضار والفاكهة والطيور. بينما الشوارع الضيّقة الجانبية تغصّ بالعتّالين والعربجيّة والحلاقين والقهوجيّة. منذ زمن لم يتجوّل في هذه الأماكن. منذ زمن لم يلتق بهذه الوجوه القريبة من قلبه، التي يأنس لها.

انتقل إلى الساحة المطلة على الجامع الكبير، فتغيّرت صورة المشهد؛ كانت هناك العربات الكبيرة المغلقة ذات نوافذ لها ستائر، المهيأة لنقل الركّاب إلى حيفا وعكا والقدس، التي تجرها أربعة من الخيول. وكانت هناك جمعيّة خيريّة وبعض البيوت تعلّق الأعلام والزينة لمناسبة اقتراب موسم النبي روبين، الذي تحتفل به المدينة

وضواحيها. وفي الطابية، كان المصلّون من النساء والرجال الذين يصطحبون أطفالهم يخرجون من كنيسة القلعة لطائفة الكاثوليك بملابسهم الزاهية. بينما فلاّحون يتجمّعون أمام المعصرة القريبة ينتظرون تسلم غلالهم من زيت الزيتون.

كانت الأشياء في المدينة تبدو له في تلك اللحظات أكثر جمالاً وروعة، وحركة الناس تبدو مؤنسة وحميمة؛ فالناس هنا يحبونه كابن بلد محبوب، ويبادرونه بالسلام، ويترددون على البازار ويرافقون السائحين ويدلون الغرباء على المكان، وأصبح له فيهم عزوة وأهل.

اقترب من جامع البحر القريب من حارة المدفع. ودلف إلى زقاق يفضي إلى البازار.

الخادم عصام قام بواجبه في تنظيف المكان، وتلميع زجاج النوافذ، وترتيب المعروضات من لوحات ورسوم. وأشعل الفحم تحت السماور، فأعدّ له القهوة وجلب له من حانوت الحلواني القريب حلاوة التمرية المحشوة بالبالوظة.

جلس يوسف في الليوان المطل على الساحة السماويّة في مدخل البازار الذي يحلو له أن يجلس به، حيث الأثاث التقليدي المجلوب من الشام. فتح الخزانة الصغيرة التي يحتفظ فيها بأشيائه الخاصّة، وأخرج رسمة الأندروميدا الملوّنة. نشرها أمامه. فأطل عليه وجه العيطموس بكامل حسنه.

دقّق في ملامحها بنظره نقديّة، فبدت له ما اعتبرها نوعًا من العيوب. لم تكن عيوبًا في الواقع، لكنّه لم يستسغ وقوفها إلى جانب الصخرة، لم يكن يرغب في تكبيل السيدة بالوقوف، رغب في تغيير المكان وتغيير هيئتها من وقوف إلى جلوس، ومن سكون إلى حركة، ومن توتّر إلى استرخاء.

ألقى نظرة عليها وأبقاها على المنضدة ليدقق بها مرة أخرى في وقت لاحق.

شرب قهوته، وتناول قطعة واحدة من الحلوى، ثمّ أخذ يتخيّل ما يمكن أن يعمله من أجل أن تكون لوحة السيدة متقنة.

***

فجأة، دخل الخادم عصام وقال بارتباك: سيدي، جاء الجندرمة.

كانوا يقفون وراء الباب. فقال يوسف: دعهم يدخلون.

دخل ضابط من الجندرمة، يرافقه عدد من جنود السواري.

وقف يوسف والشك يساوره؛ فقد اعتاد ضباط من الخيّالة ومن حراسات السراي زيارة البازار للفرجة أو شراء رسوم، لكنّ دخول هؤلاء بوجوه عابسة يدعو إلى الريبة.

أشار يوسف لهم بالجلوس. لكن الضابط قال: نريد أن نقوم بجولة في المكان.

مشى معهم. تفقّدوا الغرف، والمطبخ، والصالة التي تعرض على جدرانها لوحات ورسوم.

ظل الضابط يتفحّص اللوحات. توقف عند لوحة للسلطان محمد الفاتح، وأخرى للحوت وهو يلفظ النبي يونس على الشاطئ، وثالثة للسوق الشعبية. ظلّ يستعرض اللوحات إلى أن أنهى الآخرون تفتيشهم. وأثناء ذلك، لمح من وراء النافذة حشدًا من الناس يتجمع أمام باب البازار.

قال الضابط: نريد فحص رسومك المحفوظة في الصناديق.

أحس بالصدمة، فكّر قليلاً. امتلك الجرأة، فنظر إلى الضابط نظرة تحدٍّ.

– ماذا تريدون؟ ولماذا تفتّشون البازار؟ إذا كانت هناك وشاية، أخبرني من فضلك.

علت أصوات الناس في الخارج. هكذا يحدث في الحارة القديمة كلما جاء الجندرمة إليها، ولعلّ قبضاياها الذين يحبّون يوسف يتدخلون ويثيرون الشغب، فلا حارة تقوى على مواجهة الجندرمة مثل هذه الحارة.

رمقه الضابط بنظرة فاحصة، ولعلّه كان يتريث قبل أن يبدي غضبه، ثمّ أشار بيده نحو الليوان: دعنا ندخل إلى هذا الليوان حيث كنت تجلس، ونتحدث بعيدًا عن هذه الضوضاء.

دخل الضابط وتبعه جندي مرافق له. دخل وجلس. جلس يوسف قبالته، بينما ظل الجندي واقفًا.

خلع الضابط قبعته الأقرب إلى العمامة، وتفحّص الأثاث، فوقع بصره على رسمة الأندروميدا فأمسك بها وقرّبها إليه وتفحصها، ثمّ قال: هل ترسم مثل هذه الصور العارية؟

صدمه السؤال. وأيقن أنّه يتعرض لاستفزاز هدفه إثارة خوفه للسيطرة عليه.

قرر أن يتماسك، وأن يرد للضابط الإساءة بمثلها إذا اقتضى الأمر، فقال: لا أرسم صورًا عارية، هذه لوحة تمثّل أسطورة من أساطير هذه المدينة، لا عري فيها.

قال الضابط: نحن نحرص على الأمن وعلى حماية الأخلاق الحميدة.

قال ذلك وأعاد الرسمة إلى مكانها، وواصل الكلام: كيف لمن يرسم صورة السلطان الأعظم وحوت النبي يونس بهذه الحرفية والروعة، كيف له أن يرسم مثل هذا الوجه الذي يثير الفتنة والغرائز؟

أدرك يوسف أن هناك وشاية، وأنّه يتعرض لمكيدة، وأنّ عليه أن يواجه.

– اسمع يا سعادة الضابط؛ عليّ أن أقول لك إنّك تتحدث مع واحد من أبناء يافا، عن يافاوي معجون برملها ومغسول ببحرها

ومترعرع تحت شمسها. فتح عينيه على نورها. رضع قيمها وشرب سجاياها. ومن الواضح أنك قادم من ولايات بعيدة ولا تعرف ناسها وتقاليد عائلاتها. لذا، يتعيّن أن تعرف أنني لا أقبل ألفاظك النابية.

بدا الغضب على الضابط وانفعل واحمرّ وجهه، وضرب المنضدة بقبضته وقال بصوت عالٍ: عليك أن تسمع كلامي ولا تعترض. أنا أتكلّم وأنت تسمع فقط.

بدا له الضابط هشًّا وضعيفًا، فأصرّ بينه وبين نفسه على المواجهة، فأجاب: لا ترفع صوتك عليّ. أنت طرقت الباب، ومن حقي أن أسمعك الجواب.

على حين غرة، اقترب الجندي ورفع يده عاليًا ليوجّه صفعة، فابتعد يوسف عن مرمى يده، وهبّ واقفًا، وأمسك يد الجندي بيد، وأمسك بتلابيبه باليد الأخرى.

عند ذلك، تدخل الضابط، وأمر الجندي بالخروج.

لعلّ الضابط قلّب أمره، وخيّل إذ ذاك ليوسف أن الضابط يعيد حساباته. لعلّه خشي من الحشود التي تتجمّع، أو قد خيّل إليه أن هذا الشاب (النمرود) ينتمي لعائلة مقرّبة من السراي.

خرج الجندي، فرسم الضابط على شفتيه ابتسامة صفراء، وقال: نحن جئناك بزيارة وديّة.

– لكنّ رجالك لم يكونوا ودودين.

وقف الضابط وقال مداريًا ضعفه: ستزورك مرة أخرى على كل حال.

قال ذلك، ووقف. أدار ظهره ومشى متصنّعًا العجرفة. ثم خرج وخرج رجاله خلفه. وفي الخارج، كان ثلّة من جنود الخيّالة ينتظرون وتنتظر معهم خيولهم وسط جمع من الرجال والنساء والأطفال والقبضايات.

لم تكن مغادرة الضابط وخيّالته سهلة؛ فقد سدّ محبو يوسف الزقاق الذي يفضي إلى الساحة ودلقوا الماء والزيت على بلاطه، وحاول الخيّالة شق الطريق بقوّة عصيّهم ورماحهم، لكن سنابك الخيول ظلت تتزلق والخيّالة يترنحون، والضابط يتوتر ويرتبك، والخيول تجفل وتحمحم، وسط صفير الحشود وضجيجهم وجلبتهم. وجلب ذلك انتباه السكان الذين أطلوا من على الأسطح والشرفات.

تابع يوسف المشهد بانبهار.

ها هم الناس يجدون الفرصة للتعبير عن سخطهم على هؤلاء الذين يحصلون منهم الضرائب بالكرابيج والعصي. دافع شفقة وخلق كريم دفعاه للتدخل ومحاولة فتح الطريق. اندفع وشق دربه بينهم، وفتح ذراعيه طالبًا من الناس تمكين الجندرمة والخيّالة من الخروج. وبدأت الحشود تستجيب وتفتح الطريق، لكن دون أن تكف عن ترديد عبارات السخرية وتلطيش الكلام باللهجة البلدية، وتحريك الأيدي بأشد الإشارات بذاءة.

انصرف الجندرمة والخيّالة ترافقهم الخيبة، وانصرف الرجال والنساء، إلا أن بعض الشبان، وبعضهم يحمل عصيًّا غليظة مدببة الرأس ومزروعة بالمسامير، ظلّوا واقفين أمام البازار.

عرف يوسف أنهم يحرسون المكان تحسبًا لعودة قوة جديدة من الجندرمة، فوقف معهم، وتبادل معهم الحديث، وحاول تهدئتهم، وأدخلهم إلى البازار وقدّم لهم القهوة والعصير، وصار الجو مؤنسًا وحميمًا، حتى إن أحدهم رفع صوته بالغناء، وردد الآخرون وراءه.

راق الجو، فاقترح عليهم يوسف النزول إلى البحر وقضاء الوقت بالسباحة.

***

الفصل الثامن

نهار جديد، نهار نظيف عسعست فيه غيوم خفيفة فوق المدينة، وغلّفت الأفق بالضباب عندما تنفّس الفجر.

نهار جديد، وأجواء لطيفة، ونسمات تنشط من اتجاه البحر. وبعد صلاة الصبح، امتلأت الأزقة بالعمال والفلاحين وطالبي الرزق. وفتحت العائلات نوافذ بيوتها. وأفاق يوسف على صوت والده، وهو يفتح باب البيت ويردد أذكار الصباح: اللهم خالق الخلق وباسط الرزق فالق الإصباح، ربّ أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده، يا حي يا قيّوم.

هيأ نفسه سريعًا؛ اغتسل، وشذّب لحيته الخفيفة، ولبس، وتناول فطوره مع والديه، ثمّ عاد إلى غرفته.

تفقد إطار اللوحة وقماش الدمور المشدود إليه، فقد سهر ليلة أمس على إغلاق مسامه بمعجون (الجيسو)، حتى لا تتسرب الألوان الزيتية، وشدّه بقوة لكي تكون أبعاده متساوية.

ثمّ وضع في المخلاة الألوان الطبيعية التي جمعها من الورود والثمار المجففة وعجن مسحوقها بزيت الكتّان ووضعها في زجاجات وأحكم إغلاقها. كما وضع زجاجة تثبيت اللون بمزج الصمغ بالكحول. ووضع أيضًا الفرشاة التي كان قد صنعها بنفسه من شعر السنجاب، واللوازم الأخرى التي يحتاجها.

حمل المخلاة واللوحة بقماشها وخرج.

* * *

خرج وبهنانة تدعو له دعاءه المحب: الله يحميك، ويجعلك على لسان الناس سُكّرة، وبعيونهم عنبرة.

حمل مخلاته وإطار اللوحة وقصد.

ركب عربة الحنطور، ويمم شطر قصرها الصغير.

وصل والندى لم يجفّ بعد. وصل وعبَرَ الحديقة المثقلة الشجيرات بالورود التي تطلق شذاها، وألوانها، وأنوارها.

دخل الليوان وهو يحمل الإطار، وكانت باستقباله الجارية (أسرار).

أحسّ بالانقباض. لكن عندما أطّلت العيطموس بكامل بهائها، شعر كأنّ نسمة من نسيم الصباح هبّت فجأة على محيّاه، فوقف محبة وإجلالاً.

سلّمت عليه. وطلبت منه أن يدخل إلى صالة داخلية لم يسبق له أن دخلها أو انتبه إلى وجودها. مدخلها من باب جانبي في الليوان.

دخل، ودخلت وراءه الجارية أسرار.

صالة واسعة، مزيّنة ومزوّقة، وتحتوي على أثاث خفيف، وعلى أريكة وثيرة، ومرآة ذهبية تشغل نصف حائط.

وكان قبالة الأريكة ما وعدت بإحضاره: حامل اللوحة، ومقعد أنيق، ومنضدة تحتوي على حامل صغير لفرد الألوان ومزجها، وفرشاة، وريشة وأقلام فحم، وممحاة.

خرجت الجارية، وبقي معها على انفراد.

شعر بشيء من القلق. كان دخول الجارية وخروجها يقلقه. ودارى قلقه بتعليق الإطار على الحامل، وإخراج زجاجات الألوان الزيتية من المخلاة.

لاحظت ما يرتسم على محيّاه من قلق، فقالت: ألم يعجبك ثوبي؟

ابتسم وأجاب: يتعيّن أن أدقق بجمالك وجمال ملبسك على مهل، وعلى راحتي؛ فالرّاح يشرب على مهل ولا يشرب دفعة واحدة.

كان ثوبًا سلطانيًّا لا تلبسه إلا أميرات القصور، ثوبًا من الحرير الفاخر، ثوبًا طويلاً موشى بخيوط الذهب ومرصّعًا باللؤلؤ، له أكمام واسعة، ولوسطه عند الخصر زنّار، وذيله يلامس الأرض الملساء المبلطة بالرخام.

على الصدر قبّة مستديرة، ومن الرقبة يتدلى عقد جواهر كريمة متعددة الألوان.

قالت، وهي تتناول قبعة وتضعها على رأسها على شكل مخروط، منسوجة بعناية ومرصعة بحجارة كريمة، ويتدلى من طرفيها قماش مجدول ينتهي بشراشيب، وضعتها على رأسها، قالت: هذا الثوب جاءني هديّة من السلطانة (نخشديل)، محظية السلطان عبد الحميد الأول وحبيبته وزوجته.

بدت إذ ذاك كملكة، تألق وجهها تحت القبّعة، وأعطت القبعة لها مهابة سكان القصور العريقة.

ظلّ مبهورًا، ويبدو أنها قررت أن تلوّعه؛ فاستلقت وتمددت على الأريكة، فبدت مثل أميرة تخرج من حكايا ألف ليلة وليلة.

قال لها ما خطر له.

فقالت: يا للدهشة، هل قرأت ذلك الكتاب؟

هزّ رأسه بالإيجاب، وأضاف: قرأت بعض أجزائه.

اتكأت وسوّت أطراف ثوبها لتغطي كامل جسدها، وتركت مساحة ما ليظهر حذاؤها الجلدي الفاخر المحكم الربط بخيوط بلون البن الأشقر.

قالت وعيناها تلمعان ببريق: كانت السلطانة تحب حكايا الكتاب، وكنا نقرأ معًا بعض فصوله في التزهات.

صارت وهي جالسة على أريكتها قمرًا ووردة. صارت متألقة وباذخة الجمال، ومشعّة كلؤلؤة المرزبان، فلا عري في اللوحة، لكن العينين أشد إثارة من العري.

وتذكّر مداهمة الجندرمة للبازار يوم أمس، لكنه لم يشأ أن يخبرها لكي لا يعكّر صفو هذا الجو شديد الألق.

كان عليه أن يبدأ الرسم، فقد أعطته إشارة البدء حالما اتكأت على الأريكة. وكان خياله يرسم صورًا فاخرة لنساء الحكايات وعوالم السلطانة نخشديل، التي يسمع عنها روايات تشبه الأساطير.

كان عليه أن يرسمها مستبطنًا بهجة ونضارة ومسرة ولذة وفرحًا ومرحًا أعلى حدود الخيال، أن يرسم ثوبها ووجهها وعينيها وحاجبيها ورموشها ونارها على هذا القماش الدمشقي.

عليه أن ينتبه، ويركّز، ويرسم بمشاعره وأحاسيسه، وحواسه الخمس.

نظر إليها مليًّا، وتعلّقت عيناها بوجهه الجميل ذي التقاطيع الناعمة والخشنة في آن.

بقلم الفحم، بدأ برسم الإطار العام على القماش، آخذًا بعين الاعتبار الكتل والمقاسات، والمساحات المناسبة. وكان يرسم ويصحح بالممحاة، بينما هي صامتة تطلق عليه بريقها وهيبتها وطهرها ومكرها ومجونها.

***

أنهى المرحلة الأولى بعد وقت لم يدرِ أطال أم قصر.

تنفس بعمق وهو يعيد قلم الفحم إلى مكانه، وقال لها: نكتفي بهذا القدر اليوم.

حرّكت جسدها. اعتدلت وهي تنظر إليه بوله، وقالت: ما أجملك! لأول مرة تتاح لي الفرصة لكي أتأملك وأكتشف شخصية الإنسان النبيل فيك. كنت ترسم بروحك وتنظر إليّ وتتأمل دون ارتباك أو وجل.

ضحك دون أن يقول شيئًا، ومسح يديه بقطعة القماش ليزيل آثار الفحم، بينما اقتربتْ من اللوحة وتأملتها.

قال لها وهي تتفحص اللوحة: لا تحكمي عليها من هذه الخطوط. احكمي عليها وهي تنير بالألوان.

تركها تتأمل، وأخذ يلملم أشياءه، ويتهيأ للمغادرة، فبعد هذا الاستغراق الطويل، عليه أن يأخذ قسطًا من الراحة.

نظرت إليه نظرة حنونة عكست انبهارها وإعجابها، فاقتربت منه وهمست وهي تكاد تلامس وجهه: اليوم أنت ضيفي على الغداء، فحذارِ أن تعصي أوامري.

همست ووصلته أنفاسها، رائحة سواك وأراك ومسك. لأنفاسها رائحة حديقة.

ودّ لو تواتيه الجرأة فيضمّها إلى صدره ويقبّلها.

ابتعدت قليلاً. عليه أن ينتظر، وأن يتصرّف بدماثة وعقلانية، وأن يكون صبورًا.

أمسكت يده بعفوية، وسحبته معها إلى غرفة الطعام عبر باب داخلي.

غرفة على النمط التركي؛ ستائر من الجلد مصبوغة باللون البرتقالي، سجّادة فارسية فائقة الزخرف، منضدة في الوسط، وطقم جلوس ومساند، وطقم صحون من البورسلان.

أشارت له بالجلوس فجلس. رمق الجارية بعينيه فابتسمت له. فوجئ، فاكتفى بهز رأسه، وفي الوقت نفسه، جلست السيدة على مقعد يقابله. أشارت السيدة بيدها فتحركت أسرار على الفور. نظرت إليه وقالت ممازحة: بينك وبين أسرار خصومة؟

أجاب: أشعر أنها تنظر إليّ نظرة غراب.

ضحكت، وقالت بهدوء: لا تغلط، هي واحدة من أنبل الوصيفات، وهي قريبة من قلبي. دقق في ملامحها عن قرب. سترى كم هي جميلة هذه الخلاسية.

وأضافت: اسمها أسرار، اسم على مسمى، فهي حافظة أسراري. هي وصيفة لي وليست جارية، منحتني إياها السلطانة فحررتها، وخيّرتها فاختارت أن تبقى معي.

في تلك اللحظة، عادت الجارية أسرار، (عليه أن يتعود من الآن فصاعدًا على لقب الوصيفة لا الجارية).

عادت ووراءها خادمات يحملن أطباق الطعام؛ حساء، وورق عنب وبابا غنّوج، وطاجن دجاج بالخضار، وطبقًا من الكباب

المشوي على طريقة أضنة، وخبزًا مدهونًا بالزبدة ومرشوشًا بالسمسم، وأشياء أخرى مغطّاة.

وضعت الخادمات الصحون والملاعق والشوك والسكاكين وفق نظام الإتيكيت، وخرجن. تقدمت أسرار وقالت لهما حسب الأصول: شهيّة طيّبة.

ثمّ استدارت وخرجت على مهل.

تيسّر له خلال ذلك أن ينظر إليها، وأن ينتبه إلى لونها الأسمر الخلاسي. وأدهشه أن وجهها جميل بالفعل، وأن تقاطيعه دقيقة وليست غليظة كما كان يتخيّل.

قالت السيدة: تفضل.

نظر إلى الطعام الشهي الذي تنبعث منه رائحة البهارات، وأبدى إعجابه، فأضافت: تستطيع أن تأكل على راحتك دون أن تتقيد بالإتيكيت. تستطيع أن تأخذ الحساء قبل الوجبة الرئيسة أو بعدها. تستطيع أن تأكل بيدك إذا شئت دون استخدام الملعقة أو الشوكة أو السكين، كل كما تشتهي وترغب، شهية طيّبة.

كان قد سمع شرحًا عن إتيكيت الطعام في مدرسة الراهبات من خلال استعمال الشوكة والسكين فقط، وأنّ الملعقة هي لشرب الحساء، وأنّ فوطة أنيقة الشكل تثبّت حول الرقبة، وفي الآدب، على المرء أن يعرف أنّ قطعة الخبز تكون على يساره، فلا يأكل من خبز

جاره الجالس على يمينه، وأن كأس الشراب، سواء كان ماء أو نبيذًا، يكون على يمينه، فلا يشرب من كأس جاره الجالس على يساره.

ذكر لها ذلك، فأكّدت، وأضافت بعض التعليمات الأخرى، كشرب الحساء بهدوء دون أن يصدر لاحتسائه صوت، وآداب الأكل والمضغ برقّة ودون عجلة، وأن ينهي وجبته في الصحن في الوقت المناسب، والحديث مع الجار ومجاملته، والتحلي بالظُرف إذا ما كان الحديث عامًّا. ولكل مرحلة من مراحل الطعام أسلوبها؛ فالحديث أثناء الحساء أو المقبّلات يكون مقتضبًا، والحديث أثناء الوجبة الرئيسة يكون متسعًا، والحديث أثناء تناول الحلوى مرحًا.

وقالت: إنّ السلطانة نخشديل هي التي أدخلت نظام الإتيكيت في القصر، وفي المآدب الرسمية على النظام الفرنسي، لأنها من أصول فرنسية؛ فقد خطفها القراصنة وهي صبيّة وباعوها كجارية إلى داي الجزائر، وكانت شقراء بعينين زرقاوين، وعلى جانب مذهل من الجمال والأناقة والثقافة. ولكي يتقرّب الداي من السلطان عبد الحميد الأول، أرسلها هدية إلى قصره، وكان العرف أنه ما إن تدخل الجارية القصر، حتى تعتنق الدين الإسلامي، ويتم تغيير اسمها باسم جديد. وكان اسمها (إيمي)، وطمع فيها كل الذكور المتنفذين في القصر، لكنّها لم تستجب لأيٍّ منهم، ووصل خبر جمالها وأناقتها وثقافتها إلى السلطان فطلبها وسحر بها وقرّبها إليه، وألحقها بالحرملك خاصته، وهي كانت تسعى لذلك؛ كانت تريد أن تتحقق نبوءة العرّاف. السلطان نفسه سمّاها نخشديل، أي السيدة مطرزة القلب.

دخلت فراشه عن طيب خاطر، وحملت منه وولدت له طفلاً، فتحولت مكانتها من جارية إلى سلطانة، ولم تنس أصولها وثقافتها الفرنسية، فأدخلت كثيرًا من النظم الفرنسية على القصر ومآدبه وأثاثه ومطبخه، بل إنّها أقنعت السلطان بإقامة علاقات دبلوماسية وقنصلية مع فرنسا.

في تلك المرحلة، عملتُ معها، وساندتها عندما كانت الدسائس والمؤامرات مشتعلة في القصر بين الحريم، مؤامرات ودسائس، بل وجرائم، من أجل أن تصل كل منهن إلى لقب (السلطانة الأم).

وقفت إلى جانبها وكنت قد ترقّيت في الحرملك من رتبة (الكلفة)، التي تدير شؤون الحياة اليومية في جناحها، إلى رتبة (الجوزدة)، التي ترافقها وتنقل أوامرها وتؤانسها في السراء والضراء.

وعنما تعرّضتُ إلى الخطف من أحد قادة الإنكشارية بمؤامرة من زوجة السلطان الأولى ضمن تلك الدسائس. عملتْ ونجحتْ في إنقاذي، وبعد ذلك، وللحفاظ على حياتي: منحتني حريتي، وأعادتني إلى مسقط رأسي في إزمير، ووضعتني تحت حماية جركس باشا أمير البحر في جزر إيجة.

كل ذلك الحديث جرى على المائدة. تحدثت دون أن تمتد يدها إلى الطعام، وبدوره، أخذ رشفة من الحساء. وأخذ ينصت إليها، ويراقب تعابير وجهها وانفعالات ملامحها. وتقلّب الأسى أو الحنين في عينيها.

لم يلفت انتباهه الحديث عن السلطانة، بقدر ما لفت انتباهه سرد بعض اللمحات عن سيرتها، فهي تعترف له أنها كانت جارية في قصر السلطان عبد الحميد الأوّل، وأنها خضعت لما تخضع له الجاريات من اعتناق الدين، وما يتعيّن أن تتعلمه الجواري من ثقافة القصر وتقاليده.

صمتت فجأة. صمتت واغرورقت عيناها بالدمع. لعلّ الحديث فتح في قلبها جروحًا غافية لم تفصح عنها بعد.

ثم وقفتْ وسارعت إلى الخروج من الغرفة، وكان يسمع عن بُعد نشيجها.

وعندما عادت، كانت قد غسلت وجهها، وغاب ما كان من كحل وتطرية في عينيها وخدّيها، فاعتذرت له، ورسمت على شفتيها ابتسامة، وقالت: أرجو ألا تؤاخذني؛ ما كان عليّ أن أسبب لك الإزعاج، وأن أقطع شهيتك.

فتجرّأ وأمسك يدها بيد، وربت على كتفها باليد الأخرى، وعندها، رفعت يده التي تمسك بيدها لتلثمها، إلا أنه سحب يده وقبّل رأسها.

انفرج الجو، وحكى لها طرفة لينتزع ضحكتها فضحكت. وبعد ذلك، عادت إلى طبيعتها، بل إلى جنونها، فصرخت وهي جذلى: هيا نأكل، نأكل بأصابعنا وبأكفّنا وبأيدينا وبرموشنا، إلى الجحيم ذلك الإتيكيت. لا نريد وساطة بين الزاد وأفواهنا.

قالت ذلك وغاصت يدها في طاجن الدجاج.

وجاء وقت المرح؛ أطعمته من يدها، وأطعمها من يده، برضاها مرة، وبشكل قسري محبب مرة أخرى، أثارا المرح والفرح والصخب.

لعلّ هذا الصخب اللذيذ وهما يأكلان كغجريين أثار انتباه أسرار، فأطلّت من وراء الباب، اختلست نظرة أثناء انشغالهما بهذا الهزل وألقت نظرة سريعة، واختفت.

كان ذلك المرح يشبه مرح أطفال عراة في حوض سباحة، يمرحون ويثيرون الصخب ويتراشقون بالماء.

***

انتهى المرح والصخب وتناول الحلوى، وكان لا بد من مواصلة العمل، فقد تجدّد نشاط كل منهما.

عادا إلى غرفة الرسم.

عادت إلى أريكتها بعد أن أصلحت من زينتها، واتخذت جلستها كما كانت، وكان وجهها متوردًا، وعيناها تطلقان البريق.

انهمك في نشر ألوانه على حاملة الألوان، والتأكد من أنّ الفرشاة جاهزة للرسم.

قال لها: سنبدأ الرسم بألوان الزيت، وعليك ألا تتحركي.

ضحكت وقالت له: أعطني استراحة قصيرة بين وقت وآخر.

***

بدأ يرسم الوجه بالألوان، رسم بهدوء وبمشاعره المرهفة.

تابعته بنظراها وهو يرسم ويحرّك الفرشاة ويحوّل الرسم إلى موسيقى. كان قد شمّر قميصه الفارسي المشجّر، وخلع الطاقية اليافاوية عن رأسه، فتدلت خصلات الشعر على ناصيته.

يتوقف ليمزج الألوان ويخترع إضافة ولطشة فرشاة، مثل شاعر هبط عليه وحي، أو عازف بيانو يعمل بلا هوادة.

يعرق فيمسح عرقه بطرف قميصه، تتلطخ يداه بالألوان المتوالدة، فيمسحها بالفوطة البيضاء فتتورّد ولا تتسخ.

طلبت استراحة، فتجاهل طلبها. عرفت أنه لا يريد التوقف ما دام مشحونًا بطاقة وحيوية.

مرّ وقت طويل قبل أن يتوقف. لم تكن متعبة. كانت تتأمله وتتابع حركاته بلذة.

كانت ملتذة ومفعمة بالمشاعر. طلبت استراحة لتتقدم وتمسح بمنديلها عرقه، وليأخذ فرصته في استراحة بعد جهد مضنٍ بذله.

وعندما توقف، صفّقت له بكفيها، فانحنى لها وابتسم، ثمّ استأذنها ليغسل وجهه ويقضي حاجته في بيت الراحة.

تأمّلت ما فعله. لم تكن الألوان تغطي كامل المساحة، كانت هناك بقع لا تزال فارغة، ومساحات متفرقة مضاءة، بعضها مضاء

بفانوس ساطع، وبعضها مضاء بقنديل خافت، كانت هناك ظلال، وخربشات، وآثار ما للمسة الفرشاة.

عندما عاد، سارع إلى القول: لا تنظري إلى اللوحة الآن، ما زالت قيد التنفيذ، سترينها في وقت لاحق.

وأضاف: سأكملها في المرسم. وضعت الخطوط والسمات العامة، وحفظت كل دقة قلب تنبض داخل صاحبة الصورة.

هزّت له رأسها، وكانت لا تزال في ثوب الملكة، ثوب السلطانة، فهمست بما يشبه الوجد: أثق بك. أثق بموهبتك أيها الخجول.

***

الفصل التاسع

مرّ أسبوع، ما غادر به مرسمه في البازار. انكبّ على العمل اللذيذ. رسم بالألوان الزيتية، وكذا مزج بعضها ببعض وصنع ألوانًا جديدة كالبرتقالي، والليلكي، والقمحي، والزيتي، والأخضر الفستقي، والأصفر العميق والمحمّر، والعسلي، وغيرها من الألوان التي تثير الخيال، وتزخر بها الطبيعة كألوان الفاكهة، والظباء، والأيائل، وومضات البرق.

كانت الفرشاة تمس القماش بحنو ورشاقة، وكان يشعر بقوة خارقة ملهمة، كأنه وسط عاصفة من الأساطير، تظلل فؤاده إشراقة تفوق الوصف. رسم وزيّن تفاصيل غموض آسر، ووضوح نقي. رسم بالفرشاة ودوزن أوتار فكرته بعناية، واستعمل يده وأصابعه بقدر وقيراط. وأخيرًا، اكتمل استواء السيدة على أريكتها، وبدت كأنّها خارجة من وراء المجرّات ونجومها وأقمارها، من وراء الرياح والبرق والرعد والمطر.

عندما أنهاها، تأمّلها طويلاً، وشعر أنه يتفوق على نفسه، فحدّث نفسه بصوت عالٍ: الآن.. الآن فقط أصبحت رسّامًا.

تركها تجفّ، وبانتظار ذلك، صنع لها بيديه إطارًا جديدًا مذهّبًا.

ها هو يحملها، بل يحضنها، وإن كانت تحت إبطه، يمشي بها في الدروب والأزقة كأنه يريد أن يعطّرها برائحة الخبز التي تفوح من البيوت والتي تبدو أشهى من رائحة البخور، ويرد الحسد عنها بالرقى

والتمائم والخرز المثبّتة على بوّابات البيوت، والمعوّذات المنقوشة على الرخام فوقها.

خرج مبكّرًا قبل صياح الديكة. ترك المخلاة في البازار، وحمل اللوحة المغطاة بغلاف من الورق الزهري الشفّاف.

غلّفها كزجاجة عطر تغفو في قارورها، وخرج قبل انبلاج الفجر. سار في أزقة المدينة النائمة، ومشى في دروبها، حيث البيوت التي تطل من شرفاها أصص الزهور ونباتات الزينة.

المنارة فوق أعلى التلة ما زالت مضاءة. ورائحة البيوت العتيقة لها عبق. والندى يحط على حجارها وشبابيكها وأغصان أشجارها ويبعث في البدن رعشة.

كأنّه، وهو يحملها، يرى الأشياء مختلفة، يسير ويستبطن صورة السيدة وحنينها وأنينها، وفرحها وأوجاعها. لم تبرح تعابير وجهها خياله المضنى طوال الأيام الفائتة. ها هو يتعلق بها تعلّق النجوم بالسماء، وتعلّق الخُشْف بأمّه الغزالة.

يجول في الشوارع، والصبح إذ يتنفس.

يشعر بالراحة والسكينة، وينتظر صوت المؤذن وانبلاج فجر هذا اليوم الجديد، وقدوم لحظة الشروق والضياء، حيث تولد البسمة والانشراح والسرور والضياء على وجه هذه المدينة الرابضة على هذه التلة منذ الأزل.

* * *

جمال يافا أبلج، وقبح أعدائها لجلج. هكذا كان يقول أستاذه الشيخ عندما كان يتعلم النحو والصرف في الجامع الكبير، فصار الأولاد يتبارون في اللعب بالكلمة ونسج كلمات على قياسها.

لماذا يشعر بجمال المدينة وسحرها في هذا الفجر؟ لماذا تبدو له الأشياء بهذا الجمال؟

الصمت والسكينة، رائحة الحجارة، الأقواس والأروقة، رائحة البحر، ضوء المنارة، صمت السفن في الميناء، المآذن والقباب، كل شيء له طعم حسّي خاص.

***

مشى إليها ومشت معه اللوحة، ومشت أشعة شمس وليدة، ومشى معه حنين يعتصر قلبه، ومشت معه حكايا الحرملك والسلطانة والخيال.

طرق الباب، ففتح الجنايني الذي يعتني بالحديقة، وأقبلت أسرار، الوصيفة لا الجارية. أقبلت تسبقها ابتسامة تكشف بياض أسنانها، وتكشف عن غمّازة في خدها. لم تكن سوداء كما كان يراها. كانت بلون خليط القهوة بالحليب. وأيقن لحظتها أنّه يراها بعين الرضى.

حاولت أن تخفف عنه العناء، وتتناول اللوحة. لكنه تمسّك بها بإصرار، واعتذر لها.

قادته إلى الليوان، وأشارت له بالجلوس، وقالت بكل رقة ودماثة إن السيدة ما زالت نائمة، وإنها ستوقظها بعد ساعة. وجلست على مقعد قريب بلطف وكياسة لكي لا تتركه وحيدًا. قال لها: إنّه ليس في عجلة من أمره، وسينتظر السيدة حتى تنهض.

أجابته: تشرب القهوة وتتناول الإفطار، ثم تدخل إلى القاعة التي خصصتها السيدة للعمل.

فوجئ بهذا التحوّل. ما الذي غيّرها وجعلها ترسل له إشارات ود؟ لعلّ هذا الود مجلوب من رغبات السيدة.

أجابها: أشرب القهوة، لا حاجة للفطور. ما زلت متخمًا من غداء الأسبوع الماضي.

كانت تعرف أنّه والسيدة أكلا في تلك الظهيرة بالأيدي. وكان يعرف أنّها سمعت ضجيج ضحكهما، وقد تكون أطلت خلسة من وراء الباب بعد أن وصل إلى مسامعها ضجيج المرح وكل منهما يطعم الآخر بالرضى أو بشكل قسري محبب.

ضحكت ضحكة تنمّ عن خبث لذيذ، وقالت: إذًا، تشرب القهوة في شرفة المرسم. هيا.

***

شرب القهوة في شرفة الغرفة المطلّة على جانب من البحر، وذهبت أسرار إلى شأنها.

بحث عن مكان مناسب في الغرفة. وجد طاولة زينة أنيقة عليها مزهرية في ركن مقابل للنافذة والضوء. أزاح المزهرية ووضع اللوحة عليها كما هي في غلافها، ثمّ عاد إلى الشرفة يتأمّل وينتظر إطلالة السيدة.

مرّ وقت طويل، أو خيّل له ذلك، قبل أن تستيقظ السيدة.

عندما علمت بوجوده في المرسم، أطلّت عليه من وراء الباب بحذر؛ فقد كانت في ثوب نومها الرقيق. أطلت عليه بعيون لا تزال تحت تأثير الكرى، ولمحته في الشرفة يدير ظهره وينظر باتجاه البحر.

عادت بعد ساعة بكامل زينتها، ووجهها متورد من سخونة حمامها التركي وبخاره، وكانت تلبس عباءة مطرّزة وفضفاضة تخفي بروز صدرها، ودقة خصرها، وامتلاء جسدها.

دخلت يسبقها عطر ورائحة بخور، أحسّ بخطواتها، فاستدار وأقبل عليها.

بينهما، كان يمتد حبل شوق ورذاذ أحاسيس ومشاعر.

قالت: هجرتني أسبوعًا ولم تأتِ لتقول كلمة مرحبًا.

أجابها وهو يتّجه نحو اللوحة المتكئة على طاولة من خشب الأرز: كنت أقول لك وطيفك أمامي في اللوحة ألف مرحبًا في كل رمشة من عيوني، وكل رميشة.

كان في عجلة من أمره ليقدم للسيدة الأميرة أوراق اعتمـــاده، فعمد إلى الركن، وبكل خفّة وأناة ورشاقة، نزع الغلاف عن اللوحة، فأطلقت صرخة فرح: يا إلهي!

دققت في اللوحة. يا لبذخ الألوان! يـــا لانســـياب الجســـد، وانسياب الثوب السلطاني، والقبّعة السلطانية! يا للعيـــنين والأنـــف والشفتين والرقبة والأقراط والحذاء!

كأنها ترى نفسها لأول مرة. تدور وتدور حول اللوحة المثبتـــة على الطاولة، تدور وتدور معها عيناه. تدور لهفته. تتوقـــف فجـــأة. تتوقف عيناه على انفعالات وجهها؛ طائر الشباب يرفرف في عينيها، هالة سرور تكلل قامتها. فجأة، تطلق هتاف فرح وتكاد تقفز وتطير، تهتف مثل صهيل فرس، مثل حنين ناقة، مثل سليل غزالة، مثل تغريد بلبلة. تمشي وتنادي أسرار، ويلذ له سماع حفيف عباءتها وهي تنادي بصوت مثل دندنة وتر.

يصب فرحها في خفقان قلبه. تدخل أسرار، فتجد السيدة مـــن يشاطرها الفرح، من يشد أزر جنونها.

ظلّ مشدودًا لهذا الفرح الذي يقفز من حواســـها. انـــدفعت نشوة الفوز وسرت مع الدماء الحارّة التي تسري في عروقه.

غرغرت دموع في عينيه. وظلت السيدة والوصـــيفة تـــديمان النظر إلى اللوحة، وتعبّران عن الابتهاج على طريقتـــهما. ضـــاقت

المسافة بين السيدة والوصيفة؛ تحولتا إلى حمامتين زاجلتين. جاشت مشاعرهما بفرح غامر، وبعاطفة متدفقة.

شعر بالثقة والقوّة والتجدد. فرح مثلها. فرح كما لم يفرح من قبل، فأخرج منديله ومسح دموعه. عندها، توقفت السيدة عما كانت فيه من حركة وحيوية، وكذا فعلت الوصيفة.

أقبلت عليه. أمسكت يده وانحنت عليها ولثمتها، ثمّ أطلت في عينيه، وللعيون لغة.

استدارت نحو أسرار، وقالت: أريد منك أن تعدّي لنا جلسة مؤنسة نحتفل بها، فنأكل ونشرب ونرقص ونقصّ الحكايا.

قالت ذلك وعادت تتأمل نفسها في اللوحة. قالت أسرار: سنحتفل، ولكن أين نعلّق اللوحة؟

– تبقى هنا (وأشارت بيدها) على هذا الجدار، وأمام هذه الأريكة.

ودارت حول نفسها دورة واحدة، ورفعت يديها عاليًا وقالت: هيا لنجلس في الحديقة.

***

في الحديقة طاولة، ومقاعد من الخيزران، وسلّة فواكه، وباقة من الورد الجوري، ومظلة من قماش أبيض على شكل قبة تظلل المكان. وعلى مقعدين متقاربين، جلسا في أجواء حميمة.

– ماذا عنيتِ باحتفال نأكل به ونرقص ونحكي الحكايا.

سألها من باب حب الاستطلاع، فأجابت: إنه أحد أسراري، لكنّك ستعرفه وتتعرّف على الكثير من تجليّات مزاجي وحبّي للحياة.

ثمّ أردفت: أمتأكد أنك ترغب في معرفة ما قصدته؟ لماذا لا تحب المفاجآت؟

– سأتعرف عليك وعلى ما تريدين أن أعرفه دون أن أسأل، وإذا رغبتِ في أن تتركي الأمر مفاجأة، فسأمتثل لرغبتك.

أسندت ظهرها إلى ظهر المقعد، وقالت: ليس الأمر يتعلق بسر خطير، لا بد أن أشرح لك.

كان يمسك بيده حبة برتقال. كان ينظر إليها. كان يستمع.

قالت: حدثتك عن السلطانة نخشديل وثقافتها الفرنسية الواسعة. قرأنا معًا كتابًا لكاتب إيطالي مترجم إلى الفرنسية عنوانه (الديكاميرون)، وهو كتاب ساهم في التحولات التي مهدت الطريق لعصر النهضة في أوروبا.

تدور أحداثه في القرن الثالث عشر، عندما اجتاح إيطاليا وبقية المدن الأوروبية وباءُ الطاعون، حيث الموت يحصد الأرواح بالجملة، ويثير الرعب، ويحطم العلاقات الإنسانية، ويجعل الزوجة تتخلى عن زوجها، والأب عن ابنه، والجار عن جاره. كل يريد النجاة بنفسه. المقابر تمتلئ، والموتى يدفنون دون مشيعين.

في هذه الأجواء المرعبة، تلتقي سبع نساء وثلاثة رجال في إحدى كنائس فلورنسا، ويتفقون على الهرب من وباء الطاعون، ويذهبون إلى أحد القصور المهجورة في إحدى الضواحي للعيش هناك. ومن أجل نسيان الموت والخوف والانتظار، يضعون خطة بموجبها يخرجون إلى المروج والحدائق في تلك البراري بعد القيلولة، ويروي كل منهم قصة أو حكاية في موضوع تقرره امرأة ينتخبونها كل مرّة لتقوم بدور الملكة. ثمّ تقرر الملكة أن يروي كل واحد منهم قصة في موضوع تختاره أو تسمح للراوي أن يختاره. هكذا ينسون من خلال سرد القصص الكآبة وانتظار الموت. يرفهون أنفسهم بالخيال ويتجاهلون أخبار الوباء.

استمع إليها بشغف، وانتظر المزيد، فأكملت: السلطانة أحبت الفكرة، فكلفتني أن أختار لها عددًا من الصديقات والجواري، مجموعة متجانسة تلتقي في حديقة القصر بعيدًا عن العيون مرة في الشهر، تروي كل واحدة منا الحكاية التي ترغب في قصّها. نجحت الفكرة واستمتعنا ونسينا الدسائس والمؤامرات، ولو إلى حين.

قالت ذلك ثمّ صمتت.

كان يقلّب الفكرة في عقله. كان يشعر بما يدعو إلى الإعجاب، ويغري بالتأمّل.

***

الفصل العاشر

في حديقة القصر الصغير، ومنذ الظهيرة، تمّ تجهيز المكان؛ تنظيف بساط العشب من الأوراق ومما تذروه الرياح، وفرش بساط من الصوف مشغول على النول، وتوزيع مفارش ومخدات ومساند مطرزة ومزركشة على شكل دائرة، وسلّة فواكه كبيرة، وصينية فضة مليئة بالحلوى، ودوارق شراب وكؤوس، وباقات ورود، وآلة عود شرقي، ومظلة بيضاء على شكل قبّة تظلل المكان.

جلست السيدة، وغير بعيد جلس يوسف، وبينهما جلست أسرار، وهنا وهناك جلست أربع خادمات بملابس زاهية. لا مسافات بين السيدة والوصيفة والخادمات. في مثل هذه الجلسة مساواة ومحبة ولا إتيكيت، جلسة تضم السبعة: ست نساء ورجلاً واحدًا.

قالت السيدة: واليوم نواصل جمعتنا الحميمة، نفرح ونحكي ونعزف على العود ونغني لكي تدخل السعادة قلوبنا ونطرد الملل والزهق والسأم. يقصُّ بعضنا على بعضنا أحلى الحكايا، ولأول مرة، يحضر جلستنا رجل، رجل فنّان يتقن التصوير ويتسم باللباقة وصديق لهذه العائلة، تعرفونه جيدًا من خلال تردده علينا، ولأنها المرة الأولى التي يشارك بها رجل، فإنني أراكنّ وقد لبستنّ أفخر ما عندكن من ثياب، وكل واحدة منكن بدت بكامل حسنها ووضعت على عينيها الكحل وعلى وجهها ما هو متوفر من وسائل التطرية، لتظهر بكامل جمالها وأنوثتها، وهذا شيء حسن ويستحق الثناء. وإن شاء الله يدوم في قلوبكن الفرح والانشراح والمسرّة.

أول ما يتعيّن أن نفعله هو اختيار ملكة من بيننا تصدر لنا التعليمات، فماذا تقلن؟

كان يوسف ينظر إلى هؤلاء النسوة اللواتي لا يبرحن هذا القصر إلاّ لمامًا، ولا يتواصلن مع الرجال إلا بأحلامهن، ينظر ولسان حاله يقول: ما أحلى تلكنّ اليمامات!

قالت السيدة: والآن، علينا أن نختار ملكة هذه الأمسية.

قالت أسرار: نبدأ بأحرف الألف باء.

قلن بصوت واحد: أحلام.. أحلام.

قالت السيدة: إذًا، أحلام في هذه الأمسية هي الملكة.

وقامت السيدة من مكانها، وتبادلت المكان مع أحلام.

يا لهذه الأحلام الجميلة، الممتلئة والمكتنزة ذات البشرة البيضاء والعيون العسلية، والوجه الحسن!

كانت قوية الشخصية. اتخذت جلستها ونظرت إليهنّ بعيني غزالة، وبدأت الكلام: أشكركنّ على اختياري ملكة، وأرحب بضيفنا العزيز الرسّام السيد يوسف الذي أبدع في تصوير لوحة رائعة لسيدة هذا البيت. نقيم أمسيتنا هذه على شرفه، وأرجو ألا يأخذكن الخجل في سرد الحكايات لوجود رجل بيننا، فلا مكان هنا للوقار الاصطناعي، فأنا أعرف الأحاديث التي تتبادلنها بالسر، وهي أحاديث غوايات ومغامرات ومراودات، فقلن قولاً جميلاً وجريئًا

ومبهجًا. اليوم، أطلب في البداية أن تعزف لنا السيدة على العود لكي تفكرن بموضوع الحكاية التي أطلبها، وما أطلبه حكاية رجل عشق امرأة، وكاد يفقد حياته بسبب هذا العشق. فلنبدأ إذًا.

كان يشعر بالدهشة، وكان خجلاً أمام جرأة البنات الجميلات الأخريات اللواتي لم يتكلمن، وإنما تكلمت عيونهن. وراقب السيدة التي امتثلت لأوامر الملكة، وأمسكت بآلة العود واحتضنته، وأخذت تدوزن أوتاره، ثم بدأت تعزف بالريشة بيد، بينما أصابع اليد الأخرى تتناوب على الأوتار حسب النغمة. عزفت مقطوعة مألوفة من المقامات الموصلية لأغنية شامية مشهورة عن هودج العروس، عزفت وأجادت وأطربت، وجعلت الرؤوس تتمايل، والأكف تصفق.

أنهت العزف في جو من الاستحسان والرضى، فاحمرّ وجهها لكثرة الثناء، وبعد أن هدأ الجو، قالت الملكة أحلام: من منكن لديها حكاية عن عاشق أحبّ، ولشدة عشقه كاد يفقد حياته؟

وأضافت: ومن تعرف، فلتتقدم، شريطة أن تسرد الحكاية بلا خجل ولا غموض، وإنما بكل وضوح وصراحة.

كانت السيدة تجلس الآن قبالته، وكانت تنظر إليه تارة، وللنساء تارة أخرى. ومثله كانت تنتظر من تتقدم لتسرد حكاية رجل كاد العشق ومعاشرة النساء يقتلانه.

لم تتقدم أيّ منهنّ حتى تلك اللحظة تهيّبا أو خجلاً. ولعلّ السيدة كانت تنتظر حتى إذا لم تتقدم إحداهن، تقدمت هي.

فجأة، قالت أسرار: أنا أحكي حكاية.

صفقن لها، وقالت الملكة: إذا لم ترق لنا الحكاية، فذنبك على جنبك!

ابتسمت أسرار، وكانت اليوم بكامل بهائها وأناقتها؛ تزهو بثوب من الدمقس الفاتح عليه وردة حمراء تنبت عند الخصر وتتفتح على صدرها. كانت تبدو أصغر سنًّا، ووجهها الخلاسي دقيق التقاطيع والشفتين يمنحها عذوبة وطلاوة ورونقًا.

تنحنحت لتجلو صوتها، وتعلقت بها عيونهن وعيناه. تربّعت في جلستها، ونظرت إليهن وقد صمتن، كما نظرت إليه وقد صمت، أطرقت قليلا، ثمّ بدأت تقصّ:

كان يا ما كان، في زمن من الأزمان، قائد مغولي اسمه تيمور، بيته سرج حصان، وصديقه سيفه. هو ملك الغزاة، وفاتح البلدان، ومهلك الممالك. وكان يعيش في مدينة اسمها سمرقند في آسيا الصغرى.

كان تيمور أعرج عابس الوجه يمكث في سمرقند عامًا، ويغيب عنها عامًا آخر يمضيه في الحروب وجلب الغنائم وسبي النساء، فهو، رغم قسوته، يعشق النساء، ويمتلك من السبايا ألف جارية.

من بين أولئك الألف، كانت بطلة قصتنا واسمها (نهاوند)، هي الأحب إلى قلبه، والأقرب إلى مزاجه، وقد جلبها معه سبيّة من بلاد

القوقاز، ثمّ تزوّجها، ومكث إلى جانبها عامًا، وفي العام الذي يليـــه، جهّز جيشه، وذهب إلى الحرب في رحلة طويلة تستغرق عامين.

قررت نهاوند أثناء غيابه أن تبني له قصرًا ليس لـــه مثيـــل في الكون، وأن تفاجئه وتقدمه له هدية لمناسبة عودته ظافرًا، وبهذا، فإنّها ستبقى الأقرب إلى قلبه وتحتفظ بمكانتها عنده.

سألت الوزراء والأعيان وكبار المستشارين عن مهندس عبقري واسع الخيال يتقن رسم تصميم لقصر خرافي ما مرّ بذاكرة مهندس، فجلبوا لها حرفيين وبنّائين ومعماريين من بلد التتار والقوقاز وبـــلاد الهند والعجم.

امتحنتهم واختبرتهم واحدًا واحدًا، وطلبـــت منـــهم تقـــديم التصميم الخرافي الذي لم يسبق أن تخيّله أحد، لكنّها لم تجـــد ذلـــك التصميم الجدير بقصر لحبيبها تيمور ملك الملوك.

وعندما يئست وكادت تطرد فكرة القصر من خاطرها، جـــاء إلى قصرها رجل طويل ووسيم ويلبس ثيابًا غير لباس تلك الـــبلاد، يضع على رأسه طاقية مشغولة بالصنارة، ويضع على كتفـــه مخـــلاة، جاء إلى القصر وقال للحرس إنّه سمع أنّ الأميرة تبحث عن مهنـــدس يشيد لها قصرًا، وإنّه الشخص الذي تبحث عنه.

عندما أبلغوها، لم تتحمس في البداية، وكادت تطلـــب منـــهم طرده، إلا أنّ وصيفتها وكاتمة أسرارها، وعينها في المراقبة وجمع أخبار نساء تيمور وجواريه، التي نظرت إليه عن قرب، جاءت مســـحورة

ووصفت لها جمال خلقته، ووسامته، ومتانة جسده، وهيبته، وجرأته في اقتحام القصر دون وسيط، ما جعل الأميرة توافق على استقباله.

(عطشت أسرار، وبدا كما لو أنّ ريقها جفّ، فسارعت إحداهنّ وصبت في كأسها الشراب، فتناولت الكأس وشربت رشفة، وظلت عيونهنّ مشدودة إليها. شربت وأحست أنّ العيون تشرئبّ نحوها، فأطالت، عن خبث ودلال، صمتها، ولم تتكلّم إلا عندما قلن بصوت واحد: أكملي.. أكملي).

قابلت المهندس الغريب الذي يلبس لباسًا غير لباس بلادها. قابلته في الرواق المفروش بالطنافس والأثاث الفاخر الذي يقف على بابه الخدم والحشم، قابلته وهي تغطي رأسها بالخمار، فلا يبدو سوى عينيها وحاجبيها.

استمعت إليه واختبرته وعجمت عوده كما يقولون، فأذهلها جماله وحديثه، قدّم نفسه باسم عمر الشامي، وأنه من حلب في بلاد الشام، وأنّه خبير بالمعمار والقصور ويتقن البناء العربي والتركي والإفرنجي، بل ويتقن بناء المعمار الفرعوني والفارسي والهندي، وقال لها إنّه سيصمم لها قصرًا ما مر بناؤه في أساطير الإغريق، ولا في أساطير الهنود القدامى الذين بنوا في ملاحم الرمايانا والمهابهارتا قصورًا تعجز الشياطين والجن والأبالسة عن تخيّلها.

سحرها كلامه، وسحرتها إطلالته، وحرّك شهوة في أعماقها، وأذهلتها جرأة عينيه اللتين تطل منهما مخالب.

المهم، لا أريد أن أطيل عليكنّ ولا عليك أيها السيد، فقد كلّفته ببناء ذلك القصر الفريد، ووضعت تحت تصرفه الأموال، وأوعزت إلى خازن بيت المال، وساري عساكر الحرس، وأمرت المحاجر أن تكون تحت طلبه، والنقّاشين من مختلف أنحاء البلاد أن يكونوا طوع بنانه، وأن تحمل الجمال من بلاد فارس ما يحتاجه القصر من مواد الزخرفة والتزويق والتعشيق والترصيع، وجلب الرخام والسيراميك والجص والخشب والآجر والخزف والقاشاني والمرمر من طشقند وبخارى وفرغانة.

كان ذلك الرجل ذو الهيبة والوسامة يلتقي الأميرة نهاوند كل أسبوع. كانت تستدعيه وتستعجله في إتمام بناء القصر قبل أن يحين موعد عودة زوجها الفاتح والغازي وملك الملوك تيمور.

وكانت في غاية السرور؛ لأنّ القصر يبنى كما تشتهي، وفي كل مرة تسأله عن مقدار ما يريده من العملة الذهبية أجرًا له، كان يؤجل الحديث في موضوع الأجر إلى وقت لاحق.

ولكي تحفّزه على سرعة الإنجاز، أرسلت له مع وصيفتها صرّة محشوة بالدنانير الذهبية، فأعادها وحمّلها رسالة تقول إن أجره لن يكون مالاً، وإنما شيء آخر. من باب حب الاستطلاع، دعته إلى القصر، واستقبلته في الرواق نفسه ومعها وصيفتها، وكانت تلبس الخمار وتغطي نصف وجهها به. استقبلته هذه المرة باهتمام. ولكي توصل إليه رسالة ود، أزاحت الخمار، فانكشف كامل وجهها المستدير، وسبحان الخالق! كان يشبه القمر ليلة اكتماله. وظهرت

شفتاها اللتان تفتران عن أسنان كاللؤلؤ، وأنفها المدهون بالزعفران، وخدّاها اللذان يكتتران بالشهوة والإغراء، وذقنها الذي يــؤدي إلى حرير رقبتها. أذهله جمالها ونظر إليها بذهول.

قالت له: يتعين عليك في هذا اليوم أن تحدد أجرك لقاء عملك وتعبك.

هزّ رأسه، وقال إنّ أجره شيء أهم من الذهب والمال.

سألته: وما هذا الذي هو أهم من الذهب والمال؟

أجابها: قبلة من خدّك.

عبست ونظرت إلى وصيفتها، فقالت له الوصيفة: تهبك سيدتي جارية آية في الجمال، هي لك؛ تقبلها وتنام في فراشك. بل يمكن أن تهبك جواري ثلاثًا: بيضاء وسوداء وصفراء.

قال بجرأة، لأنّه كان يعرف أنّ الأميرة لن تــذهب بعيــدًا في الغضب: لن تكون قبلة أي منهن بمذاق قبلة الأميرة.

ظلّت السيدة صامتة. لعلّها كانت تقلّب أمرهــا. ولعلّهــا في أعماقها كانت تشتهي قبلته؛ فهو وسيم وجميل، ولولا أنّهــا زوجــة الملك، لذهبت بعيدًا ونامت في فراشه.

كانت الوصيفة امرأة داهية. نادت على خادمة من خادمــات القصر، وطلبت منها أن تحضر شيئًا. وما هي إلا برهة قصيرة، حــتى عادت الخادمة وهي تحمل صينية فضّة عليها ثلاث بيضات: واحــدة

بقشرها الأبيض، واثنتان مصبوغتان بالأسود والأصفر. وضعت الصينية وانصرفت.

أشارت الوصيفة إلى البيض وقالت: النساء مثل هذا البيض؛ هذه بيضاء يشبه لونها امرأة من بلد الفرنج، وهذه سمراء تشبه في اللون امرأة من بلاد السودان، والثالثة صفراء تشبه امرأة من بلاد الصين. إذا قشرت هذه البيضات، أي إذا نزعت عن النساء ثيابهن، فإنّ مذاقهن واحد.

ابتسم المهندس الخبيث عمر، وقال: قبل أن نواصل الحديث، هل يمكن لي، لكي أبلّ ريقي، أن أحصل على ثلاثة كؤوس من النبيذ الأحمر والأبيض والزهري.

أمرت الوصيفة الخادمة بإحضار ما طلب، وكانت الأميرة تستمع وترى، ولا يبدو عليها الغضب.

أحضرت الخادمة كؤوس النبيذ ووضعتها على المنضدة، شرب رشفة من النبيذ الأحمر، ورشفة من النبيذ الأبيض، وثالثة من النبيذ الزهري.

نظر إلى الأميرة نظرة وغْل شَبِق أمامه غزالة، ونظر إلى الوصيفة نظرة استخفاف، وقال: الكؤوس متشابهة، لكنّ لكل نوع من النبيذ مذاقه المختلف.

كان هذا جوابه، فما كان من الأميرة إلا الضحك، وما كان من الوصيفة إلا الخزي.

• • •

(المهم أيتها الجميلات، لا أطيل عليكن، وعلى ضيفنا العزيز، سأختصر الحكاية لأنكن تتشوقن، ويتشوق السيد لمعرفة ماذا حصل بعد ذلك. وشربت من الكأس رشفة من العصير وأكملت).

قالت الأميرة عندها: أكمل القصر، وبعد أن تنتهي منه، ستحصل على ما طلبت.

فرح المهندس الشامي عمر، الذي كان يشبّه خد الأميرة بثمرة التفاح. كان يحنّ إلى بنات الشام اللواتي تشبه خدودهن لون التفّاح. كانت القبلة بالنسبة له بمثابة قضمة من تفّاحة لها خد أحمر.

وهكذا، أنهى المهندس عمر بناء القصر الذي يعدّ تحفة زمانه، وجاء إلى القصر ليأخذ أجره. كان يشتهي تلك القبلة. وكانت الأميرة هاوند أيضا تشتهيها. لذلك، استقبلته هذه المرة في غرفة استقبال ملحقة بغرفة نومها، وحرصت على أن تمنحه القبلة سرًّا، فلم تبلغ وصيفتها.

جاءها المهندس في كامل أناقته؛ جاءها بملابس عريس، وهيبة عريس وألقه، ذهب إلى المزيّن وقص شعره، ذهب إلى الحمّام واستحمّ واستمتع ببخاره، لبس قميصًا من الحرير وسروالاً من الجوخ، ولفّ حول رقبته شالاً رجاليًا فارسي المنشأ، وتعطّر بعطر الياسمين، وغطى رأسه بقبّعة.

أدخلته الغرفة التي تجاور مخدعها، ودخلت بخمارها.

عيناها ممتلئتان بالشهوة، وكانت تلبس ثوبًا من القماش الهفهاف.

نزعت الخمار وجلست على الأريكة. اقترب منها اقتراب العريس من عروسه. تصنعت الخجل، لكنه كان متلهّفًا وجريئًا.

كان في حالة ذهول، لأنها بكل ذلك الجمال كانت مذهلة.

عندما اقترب من خدها، أعني تفاح خدّها، انتابه جنون؛ اقترب من صحن خدّها كما لو أنه سيقضم تفّاحة، قضمة واحدة غرز فيها أسنانه ولم ينتزع لحمها. صرخت صرخة خوف مكتومة، وأبعدته عنها، وفتحت الباب وخيط من الدم يسيل على صحن خدّها.

كأنه شعر بجنونه لحظتها، وخشي من العواقب، فاندفع من الباب وأطلق لساقيه العنان.

(توقفت أسرار قليلاً، ورشفت رشفة من العصير لتبلّ ريقها. وكانت النساء لحظتها في حالة انبهار، كنّ في حالة انتظار، وفي أقصى درجات التشويق. أما الضيف، فقد تذكّر قبلته على نحر تلك الجارية في بستان البرتقال، وشعر كما لو أنّ أسرار تسقط بعض كلامها عليه. هتفت الملكة أحلام: أكملي الحكاية. أكمليها. تنهدت أسرار وأكملت).

بعد عشرة أيّام، عاد الغازي والفاتح تيمور إلى سمرقند، وعادت معه جيوشه، وغنائمه وسباياه، وما جلب من الأسرى، وعاد معه عدد كبير من الفيلة المحملة بالجواهر والذهب والأحجار الكريمة.

• • •

استقبله الناس استقبالاً حافلاً، استقبلوه بالورود والغناء وقرع الطبول. وعندما وصل قصره، ظلت الجماهير تحتفل في الشوارع. وفي آخر الليل، انصرف المهنئون من كبار رجال الدولة، فذهب ليختلي بزوجته وحبيبته نهاوند. دخل إلى خدرها، وكانت تلف وجهها بالخمار. اقترب منها ونزع خمارها، ويا لهول ما رأى! شاهد على خدها آثار قبلة وعضة أسنان من رجل قبّلها واستمتع بعضها، فأشهر سيفه ليطيح برأسها، فارتمت عند قدميه وحكت له الحكاية وطلبت عفوه وغفرانه.

صرخ وزمجر مثل أسد جريح، أغمد سيفه وطردها من القصر وأرسلها إلى بيت الجواري ذليلة مهانة، ونادى على قائد حرسه وطلب منه إحضار المهندس حيًّا أو ميتًا.

(وتوقفت أسرار عن السرد قليلاً، فهبّت النساء هبّة واحدة، وسألن: هل قبضوا عليه؟ هل فصل تيمور رأسه عن جسده؟ أشارت لهنّ بيدها كي يتمهّلن، وأكملت).

فتش عنه الحرس، وفتش عنه الجيش بأكمله، وأرسلوا من يفتش عنه في طول البلاد وعرضها، لكنّهم لم يجدوه.

ضاق صدر الغازي والفاتح تيمور وازداد قهره وغضبه. وفي لحظة يأس، نادى قائد الحرس وسأله: كيف لم تعثروا عليه؟

وقف قائد الحرس وقفة استعداد وأجاب: سيدي، لم نجده.

قال الغازي تيمور: كيف اختفى من مملكتي وقد أغلقتم الحدود وفتشتم كل الطرق والجسور ورؤوس الجبال؟

ظلّ قائد الحرس في حالة الاستعداد، وقال: سيدي، لقد نبت له جناحان وطار.

أنهت أسرار حكايتها وقالت: وهكذا تنتهي حكايتنا عن عاشق كاد يفقد حياته بسبب عشقه.

صفقن لها، وبدأت التعليقات على الحكاية؛ منهن من تعاطفت مع الأميرة نهاوند، ومنهن من تمنّت أن يعود المهندس خفية إلى بيت الجواري وينقذها ثمّ يحملها على حصانه ويهرب معها إلى أرض الله الواسعة. وتضاربت الأمنيات. لكن الملكة أحلام أنهت الجلسة بالثناء على الوصيفة أسرار، وقالت إنّ مهمتها كملكة انتهت، وسلّمت زمام الجلسة إلى سيّدها العيطموس.

طلبت السيدة من الجميع تناول الفاكهة والحلوى، وإنهاء الأمسية بمزيد من الغناء والرقص. وشكرت أسرار على حكايتها المسلّية التي طردت الملل وجلبت السرور، وتمنّت أن يكون الرجل الوحيد في الجلسة قد استمتع وأحبّ هذه الأجواء المؤنسة، ووعدت أن تقام أمسية أخرى في وقت قريب.

***

الفصل الحادي عشر

انتهى الحفل، فانشغلت الخادمات الجميلات في تنظيف المكان وترتيبه، ورافق يوسف السيدة إلى الشرفة. كانت اللوحة معلقة هناك على حائط الغرفة، ولا تزال طريّة ويانعة مثل عروق النعنع والريحان.

كان وقت الغروب قد حل. وكانت السيدة لا تزال تحت تأثير البهجة. وكانت الشمس تهبط وراء الشفق وتشعل الأفق بلون اللازورد.

سألته: كيف رأيت الاحتفال؟

ابتسم وقال: جميل، والفكرة عبقريّة، والآنسات اتسمن بالظرف والرقّة، والحكاية حلوة وممتعة.

قالت: كانت أسرار مدهشة، فاجأتنا بهذه الحكاية، وقدمت لنا شخصية المهندس الشامي، هذا الثعلب الماكر والجميل الذي يسكنه جنيّ.

احتار بم يجيب، فأطلق الكلام على سجيّته: هل برأيكِ أخطأ أم أصاب؟

ضحكت. وفي تلك اللحظة، دخلت عليهما أسرار. ضحكت وقالت: نوجّه السؤال إلى العزيزة أسرار.

وأعادت السؤال على مسمع وصيفتها: هل برأيك أخطأ المهندس الذي تسكنه النار أم أصاب في هذا العشق الجنوني؟

جلست على أقرب مقعد إليها، لم تعد هناك ضرورة لتتصرف كوصيفة، ففكّرت قليلاً، وقلّبت أمرها. ثمّ أجابت: الحكاية ظاهرها حدوتة وقصة ومتعة، لكن باطنها عظة، وربما عبرة. تتعدد الانطباعات، كل من يسمعها يعطيها المعنى الذي يروق له، لكني اليوم قصدت أن أروي حكاية رشيقة للمتعة، وللمتعة فقط.

تدخّلت السيدة، وقالت: الرجال ملاعين، وعشرة النساء صعبة.

كان إذ ذاك يفكّر فيما إذا كانت السيدة وأسرار، إحداهما أو كلتاهما، تعلمان بما حدث للجارية في بستان البرتقال والوشم الذي تركته شفتاه على نحرها.

انتبه إلى قول السيّدة إنّ الرجال ملاعين وعشرة النساء صعبة.

كان في حالة تململ، كأنّه يفقد التركيز ويحمّل نفسه فوق ما تحتمل الأشياء.

لم يعد ثمّة ما يمكن قوله. كان يخاطب نفسه فقط: جاءت لتطربني فأشجتني.

استأذن للمغادرة، غير أنها طلبت منه البقاء.

– ما زال الوقت مبكّرًا. دعنا نتحدث.

– لا أريد أن أكون ضيفاً ثقيلاً، وقد انتهى الاحتفال.

– الحديث معك يريحني.

– لكنّ نساءك يُجدْن الغمز واللمز.

– ليس عندي ما أخشاه.

– لكنّ أسرار تخشى عليك.

– أسرار تخشى عليك أنت.

– كيف؟

– أتتذكر عندما كنّا في النزهة في عيد الربيع عندما جاءت وهمست في أذني؟

– أتذكّر.

– ويومها، اعتقدت أنّ الأمر يتعلق بوجودك معي.

– ....

– يومها، همست ونبهتني إلى أنّ بعض جنود الإنكشارية موجودون في المكان.

– ....

– ألم أقل لك إنني تعرضت لعملية خطف من قبل الإنكشاريين عندما كنت في الأستانة؟

– بلى.

– وأسرار تعتقد أنهم ما زالوا يلاحقونني. وإنّهم شاهدوك معي، وقد تتعرض أنت أيضًا للملاحقة.

صمتت، وقالت: ألم يأتوا إلى البازار ويفتشوه؟

فوجئ، وتاهت نظراته وهو يستعيد أحداث ذلك اليوم. لقد أخفى عنها الخبر، فكيف وصلها النبأ؟

– ديوان الوالي علم بالأمر.

وأضافت: حتى الوالي لا سلطة له عليهم.

صمتت، وتركته إلى تداعياته. وبعد حين قالت: هيّا نتمشى في الحديقة، فلديّ الكثير مما أودّ أن أقوله.

***

الحديقة واسعة، والفوانيس المضاءة تحيط بها من كل جانب، ومن بعيد، يأتي صرير صراصير الليل، وأسرار تحرس المكان بعينيها عن بعد.

قالت وهما يسيران بالممر: أشمّ فيك رائحة الإنسان.

وقالت: كل شيء موحش، حياتي كلّها في العتمة، وأنت من أضاءها.

وقالت: أنت أول رجل في حياتي أتواصل معه باختياري.

وقالت: الأقدار فرضت عليّ حياة بائسة في زنزانة اسمها قصر السلطانة نخشديل، زنزانة يتوفر فيها الطعام والملبس والرفاهية، ولا تتوفر فيها الحريّة، زنزانة فيها من الذكور خصيان بؤساء، وفحول يصطادون الجواري، وغيرهم لا أحد.

وقالت: زنزانة تتعارك فيها المسجونات من السبايا من أجل الظفر برضى السجّان.

وقالت: لا مفرّ للسبايا من الطاعة، والاستجابة للنزوات والرغبات والذهاب إلى الفراش، ومن تخطئ أو تعترض أو تكون ضحية نميمة، فمصيرها الموت وإلقاء جثتها في مياه البسفور.

وقالت: عشت مع الجواري المجلوبات من أسواق الرقيق، أولئك اللواتي انتزعن مثلي من أحضان أمهاتهن وهنّ صغيرات، وصرن منذورات للخدمة والمضاجعة وقضاء الشهوة. عشت معهنّ في القصور تحت وطأة الخوف والرعب. وظلّت الأقدار وحدها تقرر مصيري ومصيرهن.

وقالت: كل منهنّ تحلم بالحبل من سلطان شبق يحكم دولة مترامية الأطراف، يغرق بالملذات ولا يعير انتباهًا لرعيته.

وقالت: ومن تصبح سلطانة، تتلذذ بنفوذ يمكنها من إدارة دفّة الحكم من وراء الستار.

وقالت: ومع ذلك، فالظالمة والمظلومة هما ضحايا توحّش الأقدار.

* * *

وقالت: السلطانة نخشديل مثلنا سبيّة؛ كانت تعيش في مستعمرة فرنسية تقع في البحر الكاريبي، خطفها القراصنة وباعوها لداي الجزائر، داي الجزائر أهداها لقصر السلطان. كانت عيناها الزرقاوان مصدر سحرها. كانت ذكية وشديدة الجمال. صرت قريبة منها عندما حبلت وأنجبت من السلطان ولدًا وأصبحت سلطانة. كانت امرأة بالغة عندما اختطفها القراصنة، وكانت تتقن عدة لغات، وتحب فرنسا، وتحب الحضارة الأوروبية.

عندما صارت سلطانة قصر (دولمه باهتشه)، أدخلت النظم الفرنسية إلى القصر، ودفعت نحو بناء جيش قوي يكون بديلاً للجيش الإنكشاري. وكانت دائمًا تحدثني عن نبوءة العراف؛ فعندما كانت صبيّة في المارتنيك، وكان اسمها (إيمي دي ريفيري)، وهي من عائلة نبيلة، كانت تتردد هي وابنة عمها (روز) إلى أحد العرافين الذي يقرأ الكف، فتنبأ لها وقال إنها ستصبح ملكة تحكم الشرق، وتنبأ لابنة عمها بأنها ستصبح أيضًا ملكة تحكم الغرب.

تحققت النبوءة وصارت سلطانة الشرق، واستطاعت أن تدخل السلوك الفرنسي على حياة القصور، ووطّدت حكمها وواجهت سلطة الإنكشاريين الذين لم يرق لهم نقل نظم الغرب إلى الشرق. المعركة محتدمة بين السلطان وبينهم هذه الأيام، وهم يستعينون الآن بالمتشددين من رجال الدين لرفض النظم الجديدة. يقولون على سبيل المثال إن الزي المقترح للجيش الجديد هو زي أجنبي، وهو لباس النصارى، ويدفعون مفتي الدولة العليّة إلى إصدار الفتاوى بتكفير

السلطان عبد الحميد، ويصبون جام غضبهم على السلطانة، ويحيكون المؤمرات ضدها. وعليّ أن أكون حذرة من دسائسهم، لأنهم يعتبرونني من صف السلطانة، وعليك أن تأخذ حذرك، لأنّهم يعتبرونك.. يعتبرونك..

لم تكمل جملتها، ونظرت إليه بعينين دامعتين، وقالت: أشمّ فيك رائحة الإنسان.

***

تعبت من المشي، فجلست على العشب، وأشارت له أن يجلس. كان يستمع إليها بهدوء وتأثّر، فهذه المرأة التي أحسّت به، وشمّت فيه رائحة الإنسان مكلومة، وتبسط أوجاعها أمامه. لم يعد يفكّر إلا بقلقها الذي يلازمها كمرض مزمن.

قالت: أحببت روحك ولم أطمع بأكثر من ذلك. هذا القصر ليس لي، هذه الحياة لا أحبّها، هذا البذخ في اللبس والطعام واللباس والجواهر لا يروقني. أحسد النساء العاديّات اللواتي لهنّ عائلة. أحسد النساء اللواتي ترفّ قلوبهن لحبيب يحنو عليهنّ ويعكف على رعايتهنّ. أحسد العائلات التي تسكن بيوتًا بسيطة ويطلبن الرضى. أحسد فلاحات القرى في الضواحي اللواتي يحصدن القمح والشعير، ويجمعن الخضار والفاكهة، ويبعن الغلال في الأسواق، ويمتلكن حريتهنّ، ويحددن مصائرهن.

أكره بلاط القصور، ودهاليز الحرملك، وطموحات السلطانة التي يمكن أن تخسر كل شيء في طريقها إلى الحكم، في طريقها لتحقيق النبوءة والوصول إلى أن تكون ملكة للشرق. ولعلّها بعد اندلاع الثورة الفرنسية التي أنهت الملكية، وأنهت سلطة الكنيسة، ونشرت فكر التنوير وحقوق الإنسان وأنشأت النظام الجمهوري؛ لعلّها تحلم بإصلاحات مماثلة في الدولة العليّة، بل ولعلها تحلم باندماج الشرق بالغرب.

الثورة الفرنسية تقود حربًا للدفاع عن مبادئها، هكذا تقول السلطانة نخشديل، وقد اندلع الصدام العسكري بينها وبين الدول الأخرى عندما حاولت تصدير مبادئ الثورة إلى جيرانها، والثورة أحدثت فوضى وأطاحت المقاصل بالرؤوس وسالت الدماء، وفي الوقت نفسه، خاضت، وما زالت تخوض، حروبًا مع الدول الأوروبية الداعمة للنظام الملكي، وتحقق انتصارات باهرة بحكم نظامها وتسليحها ووجود قائد عسكري عبقري اسمه (نابليون بونابرت).

وهنا، فإنّ السلطانة نخشديل ماضية في حربها مع الدولة العثمانية القديمة، وتطمح أن تخلق نظام دولة جديدًا يستوحي أساليب الغرب وثقافته، وهذا الطموح قد يكون له ثمن، وأقول لك: إذا قتلت السلطانة، سيكون مستقبلي في مهب الريح.

***

طال الحديث وكانت هي المتحدثة. حديث فاجأه، وأدهشه.

كانت معبّأة، كان شقاء روحها مكبوتًا. كانت تنتظر من يستمع إليها، واندفاعتها في الفضفضة يمكن أن تكون قد أراحتها. ولعل الظرف بالنسبة له أصبح مناسبًا ليطرح أسئلة أو يقول كلمة، وبدا لها أنّه حان الوقت لتستمع إليه.

– لم أكن أظن أن الحياة غير عادلة إلى هذا الحد.

وقال: حديثك هزّ مشاعري.

وقال: لم أكن أعتقد أن كل هذا الجمال يختزن كل هذا الشقاء.

وقال: لكني أراهن على قوّة الحياة في روحك.

وقال: لن أخذلك.

وقال: أنا لا أشعر بالانتماء لهذه الدولة التي تسمي نفسها الدولة العلية التي حكمت العرب والعجم والصرب والبلغار والملل والنحل، وحكّامها يستعبدون الجواري والسبايا ويخصون الرجال، يقتلون في الرجل رجولته، وفي الأنثى أنوثتها، ويفرضون علينا الضرائب والحكّام والبشاوات، ولا يستطيعون حمايتنا وحماية أرواحنا وبيوتنا وأسوار مدينتنا إذا ما غزانا غاز.

وصمت، وقال إنّه لا يريد أن يتحدث عن ضعف الدولة وهزائمها في القرم والصرب والأفلاق، وهزائم جيوشها الإنكشارية، وهزائم أساطيلها في البحار، لكنّه، وقد ذكر الأساطيل، بودّه أن

يسألها عن شخصية جركس باشا قائـد الأسـطول في بحـر إيجـة، والصلات التي تربطها به.

كانت تبدو لحظتها بشكل أفضل. كانت قد ارتاحت لمجرد أنّه استمع إليها، ورأت على ملامح وجهه ردود فعله وتعاطفه.

قالت: كنت أتوقّع منك هذا السؤال. أعـرف أنّ النّـاس في المدينة يعتقدون أنّي محظيّته، وأنّه عشيقي. ولم أعترض؛ فقد شـكّل ذلك حماية لي. وأقول لك الحقيقة، إن السلطانة نخشديل هـي الـتي أطلقت هذه الشائعة، لأنّ لجركس باشـا هيبـة يحسـب حسـابها الإنكشاريون، هي التي اشترت لي هذا القصر الصغير، وهـي الـتي أوصت الوالي أن يشملني بحمايته، وهي التي طلبت من جركس باشا أن ينقلني بواحدة من سفنه إلى يافا، جركس باشا فكرة، طيف، رمز للقوة والشكيمة، وقد التقيته وعاملني بلطف واحترام، وأنا أحببتـه وأعتبره أبي الروحي. يسأل عني ويرسل لي الهدايا، وأنا من طلب منه أن يهديني اللوحة التي تمثّل صورته. هذه الحقيقة لا يعرفها أحد سوى أسرار، وارتباط اسمي باسمه شكّل لي، كما قلت، حماية.

كانت تتكلم ببساطة وهدوء. واسترسلت في حديثها. وعندما بدأ البحر يرسل نسائم باردة، اقترح عليها أن تذهب إلى الـداخل، وقال إنّه سيعود إلى البيت بعد ليلة ذات مغزى.

***

الفصل الثاني عشر

أفاق عند الفجر على جلبة وضوضاء، طرق شديد على الباب الخارجي، ففتح والده البوابة، وكانت ثمّة أصوات هوجاء تتشابك وتعلو. قفز وتدثر بالعباءة، وسارع بالخروج.

كان مجموعة من الشبّان يقفون ويتحدثون ويشيرون بأياديهم كما لو أنهم في حالة فزع. عرف وجوه بعضهم، ما يعني أنّهم من الحارة التحتا حيث البازار.

كانوا يقفون ويتحدثون ويتشابك الكلام فلا يفهم والده قصدهم، عندما رأوه تحوّلوا إليه. كان بعضهم يحمل العصي، والدم يحتقن في وجوههم. أشار لهم ليهدأوا، فلم يهدأوا. واستطاع أن يلتقط شيئًا مما يريدون أن يخبروه به: (الجندرمة يهاجمون الحارة ويضربون الناس ويحرقون البيوت).

والتقط أيضًا ما يشي بأنّهم أشعلوا النار في البازار، وأنّ الأهالي يحاولون إطفاء النار، والشبان يرجمون الجندرمة بالحجارة.

في لمح البصر، لبس ثيابه؛ القميص والسروال والطاقية المشغولة بالصنّارة. وحمل عصاه المدببة الرأس وخرج وسط دهشة أبيه، وصوت أمّه التي كانت ترجوه البقاء.

مشى ومشى معه الشبّان من بين الأزقّة والحارات. كان الناس يتجمّعون أمام الأبواب، والبعض يعتلي السطوح ويلقي نظرة نحو حي الطابية.

كان الهواء القادم من جهة البحر يحمل معه رائحة دخان، والأفق يمتلئ بكتل سوداء.

يغذّ السير ويتوقف عند كل ناصية يتجمع عندها الناس.

يتوقف ويلتقط أخبارًا وتعليقاتٍ واستنكارًا واستهجانًا، ثم يواصل طريقه. يغذ السير أو يهرول، ومعه يهرول الشبّان من الحارة التحتا، وأصحاب المحلات يغلقون أبواب حوانيتهم نصف إغلاقة تحسبًا لتفاقم الوضع.

صباح يافا اتّسخ هذا اليوم. لوّثت الحرائق صفاء المدينة؛ فعلى امتداد الشاطئ، حرقت حوانيت ومحلات، والجندرمة من الإنكشارية يملأون المناطق، حملة دهم لحوانيت اليونانيين، والبازارات، والخانات، ومحلات بيع الملابس، وبعض البيوت من الجاليات الأجنبية.

هذا ما التقطه يوسف من أحاديث الناس وهو يتوقف قليلاً ثمّ يندفع نحو البازار.

على مدخل الحارة، كان اثنان من رجال الجندرمة قد سيطرا على الوضع وأغلقا الطريق. لا أحد يدخل ولا أحد يخرج، كان أحدهما يتسلّح بطبنجة، والآخر بسلاح أبيض، وكانا يلبسان ملابس عسكرية غير تلك التي يلبسها رجال الحامية في القلعة.

كان الدخان يملأ الأفق، وبدا له أنّ كل شيء قد احترق في البازار، ولم يبق غير بقايا دخان. تفرّق الشبان واعتلوا الأسطح بحثًا عن منفذ إلى بيوتهم.

* * *

اقترب يوسف من الجنديين. أشارا له بالتوقف.

قال لهما: أريد أن أصل إلى حانوتي، حانوتي يحترق.

أجابه أحدهم: هل تبيع الخمور؟

قال: لا.

– هل تبيع لحم الخنزير؟

– لا.

– ماذا تبيع إذًا؟

– عندي بازار ومرسم للصور.

– هل تبيع صور نساء لا يلبسن الحجاب؟

– لا.

– إذًا أنت ترسم كل ما له روح من بشر وحيوانات!

– ....

– اذهب من هنا قبل أن نطلق عليك النار.

غلى الدم في عروقه، توتّر، سخن. تحولت العصا بيده إلى سفّود، إلى مارج من زيت ونار، شرارة أشعلت غضبه، وجعلت الدماء تسري حارّة في عروقه، شرارة أشعلت الجسد كلّه. هجم على أحدهما وأطاح به، وضربه بالعصا وأفقده صوابه.

والتفت إلى الجندي الآخر الذي صعقه الرعب قبل أن تصعقه يدا يوسف، وقبل أن يحمله ويلقي به بعيدًا فيرتفع ويحط في مكان ما من الساحة. نظر الشبّان لما جرى بذهول، واتخذوا مكانًا على السطح يرون فيه كل شيء ولا يراهم أحد.

واصل طريقه نحو الساحة. كان ثلّة من الجند يقفون مذهولين بعد أن شاهدوا الجندي الذي سقط من علٍ أمام أعينهم.

أشهروا عليه سيوفهم. اقترب فتوهّج جمر ولفح وجوههم، وامتدّ إلى مقابض سيوفهم، فألقوا السيوف، وأخذوا يتراجعون ويتراجعون ثمّ ابتعدوا.

هبط الشبّان من أسطح المنازل، وكان الجندي الذي سقط من وراء البيوت يتوجّع ويحاول الوقوف، فأجهزوا عليه.

دخل يوسف إلى البازار الذي احترق من الداخل واحترق بابه ونوافذه، وخرج منها الدخان الأسود.

مكث قليلاً، ثم خرج وقد تلطّخت ملابسه ووجهه بالسواد.

كان الجنود قد أعادوا ترتيب صفوفهم، وشكّلوا مجموعة كبيرة منهم مسلّحة بالبنادق والسلاح الأبيض، وهجمت لتلقي القبض عليه أو ترديه قتيلاً.

أقبلوا عليه يتقدمون بخطىً عسكرية رويدًا رويدًا.

• • •

جمّع نفسه وانتتر. طار في الهواء وسقط فوق رؤوسهم، وتحولت أذرعه إلى سيوف، وأرجله إلى خناجر. وأعمل فيهم؛ أوسعهم ضربًا حتى طحنهم كما يطحن حجر الرحى حبات القمح، ومن ابتعد ولّى هاربًا، ونجا تاركًا طبنجته وسلاحه الأبيض.

هلّل الشبّان وكبّروا. وانضم إليهم كل أولئك الرجال الذين كانوا يختبئون في بيوتهم. وفي برهة من الزمن، أصبح هناك حشد من حملة العصي والسكاكين وحجارة الطوب يمشون خلفه.

مشى بخطى ثابتة، توجّه نحو جامع البحر. كانت الحرائق التي اندلعت ثمّ خمدت ترسل دخانًا يعلو ويسد الأفق.

مشى وراءه الشبّان ورجال ونساء، وبغمضة عين، أصبح المشاة طابورًا يحمل العصي والسكاكين وشوابك رق العجين والفؤوس. بطرفة عين، خلت الحارة وخلا الشاطئ من الجنود.

ظلّ يمشي في المقدمة بثيابه المتسخة والملوّثة بسناج الحيطان، ووجهه الملطخ بسواد الدخان. هكذا، بغمضة عين، انسحب الجنود من المكان، فالمدينة كلها تنهض والمآذن تكبّر. حشود تتجمع على الشاطئ، وحشود تتجمع في ساحة الطابية، والقلعة، والجبلية، وحشود تلتقي بحشود، وبيوت الشاطئ ملطّخة بسناج الحرائق، ويوسف يسير وقد بدأت الجمرات في داخله تخبو.

يتجمّع حوله الشبان ويحملونه على أكتافهم وهو لا يدرك ولا يفهم ما يدور حوله. كل الناس الذين يتجمعون يسبون الغرباء

ويهتفون ضدهم، وضد مفتي الإنكشارية. وبعضهم يسب ويلعن الوالي والذي ولاه.

يتنادى الشبان في ثورة الغضب للزحف نحو قصر الوالي عبد الله بيك.

***

نزل من على الأكتاف، وكان يشعر بالدّوار. نزل ومشى نحو البحر. ابتعد عن الحشد الذي أخذ يندفع باتجاه قصر الوالي، ومشى إلى الشاطئ البعيد، واقترب من المياه.

قرفص وملأ حفنتيه بالماء، وصفع وجهه، لعلّ هذا الدوار اللعين يتوقف، ثمّ استلقى على الرمل. خارت قواه فنام.

***

عندما فتحهما، أبصر وجهها. كانت تنتظر صحوته.

أبصر وجهها الخلاسي، وجهها الأسمر الحنون، فمدت له يدها لتنتشله من أرق، أو وجع، أو غيبوبة.

أمسك يدها واعتدل وظلّ جالسًا.

قالت أسرار: طاب يومك أيها البطل.

كان ضوء النهار الساطع يفاجئه، يغمض عينيه نصف إغماضة، ويسألها عن الوقت. تقول له إن النهار قد انتصف، وإن أخبار انتصاراته على الإنكشارية يتناقلها الناس في الشوارع والبيوت.

وقالت: أخبارك وصلتنا والسيدة قلقة عليك.

وغير بعيد، كانت العربة تنتظر.

قال: أنا متعب وأشعر بالدوار. أريد أن أذهب إلى بيتي. قالت بحزم: هيّا.

وقف، أسندته، مشى معها. كان متعبًا ومطيعًا. وكانت العربة تنتظر والحوذي متأهبًا.

ساعدته في الصعود، وركبت إلى جانبه.

تحركت العربة. سارت على مهل، ثمّ تجاوزت منطقة الرمال، وأخذ حصانها يعدو. توقفت العربة أمام قصر السيدة.

لم يعترض، ولم يكن يقوى على الاعتراض.

هبط ومشى معها. كانت تقوده وتسنده، وبدا لها أنّه يترنّح، وأنّه بذل من الجهد ما أفقده كل طاقته.

***

أدخلته إلى غرفتها وتركته يستلقي على السرير ويغمض عينيه.

سأل عن السيدة، فقالت له إنها ذهبت إلى قصر الوالي لتستطلع الأخبار.

نام بملابسه الملطخة بالسناج والشحبار، واستغرق في النوم. غطّته أسرار باللحاف، وخرجت وأغلقت الباب.

أفاق بعد ساعة من الزمن. أفاق عفيًا نشطًا. ذهب الصداع، وطلب الماء. كانت أسرار الخلاسية الجميلة تحرسه. شرب وابتلّت العروق.

نظر إلى يديه وذراعيه وملابسه، ووجد أنّه متسخ من رأسه إلى قدميه. ورأى أنّ ملاءة السرير البيضاء قد اتّسخت أيضًا، فقالت أسرار: لا بأس عليك. الحمّام جاهز.

أجابها: لا. سأعود للبيت.

قالت له: حامية القلعة تسد الشوارع والطرقات.

طرقت السيدة الباب ودخلت. كانت قد عادت لتوّها. دخلت بوجه محتقن، وقالت: حمدًا لله على السلامة.

انكمش، ونظر من جديد إلى ما تركه السناج على ملاءة السرير، وحاول أن يقول شيئًا. لكنّها أدركت ما يجول بخاطره، فقالت: كل الناس يتحدثون عنك.

أضافت أسرار: يقولون إنّك واجهت جنود الإنكشارية وهزمتهم.

صمت، وكان يحاول أن يستذكر ما جرى. لكّنه لم يتذكّر تلك التفاصيل. لم يكن هو الذي فعل ذلك، كان قرين آخر يتلبّسه له ذراع من حديد، وشواظ من نار، خرج من زرد أضلاعه، وفعل ما فعل.

قالت السيدة: قم واغتسل.

كان بحاجة إلى أن يستعيد شخصيته الآدمية، بحاجة إلى أن يلفظ القرين من أعماقه، وأن يعود إلى الهدوء والسكينة.

قادته أسرار إلى الحمام وأغلقت عليه الباب؛ ماء ساخن، وصابون معطّر، وليفة من الإسفنج، وبرنس حمّام، ومناشف بيضاء.

خلع ملابسه المتسخة، ونزل إلى حوض الماء الساخن. شعر بالراحة. استحمّ على مهل؛ دعك رأسه بالصابون، ودعك جلده، وأزال آثار السناج والشحبار وسواد بقايا الدخان.

خرج من الحوض نظيفًا، ودبّت في بدنه الحيوية والنشاط.

نشّف جسمه بالمناشف ذات الرائحة العطرة، وتذكّر في تلك اللحظة أن ملابسه التي خلعها متسخة. أسقط في يده، وفكّر فيما يتعيّن عليه أن يفعل.

لبس البرنس ليستر جسده، ومشى خطوات بقدميه العاريتين.

فجأة، طرق الباب وفتح مواربة، وامتدت يدها السمراء وناولته ملابس داخلية، وعباءة من قماش الكشمير.

• • •

خرج متوهّج الوجه، وأضفت عليه العباءة مهابة.

وجد أمامه مائدة، فأكل. كان جائعًا فأكل بلا حرج. وكان في تلك اللحظة يفكّر أيضًا فيما يحدث في المدينة.

كانت تصله رائحة بخور فاخر، لكن رائحة الدخان لا تزال تملأ رئتيه. وكانت أسرار تعتني به، وتقوم بخدمته.

بعد ذلك، استقبلته السيدة في الغرفة المطلة على الشرفة. وكانت اللوحة معلقة على الحائط.

استقبلته بترحاب، لكنها كانت تبدو كما لو أنّها تقف في مساحة من اليأس.

قالت له: من أين جاءتك هذه القوّة وتلك الشجاعة؟

وقالت إن النساء في قصر الوالي يطلقن عليك اسم (هرقل).

سألها: ما الذي يجري في المدينة؟

عادت تسأله بإلحاح: كيف استطعت دحرهم وتأليب الأهالي عليهم؟

أجابها: لم أقاتلهم أنا، وإنما قاتلهم جنّي يتزمل في ثيابي، يعيش معي، ينام ويستيقظ عندما تثيرني الشهوة، أو يزلزلني الغضب.

– لكنّ الناس شاهدوك وأنت تصرعهم الواحد تلو الآخر. لا تتخيّل كم أنا قلقة عليك.

– عندما شاهدت آثار الحرق والدمار في البازار، استيقظ القرين الذي يلازمني. لم يستيقظ، وإنما انفجر.

صمت وصمتت. وعاد يسألها: ما الذي يجري في المدينة؟

قالت له إنها عادت لتوّها من قصر الوالي، وإنها علمت أنّ هذه الفتنة من صنع الإنكشاريين، وهذا العمل يهدف إلى منع الإصلاحات التي يجريها السلطان سليم الثالث، وإنّ الوالي يتشاور مع الوجهاء وممثلي الأئمة والمشايخ والكنائس من أجل وأد الفتنة، ووضع حد لعسكر الإنكشارية الغرباء الذين جاءوا من خارج المدينة. إنهم يثورون على السلطان سليم الذي سئم مما يفعلونه من فتن، وعلى قائد الجيش القبودان كوشك حسين باشا الذي وضع نظامًا عصريًّا للجيش على النظم الأوروبية، ويتحالفون مع فقهاء متشددين يصدرون فتاوى تحرم الزي العسكري الجديد كونه مستوردًا من الغرب، ويحرمون كل شيء، ويكفّرون كل ما يخالف الشريعة كما يرونها.

وقالت له إنّ الوالي لا سلطة له عليهم، وأثنى على هزيمتك لهم، وأنه لولا عملك البطولي، لما انسحبوا من المدينة، ووصفك بالبطل، ولعلّه يبحث عنك لمكافأتك.

قال لها: لست بطلاً. البطل هو القرين الذي يتلبّسني.

ضحكت رغم الأسى الذي يسكن ملامحها، وقالت: لا تتواضع. المهم أنّ قبضتك هي التي سحقتهم.

* * *

وأضافت: حذارِ أن تعيد هذا الكلام أمام غيري.

ثم اقتربت منه وقبّلت خدّه، وهمست بأذنه: فخورة بك.

دخلت أسرار إذ ذاك تحمل بين يديها ملابس فاخرة.

قالت السيدة: والآن، حان الوقت الذي يتعيّن فيه أن ترتدي الثياب التي جلبتها لك من عكا، والتي بقيت وديعة عندي.

وأضافت: وحان الوقت الذي يجب أن تعود فيه إلى بيتك لتطمئن بهنانة وأحمد آغا.

***

الفصل الثالث عشر

ليلة أشد حلكةً من الليالي التي سبقت. جلّل يافا السواد؛ فلا أضواء في الشوارع ولا في البيوت. لا هبوب ريح، ولا دبيب بشر، ولا طمأنينة. سكون مريب، ولا شيء سوى الانتظار، وتوقع ما هو أسوأ.

عاد يوسف متسللاً إلى البيت. لم يلبس الحلّة الأميرية، هديّة السيدة، وإنما لبس ملابسه التي كانت متّسخة وقامت أسرار بتنظيفها.

كانت الأزقة التي تسلل منها خالية، لا صوت إلا حفيف أوراق الشجر، ولا أثر لطارش أو مقيم، لا نافذة ينفذ منها الضوء، ولا وجود في الطرقات لرجال الحامية. مشى يوسف وغذ السير، غذ السير همّة كما لو أنّ لقدميه عيونًا، فهو يحفظ الطرق عن ظهر قلب، ويعرف كيف يسلك الجَدَد ليأمن العثار.

كان الناس يتحسبون. يخشون المجهول وصخرة الأقدار؛ فالليل هو وقت الحرق والسلب والنهب واقتحام البيوت واغتصاب النساء. الظلام تقية، والعتمة مخبأ.

طرق الباب طرقات خفيفة، الليل له آذان مرهفة السمع. سمع وقع خطوات أبيه، وظهر بصيص الضوء من الفانوس الذي يحمله.

من وراء الباب، جاء صوته المتحشرج: من أنت؟

أجابه، فانزلق المزلاج وانفتح الباب، وما إن رآه حتى احتضنه وبكى، وأدخله وأعاد إحكام المزلاج الذي يغلق الباب.

كانت بهنانة تنتظره في العتمة. شاهد شبحها عن بعد، فأسرع إليها وحضنها، فانخرطت في البكاء.

دخل إلى الليوان حيث يجلسان، ولم يكن ثمة ما يؤنس وحدهما سوى هذا الفانوس شحيح الضوء.

جلس إلى جانبها على فروة صوف الخاروف، وظلت تضمّه وتشمّه مثلما تشم الورد، وكانت الدموع تنثال من عيني أبيه بصمت.

قامت بهنانة لتشعل الفانوس الكبير ذا الضوء الساطع، فانتهرها أحمد آغا، وقال لها إنّ الضوء يلفت النظر.

كان كغيره، يلوذ بالعتمة، يختبئ في طيّات الظلمة، يتدثّر بسوادها، وينتظر، وتملأه الهواجس والتوقعات.

قال لأمه إنّ نورها يكفي، فسألته إن كان جائعًا. وسأله أبوه إن كان قد شاهده أحد في الطريق.

قال إنه ليس جائعًا، وقال لأبيه إنّ المدينة الآن عمياء لا ترى، وإنها مكدودة ويملأ الخوف شوارعها وبيوتها وشقوق نوافذها، وحتى المنارة التي ترشد السفن مطفأة.

قال أبوه: أنت -يا بني- رجل الساعة، كل الناس تحكي عن شجاعتك، كنت أشعر بالفخر، لكنني أخاف عليك، الله يجعل العواقب سليمة.

وقالت هنانة: طوال النهار وقلبي يغلي، وما زلت خائفة عليك. احكِ لنا عمّا حدث.

قال لها: أنا تعبان يا أمي. سأقول لكما كل شيء في وقت لاحق.

قال أبوه: في العام الذي ولدت فيه يا بني، حاصرتنا الحملة المصرية بقيادة محمد أبو الدهب لمدة شهرين، ثمّ تمكن عساكرها من الدخول وارتكبوا مذابح ونشروا الرعب ونهبوا الممتلكات. الناس يتذكرون ذلك الآن ولا ينسون. يا بني، هذه المدينة لم تعد تحتمل، تعرضت لنكبات كثيرة ولم تعد تحتمل المزيد.

قالت هنانة فجأة: هناك من يطرق باب البيت.

انخلع قلب أحمد آغا. هاجمه الرعب وهاجم قلب هنانة.

أنصت الرجلان، لكن لم يسمعا صوتًا. لم يكن ثمة سوى صوت الريح.

صار الجو ثقيلاً. وقف يوسف متأهّبًا. قال والده: لا تخرج.

وقالت هنانة: لن تفتح الباب لأحد.

• • •

لكنّه خرج دون الفانوس. قطع المسافة على عجل وأزاح المزلاج، وفتح الباب. لم يكن من أحد. أطلّ على الطريق، لا أحد. وحده الريح يصفر ويزيد الجو وحشة.

أغلق الباب وعاد، كانت عيونهما متعلقة به. قال: لا أحد، ربما يا أمّي خيّل إليك، فلا تقلقي.

قامت بهنانة إلى المطبخ. حملت المصباح معها، وعادت بعد قليل تحمل طعامًا للعشاء مكونًا من الخبز والجبن والزيتون واللبن.

وضعت صينية الزاد أمامهما، وقالت: لم نأكل شيئًا هذا اليوم. كنا مهمومين لغيابك.

أكل معهما. كان طعم الزاد شهيًّا، وكان كل شيء من شغل يديها.

قال والده، بعد أن رفعت بهنانة الزاد: يا بني، المدينة مقبلة على كارثة، وأنت ستكون في خطر، ستكون مطلوبًا للإنكشارية. سينالون منك، وأنت ولدي الوحيد. ومنذ الغد، أريد منك أن تسافر إلى الأستانة لتلتحق بمدرسة الهندسة والمعمار، فلا تعصِ رغبتي.

فكّر يوسف قليلاً، ولم يجب. وقالت بهنانة: إنّ مع العسر يسرًا.

***

عندما خلا بنفسه، عندما أوى إلى فراشه لينام، داهمته الهواجس؛ ها هو ينتظر، فما الذي سيأتي به الغد؟ هل يواجه العواقب

أم يهرب ويختفي ويصبح طريدًا؟ هل يختفي من حياة العيطموس، والوصيفة الخلاسية الحنونة؟

هل يختفي من حياة بهنانة وأحمد آغا؟

هل يبتعد عن بحر يافا ومآذنها ومنارة فنارها ومبانيها القديمة وناسها وأسواقها؟

وماذا لو قبضوا عليه؟ أيكون مصيره في زنزانة، أم يعلقون برقبته مشنقة؟

ربما يستطيع أن يواجههم ويتغلب عليهم إذا استيقظ القرين وأرسل عليهم من جوفه شواظ من نار ونحاس. ولكن، ماذا لو لم يستيقظ القرين؟

أصابه الأرق، فخرج إلى الحديقة، وأطلّ على المدينة التي يغمرها الظلام. وعلى الرغم من ذلك، كان يتخيّل الطرق والمنعرجات والبواكي والقناطر والأقواس، والرقش في محاريب الجوامع، والخطوط الكوفية على قبابها، والأسواق ورائحة الصابون والحبّهان.

كان يستبدل يافا المكبّلة بالسواد والخوف والرعب الخفي، بيافا اللؤلؤة المكنونة المفعمة بعطر الحياة وألقها وضجيجها.

ظلّ يتأمل حتى بزغ الفجر، وانتشر الضياء، وبدت المدينة مبلّلة بالندى، يسكنها صمت وحذر، وتظللها سكينة وصدى صوت

الأذان، وصخب أمواج البحر، وخجخجة تكسّر الأمواج على الصخور.

صلّى مع والده صلاة الفجر، وأوى إلى فرشه، أسند رأسه على المخدّة، وتذكر ما قالته السيدة عن أنّ الوالي وحاميته العسكرية لا سلطة لهم على الإنكشارية، وطالما سمع عن أنّ السلطان سليم لم يستطع تنفيذ إصلاحاته عندما ثاروا عليه فهادنهم.

هم مركز القوة في الدولة، ويمكنهم إثارة الفتن والقلاقل، وفرض الأتاوات، والسلب، والنهب، ونشر الرعب دون أن يحاسبهم أحد.

ظلت الخواطر تدور في خلده إلى أن هدّه النعاس، فنام.

***

أفاق في وقت الضحى. فتح النافذة وأطّل منها إلى الشارع القريب. كان هناك تجمع شبابي، ومن بعيد أصوات حشود. استيقظت المدينة على ضجيج وغضب، ما زال الناس يترلون إلى الساحات والشوارع، ويبدون غضبهم على ما فعله الإنكشارية من عبث وحرق وترويع، وعن صمت الوالي وعساكره ووقوفهم على الحياد.

لبس ملابسه على عجل. دخلت هنانة تحمل له كوبًا من الحليب. قالت له إن في الليوان ضيوفًا. قالت إنهم مشايخ ووجهاء وأئمة مساجد وقساوسة.

وقالت إنّ الوالي طلب منهم العمل على تهدئة الخواطر. ووعدهم بجبر الأضرار، وأنّ الإنكشارية عادوا إلى ثكنتهم في اليازور.

دسّ قدميه في الحذاء، وقال لها: أنا ذاهب إلى الساحة.

تشبثت به، ورجته أن يبقى، وقالت إنّ الضيوف يريدون التحدث إليه.

– ليس لديّ ما أقوله لهم.

أفلت منها، وغطّى رأسه بالطاقية، ولف وجهه بالشال.

خرج دون أن يمشط شعره، أو يشذّب لحيته الخفيفة.

***

مشى في الطرق والأزقّة متخفيًا وميممًا شطر البازار. كان هناك في نهاية الحارة حشد يتجمّع أمام جامع البحر، حشد يتجمّع، يتجمّع فقط. لا هتاف ولا صخب. يتجمّعون كما لو أنهم ينتظرون إقامة صلاة جنازة. يتجمّعون كأنما يتفقّد بعضهم بعضًا.

عندما وصل البازار، فوجئ بورشة يقوم بها شباب الحارة. ينهمكون في إصلاح ما أفسده الحريق؛ صيانة، وطراشة ودهان، سقالة ومسطرين وجبلة جبس، تنظيف وتكحيل، فرشاة ومكنسة وأدوات تنظيف.

هاله ما رأى، وأقبل عليه الفتى زياد، زياد الأشقر الجميل، الحيوي وابن البلد، الشهم والشجاع الذي أغلق الطريق وغمره بالزيت يوم اقتحام عسكر الخيّالة.

أقبل عليه زياد وقال: سيعود البازار كما كان.

فرح، ولكن ليس لعودة البازار كما كان، بل فرح للفكرة والمبادرة، فرح للتضامن والتوادّ وللسلوك النبيل.

كانوا قد أزالوا قسمًا كبيرًا من السناج والسواد، وطرشوا الجدران، ودهنوا النوافذ، ونظّفوا الحجارة من الخارج.

شدّ على يدي الفتى زياد، وخلع الطاقية والشال، واقترب من الشبان الذين لُطّخت ثيابهم وأياديهم ووجوههم بآثار الدهان والجير. كانوا ستة وسابعهم زياد، كانوا صناعًا محترفين، وحالما رأوه، تركوا ما بأيديهم وجاءوا يعانقونه.

قال زياد: قمنا بحملة تنظيف وتصليح، وتوزعنا على الأماكن التي تعرضت للحريق والتلف.

وأضاف: فاعل خير تبرّع لنا بتكاليف المواد الخام، والباقي جهود شباب من مختلف الحارات في المدينة.

سلّم على الشبان، وأثنى على عملهم. ودون أن يبطئ، أخذ دوره في العمل، واختار أن يدهن ما تبقى من نوافذ، فلعلّه اشتاق إلى رؤية الألوان.

• • •

عمل معهم ساعة من الزمن، ثمّ اصطحب زياد وذهبا ليشاركا في ورشة إصلاح دكاكين اليونانيين الذين يبيعون السجق والمشروبات الروحية.

***

عند الظهيرة، جاءت عربة تحمل الطعام. قال زياد إنّ فاعل الخير غمرنا بلطفه وكرمه، وقال إن الناس يظهر معدنهم الحقيقي عند الملمّات.

أكل مع الشغيلة. تحلقوا حوله، وتزاحموا ليجلسوا قربه. وأثناء تناولهم الطعام، جرى بينه وبينهم حوار حول تشكيل لجان حماية من الشباب في كل حارة. كانت لديهم أفكار خيالية، كانوا يكبّرون حجرهم، ويتحدثون كما لو كانوا سيشكلون جيشًا. قال زياد: ما دامت السراي لا تقوى على حمايتنا، فلماذا لا نحمي أنفسنا بأذرعنا، وأنت تقودنا؟

كان ينظر إليهم بفخر واعتزاز. لكنه لم يشأ أن يشجّعهم على المغامرة. لم يشأ أن يرى هذه الزهور تقصف بالمدافع. كما أنّه يخشى من المراهنة على قوّة القرين الذي يتزمّل في ثيابه.

قال لهم: يجب أن نتحرك من أجل أن تقوم الدولة بواجبها من أجل حمايتنا من القتلة واللصوص. على قوات الحماية في السراي أن تواجههم.

استمعوا إليه. اقتنع البعض، ولم يقتنع البعض الآخر. لكـــنّهم لم يبدوا التذمّر.

ما إن حلّ المساء، حتى كان كل شيء قد تم إصلاحه ولو بالحد المعقول، كان الشغيلة قد أُنهكوا. وكانوا يتوقون للعودة إلى بيـــوتهم قبل أن تصبح العتمة حالكة.

***

الفصل الرابع عشر

ها هو البازار تحت التجديد؛ دهنت الشبابيك، وصبغت جدران بعض الغرف بألوان زاهية، وأعيد جلي بلاط الليوان، ولكن ما زال هناك عمل كثير.

الرسوم واللوحات احترقت، والأثاث احترق، وقلبه احترق. أسف لاحتراق لوحات تعني له شيئًا. أسف لاحتراق لوحة السيدة أمام الصخرة. أسف لضياع الألوان الزيتية، وأقلام الفحم، والحامل، وفراشي الرسم الثمينة، ولفائف قماش الرسم. لكن ما كان يشغله ليس هموم البازار وطلاءه وترميمه، بقدر ما كان يشغله موضوع نفيه وإبعاده، فلقد استدعى ديوان الوالي والده أحمد آغا وطلب منه أن يقنع ولده بالخروج من يافا لمدة عامين، وأسرّ له بأن الوالي أمر بإبعاده إلى الشام لتأمين سلامته بعد أن عرف أنّه مطلوب للإنكشارية. ولكي لا يبدو الأمر إبعادًا، فإنه يقدم له منحة دراسية في (مدرستي ملكي سلطاني) في دمشق لدراسة الهندسة المعمارية.

والده أحمد آغا كان يرغب في إبعاد ولده عن الأذى. ومن جهة أخرى، كان يرغب في أن يتخصص ولده بهندسة العمارة، فأمضى ليلة أمس في إقناعه مستعينًا بأمه بهنانة.

ظل طوال الليل يفكّر. قلّب أمره طويلاً: هل يتحدى ويرفض؟ الوالي سيبعده بالقوّة إذا رفض، والإنكشارية سيخطفونه ويقتلونه ذبحًا كالشاة إذا تحدّى. ربما النفي صفقة عقدها الوالي مع قائد الإنكشارية.

ديوان الوالي ضمن سلامته لفترة محدودة يرتّب فيها شؤون السفر. كان يقف، ويقف إلى جانبه الفتى زياد وبعض رفاقه، وكان عليه أن يفكّر بإعادة ترتيب الأشياء، وأن يحدد ما الذي يتعيّن عليه أن يفعل في قادم الأيام.

لا أحد يشعر بما يدور في خلده. وعلى الرغم من ذلك، لم يغضب من فكرة دراسة الهندسة. ولم يفرح للعيش في دمشق الشام الشريف. هذه يافا التي يحبّها تهدأ على مضض. يعود الناس إلى حياتهم الطبيعية بحذر. لكن الخوف يظلّ دفينًا؛ فالكل يتحسب ويقلق من عودة الإنكشارية في وقت ما لا يتوقعه أحد.

الحياة الآن نصف ابتسامة، نصف تفاؤل، نصف فرح. لكنّ الحياة، على الرغم من ذلك، تمضي، والشمس تشرق وتغيب.

كان الفتى زياد يعبّر عن سروره بطريقة لافتة؛ فقد اقتنص الفرصة وقال ليوسف لحظة المغادرة: أريد أن أتعلّم الرسم، هل تقبلني تلميذًا؟

ابتسم يوسف، وداعب شعره الأشقر، وقال: يسعدني ذلك.

***

غادر المرسم، ومشى على رمال الشاطئ في طريقه إلى قصر السيدة. كان البحر هادئًا، والموج يلهو مع الرمل في مد وجزر، والوقت عصرًا.

كان جنود الحماية يعتلون الأبراج التي تنتصب على أسوارها المدافع، وأصحاب الحوانيت يحاولون إصلاح حوانيتهم التي أفسدها الحريق، والصبيان الذين يعملون في المدابغ يذهبون إلى ورديّاقم في المعامل وهم يحملون زوّاداقم ويلوّحون له بأذرعهم. كما كان باعة الفخّار ينشرون بضاعتهم غير بعيد عن الشاطئ ويبدون له البشاشة. بينما الصيّادون الذين يصلحون شباكهم يرفعون أصواقم بالثناء عليه. حتى أولئك الذين أقلعت مراكبهم للتو، كانوا يرفعون أياديهم بتلويحات محبة، بينما تدور حولهم وتتنزّه طيور النورس. ومن بعيد، يقبل الحمّالون من بيوت التنك التي تجاور ثكنات الجنود من حامية يافا، ويسلّمون عليه بحرارة.

إنّها المشاعر ذاقا التي كانوا يغمرونه بها منذ أن كان فتى نشيطًا ومبادرًا يشاطرهم حب البحر أيام كان يقفز من أعلى برج على السور، ويفتح ذراعيه ثمّ يلقي بنفسه من علٍ إلى الأمواج الصاخبة، وكانوا ينبهرون بشجاعته. كانت أيامًا جميلة لا تنسى. كان الصيادون وشباكهم، والعمّال الساعون إلى الرزق، والخواجات أصحاب المحلات التي تبيع السجق والخمور، وجنود الحامية فوق الأسوار؛ جميعهم كانوا جمهوره الذي يحبّه ويبادله الحب. وفضلاً عن ذلك، كانت نساء الحرملك ينتظرن مروره قادمًا إلى البحر أو عائدًا منه، يلقين عليه نظرة بل نظرات من الشرفات وهو عائد بقميصه الملوّن والمزركش ذي الصناعة الهندية، والسروال الفضفاض من الصناعة الدمشقية. أيّام يتذكرها، فقد كان فتى المدينة التي تستحق العشق.

ها هي الحياة تدبّ في أطرافها بحذر. وها هو ينظر قليلاً إلى الخلف كأنّه يودعها.

كان عليه أن يصل إلى قصر السيدة في الموعد المحدد، فقد صار واحدًا من عائلة يحبّها، تؤنسه ويؤنسها، فهذه الأمسية تشهد جلسة حكايا يستبطنها الحب، حكايا تهرب البنات فيها من ذكريات وباء الخطف، ورقّ الحرملك.

***

في الحديقة ذاتها، بين الأشجار والورود والعشب الأخضر يجلسن، تحت مظلّة تمنح للمكان جمالاً؛ البسط، والوسائد، والحلوى، وأواني الشراب.

البنات يجلسن حول السيدة، انتخبنها لتكون الملكة والمتحدّثة هذا المساء. كل شيء جاهز بانتظار وصوله.

طرح السلام ووجد متسعًا بجانب السيدة فجلس.

رحبت به السيدة باسمها وباسمهن. كانت كلماتها رقيقة وخفيفة ظل، وكرّرت ما سبق أن قالته في الجلسة السابقة وهي تخاطبه: منذ أن انضممتَ لمجلسنا هذا، صارت نساء هذا البيت (لم تقل هذا القصر) يتأنقن في ملابسهن ومظهرهنّ وما يضعنه على خدودهن من مساحيق، وفي عيونهن من كحل، ليبرزن أعلى تجلّيات الأنوثة، وهذا شيء يسعد القلب.

كان الطقس لطيفًا، وكان للجلسة حُسن وبهاء، وللصبايا رونق الشباب وطراوته، ولجو الجلسة بريق وإشراق.

دارت إحداهن بكؤوس الشراب، وقامت السيدة بتعريفه عليهن. كان يعرف من بينهم بالاسم والشكل أسرار، وأحلام ملكة الجلسة السابقة، وعرف أسماء البقية: أنوار، وعائشة، وجلّنار، وسعيدة، وثريّا.

في الجلسة يتساوى الجميع، لا سيّد ومسود، لا صاحبة عزّة وخادمة، لا أميرة ووصيفة. هنّ نساء يحملن الهموم نفسها، ويعشن العزلة نفسها. يلقين الهموم خلف ظهورهنّ، ويجدن في هذه الأمسية لحظة سمر ومرح ومتعة.

كانت السيدة هي الملكة والمتحدّثة، وقبل أن تتحدث، أخذ يوسف الكلام، وعبّر عن سعادته لوجوده بينهن، ووعد، وفي القلب غصّة، أن يقصّ عليهنّ قصة ذات يوم.

عندما راق الجو تمامًا، وحان وقت الإصغاء باهتمام وانتباه، تكلمت السيدة فقالت: كان يا ما كان، في زمن من الأزمان، ليس بعيدًا على كل حال، فتاتان صديقتان وبنتا عمومة، تعيشان في جزيرة من جزر الأحلام، واحدة اسمها (إيمي)، والأخرى اسمها (ماري روز). كانتا من عائلتين ثريتين، وتدرسان في مدارس لإرساليات مسيحية فرنسية. وكانت لكل منهما أحلام بعضها يتجاوز حدود الخيال.

الأولى إيمي بنت عز، والدها من كبار ملاك الأراضي، وقارئ يحب قراءة كتب التاريخ والروايات الرومانسية، وكان له إلمام بالسياسة، وقد حبّبها بعادة القراءة، كما كان يشجّعها لقراءة كتب التاريخ، ويقول لها: حتى نفهم الحاضر، علينا أن نلقي نظرة على الماضي. وبالإضافة لثقافتها، كانت جميلة، بل فائقة الجمال، تملك عينين زرقاوين وبشرة صافية وشعرًا أشقر طويلاً ينسدل حتى أسفل ظهرها. كانت جميلة جميلات تلك الجزيرة، واسمها جزيرة (المارتنيك)، وهي مستعمرة فرنسية قليلة السكان.

الثانية هي ابنة عمّها ماري روز، بنت عز أيضًا، والدها يحتكر زراعة قصب السكّر، وهي وحيدة أبويها، لكنّها تحب جمع التحف والأساور والأقراط أكثر مما تحب الكتب. وعلى الرغم من تواضع جمالها، فهي شديدة الذكاء، وشخصية اجتماعية، تستطيع أن تسحر من يراها لأول مرة.

إيمي وماري روز صبيّتان تحبّان بعضهما، وتذهبان معًا للمدرسة، وإلى حفلات الموسيقى، وتقضيان معًا عطلات الربيع والصيف في مزارع أبويهما بالتناوب، وتتنزّهان في حقول قصب السكر.

إيمي تحب العمّال القادمين من البحر الكاريبي، ولها صلات طيّبة مع الخادمات من أصول أفريقية. أمّا ماري روز، فتعقد صلات مع الصبايا الفرنسيات اللواتي يجتمعن معها في الكنيسة أيام الآحاد.

أحلام إيمي أن تسافر كل عام إلى باريس لتستمتع بمتاحفهـا، وكنائسها، ومقاهيها، ومطاعمها التي تحاذي نهر السين، وملاهيهـا، ومسارحها التي تقدم مسرحيات، وفرق الأوبـرا، والسـيمفونيات الموسيقية.

لكنّ أحلام ماري روز تتجاوز حلم الزيارة إلى حلم العيش في باريس، والانغماس في ملذّاتها، والانضمام إلى طبقتها العالية، طبقـة النبلاء.

ذات يوم، زار الجزيرة قارئ كف من أصول هنديّة، وسـبقته شهرته من خلال القادمين من جزر الكاريبي. وتقاطر الناس عليـه في النزل الكبير الذي مكث به، واصطفوا طوابير من أجل أن يقرأ لهـم الطالع. ورغبت ماري روز في زيارته بصحبة إيمي لتعـرف حظّهـا ومستقبل أيّامها. وبحكم نفوذ عائلتيهما، فقد اسـتطاعتا مقابلتـه، وحظيتا منه بمعاملة حسنة، واستقبال يليق بـالأميرات، وقـرأ لهمـا الطالع والحظ والبخت، من خلال خطوط الحياة والصحّة وخطـوط القلب والتفكير على أكفّهن.

قرأ لماري روز، وقال إنّها ستعيش حياة عاطفية شديدة الثراء، وإنّ خط الصحة يقول إنها ستعيش عمرًا مديدًا وسعيدًا، وإنّ رغبتها بالترحال والسفر ستضفي على حياتها بهجة، وتمر بخبرات وتجـارب تجعل منها سيدة مرغوبة من المشاهير. وتنبأ لها أن تتزوج من رجـل عظيم يجعل منها سيدة الغرب بلا منازع.

وقرأ لإيمي طالعها، وقال إنّ جمالها سيكون سببًا في فرحها أحيانًا، وسببًا في شقائها أحيانًا أخرى، وإن خطوط الصحة والعاطفة تقول إنها ستبقى حيوية ومبادرة، وإنّ شخصيتها القوية تتسم بالعناد والإصرار على تحقيق مبتغاها، وإنّ ثقافتها العالية ستفتح أمامها الطرق المغلقة، وستتزوج من سلطان أو ملك من بلاد الشرق، وسيجعلها ذلك سيدة الشرق كله، رغم ما يكتنف الطريق من عقبات.

قراءة الطالع حفّزت ماري روز للبحث عن طريقة تهاجر بها إلى مدينة باريس. وقد سنحت الفرصة عندما تقدّم لها شاب يكبرها، لعائلته صلات طيبة مع خالتها، وأتاح لها هذا الزواج الانتقال إلى باريس. لم تكن تحبّه، لكنها قبلت به لأنه مقيم في مدينة الجمال والفنون والشهرة.

لكن هذا الزواج لم يدم طويلاً؛ فعندما اندلعت ثورة الجياع في فرنسا، وحدثت الفوضى، أعدم زوجها بالمقصلة بتهمة خيانة الثورة. وبعد رحيله، تفرّغت لتحقيق حلمها والبحث عن طريق يوصلها إلى عالم الشهرة، وتلقت نصائح عن كيفية التصرف وفق البروتوكول، وكيفية إتقان اللهجة الباريسية الرقيقة، بدلاً من لهجة المارتنيك الجافة، وعن نوع الأطعمة التي تحافظ على رشاقتها، ونوع الألبسة التي تجعل الرجال يخطبون ودّها، وكيف توظّف جاذبيها في إثارة الرجال من علية القوم، فصارت سيدة من سيدات صالونات باريس،

وصار لها في الأوساط ذات النفوذ شأن عظيم، لكن ما زال مشوارها طويلاً لتحقق نبوءة العرّاف وتكون سيدة أولى.

(توقفت السيدة هنا، ورشفت رشفة من شراب، وكانت الأنظار مشرئبة بانتظار أن تكمل).

والآن، يرجع مرجوعنا لإيمي التي لم يكن طموحها سوى السفر مرة كل عام أو عامين لزيارة باريس، والتزوّد منها بما يبهج القلب، ويغذي العقل، ويسرّ النظر.

في إحدى زياراتها إلى باريس عن طريق البحر، وكانت قد نضجت وازداد جمالها وبهاؤها، اعترض القراصنة السفينة في البحر، وأخذوا الركّاب الأوروبيين عبيدًا لبيعهم في أسواق الرقيق في الجزائر، وتعلمن يا بنات أن القرصنة كانت مهنة وتجارة عند قراصنة ينتمون إلى دول أوروبية وقراصنة ينتمون إلى الدولة العثمانية، وكلا الطرفين يغير على السفن، ويحصل على الغنائم، ويبيع الأسرى في أسواق الرقيق، أو يحصل على الفدية من أجل تحريرهم.

لكنّ الأسيرة إيمي كانت صيدًا مختلفًا؛ فجمالها الساحر دفع القراصنة إلى بيعها لوالي الجزائر الذي اشتراها، وأرسلها هدية للسلطان في الأستانة لتكون جارية من جواريه، أو محظيّة من محظيّاته، وكانت مثل هذه الهدايا مألوفة للتقرب من السلطان.

(توقفت السيدة وتنهّدت، وأخذت رشفة أخرى من الشراب، وتعلّقت بها العيون؛ فقد كان التأثر باديًا على محيّاها. توقفت للحظات، ثم أكملت).

قليل من الناس يعرف عالم الحرملك والجواري والسلطانات. تاريخ الحرملك هو التاريخ السري للدولة العليّة العثمانية؛ ففي القصور مئات الجواري اللواتي يُجلبن من أسواق الرقيق والنخاسة. الجميلات يعرضن على السلطان لينتقي منهن من يطارحهن الفراش، والأخريات يتم تدريبهن على نظام الحرملك، ثمّ يعملن في مختلف المهن في القصر، من طبخ وتنظيف وتربية الأمراء، وعزف الموسيقى والرقص.

وجدت إيمي نفسها جارية تتلقى التعليم على آداب القصر ونظامه، وتتلقى دروسًا عن الدين والصلاة، وتقوم بالخدمات العامة. لكنّها كانت عنيدة، وكانت تقاوم كبار الأمراء الذين يراودونها عن نفسها. وكانت زوجات السلطان يحسدنها على جمالها ويعملن على إبعادها عن نظر السلطان، خوفًا من أن يتّخذها محظيّة. وكان كل من في الحرملك على دراية بقوّة شخصيتها، وبمعرفتها باللغة الفرنسية وآدابها وعلومها، ووصلت أخبارها إلى السلطان، فطلب رؤيتها. وعندما دخلت إلى مكان جلوسه، قامت بتبجيله من خلال إتيكيت القصور الفرنسي الذي تعلّمته في بلادها، فسُحر بها وبجمالها وحسن تصرّفها ورقّتها، ومنذ اللقاء الأول، أصبحت محظيته والمفضّلة عنده.

وتشاء الظروف أن تحمل منه وتلد له ولدًا ذكرًا. وبعـد الـولادة، صارت لها مكانة خاصة، ووصلت إلى رتبة سلطانة.

وكما قلت لكنّ ولك يا سيدي، فإنّ دسـائس الحرملـك في القصور قاسية ولا مكان فيها للرحمة، و من تقع ضحية بسبب عنادها أو تكون ضحية وشاية، فإنّ مصيرها أن توضع في كيس ويلقى بها إلى النهر في خليج البسفور. لكنّ الدسائس لم تطلها فقط، وإنما طالـت طفلها؛ إذ جاء اليوم الذي وجدوا فيه ابنها الرضيع مخنوقًـا، وقتـل الذكور عادة ملازمة لدسائس القصور؛ فكل زوجة مـن زوجـات السلطان تريد أن يكون ابنها وريثًا للحكم.

السلطان تعاطف معها، وعهد إليها بتربية أحـد أولاده مـن سلطانة توفيت عند الولادة، فعوّضها الولد عن ابنها، وقامت بتربيته كما لو كان ابنها.

عندما أصبحت إيمي سلطانة، أطلق عليها السلطان اسمًا جديدًا عثمانيًّا يليق بهيبتها ومكانتها.

السلطانة أدخلت على القصر نظمًا عصرية، وجلبت الأثـاث من فرنسا، والأواني المتعلقة بالمطبخ كذلك، وأدخلـت الإتيكيـت الفرنسي على نظام الولائم، وجلبت من باريس صحون البورسـلان والملاعق الفاخرة والشوك والسكاكين.

بصمودها وعنادها وقوّة شخصيتها، صار لهـا نفـوذ أكـبر، وأقنعت السلطان، بعد خسائر كبيرة لحقت بسلاح البحرية والمشاة،

بإجراء إصلاحات على الجيش وإدخال النظم العسكريّة الأوروبية الجديدة، وتشكيل جيش جديد ليكون بديلاً عن نظام الإنكشارية، ما جعل الإنكشاريين يعارضون هذه الإصلاحات، ويناصبونها العداء، ويتآمرون عليها.

لكنّ إيمي الشجاعة وقوية الشخصية لم تستسلم. رضخ السلطان وهادنهم، لكنّها لم تهادنهم، وظلت تدير الأمور في الدولة من وراء الستار.

(توقفت عن الكلام، ونظرت إليهن كما لو أنها تستطلع تأثير الحكاية عليهنّ، فيما كنّ يتابعن بدورهنّ تأثير الحكاية عليها هي. توقفت قليلاً، ثمّ أكملت).

حكايتنا تنتهي هنا. ولعلّ الأقدار تضع لهذه الحكاية نهاية.

لقد صدقت نبوءة قارئ الكف، وأصبحت إيمي السلطانة الأم سيّدة الشرق في دولة تمتد حدودها حتى آخر المدى. فماذا سيكون مصير ابنة عمّها ماري روز، التي سلكت الطريق الآخر لتكون سيدة مجتمع كخطوة أولى في طريق طويل قد يوصلها إلى أن تصبح سيدة الغرب بلا منازع، كما تنبأ لها قارئ الكف نفسه؟ من منكنّ أيتها البنات يمكن أن تتخيل نهاية لهذه الحكاية؟!

***

الفصل الخامس عشر

هكذا انتهت حكاية ليست لها نهاية، لكنّها دفعت الفتيات للتفكير، ولإخراج ما في أخلادهنّ من خواطر، والمشاركة في إبداء الرأي، والبحث في مصير السيدة ماري روز؛ فمنهنّ من تنبّأت لها بمصير باهر. ومنهنّ من رأت أنّها ستتحوّل إلى سيدة مبتذلة بسبب سلوكها في الغواية ومنح الجسد، وواحدة منهنّ، وهي الوصيفة أسرار، رأت أنّ مصيرها ينتهي عند المقصلة.

واعتدل الجو، وتحوّل إلى مزاح، لأنّ البنات رفضن الانجرار إلى حسن المنقلب أو سوئه لتلك الفرنسية اللعينة، وتحولن إلى العزف والغناء والرقص.

انتهت الحفلة، وعادت السيدة مصطحبة يوسف وأسرار إلى الشرفة. وبدا ليوسف أن المزيد من نباتات الزينة قد اصطفت على جوانب الشرفة، وأعطت للمكان المزيد من البهاء.

كانت السيدة تلبس ثوبًا يشبه العباءة، مقصّبًا عند صدره وأردانه، وأكمامه واسعة، وتلف رأسها بشال خفيف وشفّاف، ووجهها متورّد، وتحوّل مزاجها بعد تعكير إلى مزاج رائق، وخطر لها أن تتناول القهوة معه، وتبسط حبل الود. وكان هو يرغب بتناسي انشغالاته وتشوّشه.

مكثت أسرار معهما قليلاً، ثمّ ذهبت لإعداد القهوة وإحضار الحلوى.

حين خرجت أسرار، بادرته قائلة: لم تكن قصتي موفّقة، أليس كذلك؟

ابتسم وأجاب: كانت مكبوتة في أعماقك، وسردها أراحك. لكنّها لا تخلو من طرافة.

ثمّ أضاف: إنّها حكاية السلطانة نخشديل وابنة عمّها على كل حال.

صمتت هنيهة، ثمّ قالت: أخفيت شيئًا عن حكاية ماري روز. أتدري؟ يقال إنّها ارتبطت بعلاقة مع ضابط كبير في الجيش الفرنسي الذي يقاتل على جبهة إيطاليا.

– هل تعنين أنّ ذلك حقق أحلامها؟

– لا أدري، لكنّ صديقنا القنصل في بوردو يقول إنّه جنرال قميء، قصير ودميم، ضابط يتقن الحرب ولا يعرف الحب، يقضي معها شهوته فقط. أنا أكره ذلك.

وقررت بعد ذلك تغيير الحديث، فانتظرت عودة أسرار بالقهوة والحلوى، وقالت بعد انصرافها: دعنا نتكلّم بأشياء مفيدة.

سأل: مثل ماذا؟

قالت: حان الوقت لنتكلم في موضوع مكافأتك على رسم اللوحة.

أجاب: لست تاجرًا لآخذ منك مكافأة. أنا صديق. هل نسيت ذلك؟

عادت تنظر إليه، ولكن هذه المرة بعينين ماكرتين، وضـــحكة خادعة: لعلك تطلب المكافأة نفسها التي طلبها المهندس في حكايـــة أسرار؟!

ضحك وقال: تقصدين قبلة؟

فواصلت مكرها: أليس ذلك ثمنًا باهظًا؟

حدّق في عينيها، وقال: كنت أودّ ذلك، لكنني تراجعت؛ لأن قبلتي حارقة. لا أريد أن أؤذيك.

بنفس المكر اللذيذ، واصلت هجومها بقصد التسلية، أو لمجرد المزاح: قبلتك حرقت نحر تلك الجارية في حرملك قصـــر الحـــاكم. صارت مثل الوشم، وكل الجواري يحسدنها.

كان يتوقع أن تسأله ذات يوم عن تلك القبلـــة، وهـــا هـــي تستدرجه لتعرف أكثر.

لم يزعجه ذلك، فأجاب: لست أنا من قبّلها في تلك اللحظـــة، وإنما الجنّي الذي يسكن بدني.

سألت: كيف؟

قال: هناك قرين يسكنني. سألت شيخ المسجد الكبير، فقال إنّ لكل مسلم عفريتًا من الجن يصاحبه، ويحلّ في بدنه، ويغويه. والجـــن الذي يسكن جسدي لا يستيقظ إلا في وقت الحب ووقت الحرب.

– وهل تصدّق ذلك؟

– الشيخ يقول إنّ ذلك ذكر في القرآن والسنّة، وإنّ القــرين يمكن أن يكون من الملائكة فيدفع صاحبه لفعل الخير فيتجنّب أفعــال الشر، ويمكن أن يكون من الشياطين فيدفعه لعمل الشر.

تحوّلت نظراتها إلى استغراب وتساؤل: أنت إنسان طبيعي، فلقد عاشرناك ولم نجد فيك عيوبًا. لم نجد فيك إلا كل خير.

أجاب وقد أثاره الحديث، ووجد فرصة ليخرج ما هو مكبوت في قلبه: نصحني الشيخ أن أقاومه وأنتصر عليه. يمكن الانتصار عليه بإرادتي، وسوف أنتصر عليه، فإذا ما انتصرت، سأطلب منك...

ضحكت فجأة: لا أصدّق ما تقول. كل مــا في الأمــر أنّ في أعماقك طاقة كبيرة، طاقة أكبر من طاقات الناس. ولا شــك في أن هذه الطاقة ستعود إلى طبيعتها كلما ازدادت التجارب والخــبرات، وتكون خيرًا لك.

ثمّ أضافت: في الديانات الهندية، هناك فلسفة الســيطرة علــى النفس، وهي فلسفة لها نظير في الــدين الإســلامي، هــي فلســفة المتصوّفة، فابحث عن الحكمة تجد الحل.

أدهشه اتساع معرفتها، وتمنى لو تسترسل في حديثها. وعندما ظل مصغيًا، واصلت حديثها: للقبلة تاريخ طويل منذ بدء الخليقة عند الشعوب والحضارات والأديان. سيدنا آدم تعلّم القبلة مــن نحلــة. النحلة حطّت على شفتي سيدتنا حواء لتمتص الرحيق مــن ريقهــا، فقال لنفسه لا بدّ أن ريق حواء لذيذ، فأقبل عليها وامتص شــفتيها وشرب من ريقها، الريق الذي يسميه الشعراء الرضاب، فكانت أول

قبلة في التاريخ. القبلة عند بعض المعتقدات تتعلق بالقداسة والشم واللمس والرغبة والتكاثر وديمومة الحياة.

وفي كتب الحب عند الهندوس، تتجلى حكمة الشرق، فالتواصل بين رجل وامرأة له طقوس كالصلاة. القبلة عندهم مدخل إلى اللقاء الحميم الذي يمثّل نقاء للروح، وصفاء للذهن.

وواصلت القول: القبلة في فلسفتهم تعني السمو الروحي، ولها أنواع مثل: القبلة الاسمية، أي تقبيل الفم بشكل سريع وخاطف وعلى عجل، والقبلة التي تحرك الفتاة فيها شفتها السفلى تسمى القبلة بالنبض، والقبلة التي تلمس الفتاة فيها شفة حبيبها بلسانها تسمى قبلة اللمس، وهناك أنواع أخرى مثل القبلة المعتدلة، والقبلة الناعمة، والقبلة المضغوطة.

ابتسم وقال: تعددت الأسماء والقبلة هي القبلة، ويتعيّن ألاّ نشرحها لكي لا تفقد شيئًا، ويكون لها حدود. القبلة مثل القصيدة؛ لها وزن وقافية وموسيقى داخلية، ولها مطلع ولها ختام، وختامها مسك.

ضحكت وقهقهت، ونظرت إليه نظرة مشاكسة وقالت: وهناك قبلة قد تروق لك، ولها عندهم قيمة عليا، وهي تقبيل صورة الحبيب، فإذا شاهد المحب لوحة لصورة حبيبته معلّقة على الجدار، فإنّه يستطيع أن يقترب ويقبّل فمها أو وجنتيها، وتسمى هذه القبلة: قبلة النوايا الحسنة.

فهم رسالتها، فعلّق ضاحكًا بسخرية: بئست هذه النوايا.

ضحكت بدورها، فقال: دعينا نضحك ونهرب من بؤس الحياة.

ثمّ عبس، وهمّ بالكلام، لكنّه تراجع.

سألته: لديك ما تقول، أليس كذلك؟

أجابها: ما كنت أرغب في أن أعكّر مزاجك، هناك أوامر من الوالي بإبعادي.

لم تُفاجأ. لعلّ لها من يبلغها بالأخبار. فردّت: كنت أتوقع ذلك. علمت أنّ مفاوضات تجري مع الإنكشارية من أجل التهدئة، وعدم مهاجمة يافا، وأنهم وضعوا شروطًا.

هزّ رأسه، وصمت، فأضافت: الإنكشاريون يضغطون على السلطان سليم لأنه استقدم خبراء من فرنسا لتحديث الجيش على النسق الأوروبي، ويعتقدون أنّ ذلك سيكون على حسابهم، يثيرون الشغب في الولايات، ويبدو أنّ السلطان بدأ يميل لمهادنتهم. والوالي هنا ينفذ أوامر السلطان.

– ويبدو أنّ الوالي سيبعدني لإرضائهم!

هزّت رأسها مؤكدة قوله، وأضافت: وسيدفع لهم أتاوة تقدّر بمئات الليرات الذهبية.

صمت كلاهما، وبعد برهة، سألته عمّا سيفعل. فكّر مليًّا ثم أجاب: الوالد يريدني أن أغادر وألتحق بمدرسة هندسة معمارية في دمشق.

قالت: لا تتردد.

– هذا يعني أن أغيب سنتين عن يافا و.. عنك.

لمعت عيناها ببريق ناجم عن دمعة حبيسة أو إحساس بألم، وأجابت: لا تقلق، سنبقى على تواصل، وآتيك إلى هناك كلما سمحت الظروف.

– لقد أصبحوا قوّة قمدد الدولة.

– للإنكشارية ثكناقم الخاصة وتنظيمهم الخاص، وهم أقوى فرقة في الجيش، يتلقون تربية عسكرية عمياء، وصاروا مركز قوّة ويتدخلون في تعيين السلاطين وعزلهم، بل وقتلهم إذا لزم الأمر. كما أفم يفعلون كل شيء من سطو واغتصاب وفرض أتاوات، ولا يستطيع أحد محاسبتهم.

– سمعت أفم عاثوا في يافا فسادًا في الماضي.

– هم الآن في مواجهة مع السلطان لثنيه عن تحديث الجيش وإعادة تشكيله وفق النظام العسكري الفرنسي، ويعتقدون أنّ السلطانة نخشديل وراء ذلك، باعتبار أصولها الفرنسية.

– أنا لا أفهم في السياسة، لكن يبدو لي أنّ السلطانة على حق، فالدولة تتعرض لهزائم وتفقد نفوذها في الولايات البعيدة، ورماح الدول الكبرى، مثل روسيا وإنجلترا، تتناوشها وتسعى إلى التدخل في شؤوفا.

– دعنا من هذا الحديث. الحديث في مثل هذه الشؤون يفسد جلستنا. متى تذهب إلى دمشق؟

أجاب: يتعين أن أغادر في غضون أيام.

فكّرت قليلاً، ثمّ قالت: ويتعيّن عليّ أن أذهب إلى إزمير لزيارة من تبقى من عائلتي، وربما أمكث هناك حولاً كاملاً.

صمت، ولعلّه كان يفكر بالرحيل والغربة. وبعد أن ظلّل الجلسة صمت ثقيل، قالت: سأرسل لك الرسائل على عنوان مدرستك. حدث تطوّر في البريد؛ لم يعد الحمام الزاجل هو الذي يحمل الرسائل. صارت هناك محطات للبريد في المدن الكبرى. وصار البريد ينقل عن طريق البحر، وعن طريق البر.

وأضافت: ويمكن أن أرسل لك الرسائل والهدايا بين حين وآخر مع أسرار التي تحب السفر، وبالتأكيد، تحب بلاد الشام.

ثمّ دفعته وهزّته من كتفه، وقالت بدلع: ثمّ إنهما عامان وتعود لنا مهندسًا كبيرًا يشار له بالبنان، وعندها، سأهبك قبلة.

ثمّ أضافت: قبلة ما مرت بذاكرة عاشق. لكن عليك أن تنتصر على ذلك الجنّي الذي يرافقك.

ووقفت، وأمسكت بيده وقالت: هيّا نتمشى في الحديقة.

***

الفصل السادس عشر

وصل دمشق بعد رحلة شاقّة. امتثل لرغبة أبيه وانتقل إلى مدينة لا يعرفها.

ودّع يافا وودّع السيدة العيطموس فائقة جمال الجسد والروح. كان الوداع مثقلاً بعواطف ونظرات ولمسات ودموع، ولازمته طوال الرحلة رعشات أحزان، وانثالت ذكريات ممزوجة بحنين، ومشاعر فراق، وحكايا مدينة، وهدوء بحرها وزمجرته، وذهب رمالها، وجمال مآذنها وقبابها، وزهور تلالها وورودها، ودعاء هنانة، ودموع أحمد آغا، وتلويحات صياديها، وعمّال الدباغة، وأبناء البلد في أزقّتها، ومبنى البازار المغلق، وصدى أصوات مؤذنيها وأصوات أجراس كنائسها، وجريان نهر الجريشة، ومركب يشق عباب النهر، وصوت غناء السيدة، ونظرة رضى في عيني الوصيفة، وكوكبة من زهور النرجس واللوز وقرن الغزال.

امتثل لرغبة والده في إبعاده عن المخاطر، وإرساله ليتعلم هندسة العمارة وتزيين القصور. ومع مرور الأيام، انغمس في الدراسة، واندمج في نسيج المدينة، وصارت الذكريات بعيدة.

أحب علوم العمارة وفنونها، فتعلم هناك في "مدرستي مملوكي سلطاني" على يد كبار المهندسين والمعماريين فنون العمارة الأموية والعباسية والأيوبية والمملوكية والبيزنطية، وهندسة بناء البيوت والقصور، والتكايا، والمساجد، وما يتبعها من مآذن وقباب ومحاريب وأروقة، والعقود، وزوايا الخلوة، والفناء، والنوافير، والإيوانات،

والمشربيات، وسبل الماء، والأسوار، والأبراج، والخانات، والبيوت وما يتعلق بها من قناطر، وكذلك بناء السواقي، والطواحين، والنواعير، والمنارات، وأضرحة الأولياء، والأسواق، وتعلم فنون الزخرف، والتزيين بالآيات القرآنية، والتزيين بالرخام وحجر المرجان والقاشاني، وهندسة رسم المثلثات، والمربعات، والمثمنات، والمضلعات، والدوائر، والنجوم، والتشجير، والنقش، والنمنمة، والفسيفساء، وتعشيق الزجاج وتلوينه، والحفر على الخشب، وصناعة الأبواب.

كان يسكن في بيت لا يبعد عن القلعة في حي (العمارة) في البلدة العتيقة، بيت له حوش يدخل إليه من مدخل ضيق. ويتكون البيت من فناء مبلط، تتوسطه (فسقية) تنمو حولها شجرتا ليمون، وطابق من غرفتين: واحدة للنوم، والأخرى للطبخ وحفظ المؤونة. ومن شرفة الطابق المطلة على الفناء، تتدلى أغصان الياسمين.

كان بيتًا مريحًا لا يأوي إليه إلا وقت النوم. يمضي أيامه في التعلم في المدرسة أغلب الوقت، وفي زيارة الحارات والأحياء والأسواق أوقاتًا أخرى، وما تبقى من الوقت، يقضيه في زيارة القلعة والجامع الأموي، ومساجد دمشق الأخرى: جامع درويش باشا، وجامع الطاووسية، وجامع السفرجلاني، وجامع القلعي، وجامع سيدي صهيب، وجامع ابن هشام، يدرس ويتأمل، يدقق في طراز البناء المملوكي باللمسة الشامية، والمملوكي بصمة سلجوقية، والطراز العثماني بإضافات دمشقية. كان مأخوذًا بالتفاصيل الهندسية للواجهات المزدانة بالنقوش والزخارف والنمنمات. وكان مأخوذًا

بدهان الألوان واستخلاصها من المواد الطبيعية والأصباغ، والدقة في المسطرة والحفر والنقش. وكان مأخوذًا بجماليات المآذن، والإبداع في بنائها، والتنوع في عدد أضلاعها، وطولها أو قصرها، وكان مأخوذًا بتلك الأقواس التي تجمّل الإيوانات، وتلك التيجان المكسوة بالقيشاني التي تتوج الشبابيك والشرفات، وذلك الخشب الذي يحضرونه من غابات الفرلّق ويصنعون منه المحاريب والأبواب وخزائن المكتبات والمخطوطات. كان مستغرقًا في تأمل هذا الإرث الفريد، ويكرس الوقت لدراسته، يتأمل ويدوّن في دفاتره، ويحلم بأن يعمر ويبني، أن يزخرف، أن يعمل ما لم يعمله الأولون، أن يسجل اسمه في سجلات الفريد من معمار المعمورة.

لم يكن يلهو. لم يكن يختلف إلى أماكن الطرب والرقص وشرب الراح في باب توما. ولم تكن تخطر بباله النساء. وما أكثر اللواتي يتسوقن في أسواق الحميدية والبزورية ومدحت باشا والنحاسين والسكرية وباب الجابية والعصرونية، حيث القماش، والذهب، والعطور، والثياب، والتوابل، ولوازم العرائس، ولوازم الخياطة والحياكة، ولوازم البيت، وأسرجة الخيول ولوازمها.

أمضى عامًا كاملاً دون أن يزور يافا، ودون أن يتلقى رسالة من السيّدة، ودون أن تأتي أسرار بالرسائل والهدايا.

زاره أبوه أحمد آغا وأمه هنانة مرة واحدة، وبعدها، ظل يتلقى الرسائل والنقود منهما وينفق بلا إسراف. عقد صداقات مع الطلبة والمدرسين، لكنها صداقات لا ترفع فيها كلفة، ولا يتسلل إليها الجفاء. كان يحب الدرس والتأمل والتدوين. يأكل إذا جاع في مطاعم

الأسواق، ويشرب إذا عطش من السبيل؛ ففي كل شارع أو زقاق أو مدرسة أو مسجد سبيل ماء، وفي سعيه للدرس أو شؤون أخرى، كان يشاهد النساء اللواتي يتلفعن بالملاءة الشامية، ويضعن على وجوههن الخمار، فلا تبدو سوى أعينهن. لم يكن يدقق بلغة العيون. كان يكتفي بالنظرة الأولى العابرة، مستبطنًا فكرة غض البصر، ومتذكرًا تلك التجربة القاسية عندما تحول جسده إلى سفود نار ملتهب، لذا، كان تجنب النساء خياره، وتجنب الشهوة والغواية قناعته.

كان يأوي إلى بيته بعد الغروب، يشعل المصباح ويتناول العصيدة أو الحليب أو شيئًا من الفاكهة، ثم يعكف على تدوين أفكار وملاحظات ورسومات حول ما قرأ أو شاهد أو ما يرغب في أن يحققه بنفسه، ويبقى كذلك إلى أن يغلبه النعاس فينام. وأيام الجمعة، يستيقظ فجرًا، يستحم ويتوضأ ويصلي ثم يغسل ما اتسخ من ملابسه، وبعد ذلك، يذهب إلى المسجد لصلاة الجمعة.

***

عاد ذات يوم إلى البيت باكرًا. كان الوقت عصرًا، وربما، لأول مرة يروق له أن يلقي نظرة على الفسقية ونافورتها وليمونتيها؛ فجلس على الدكة التي تحاذيها، وعند ذلك، كانت المفاجأة!

انتبه إلى أن الدكة نظيفة لا يعلوها الغبار، وأن الفسقية نظيفة ورخامها ناصع البياض، وأن بلاط الحوش مشطوف ولامع. وانتبه كذلك إلى أنّ قمصانه وسراويله التي اتسخت معلقة على الحبل مغسولة ونظيفة.

دهش، ولم يصدق عينيه. تساءل: هل جاءت هنانة؟ إذا كانت قد جاءت، فمن فتح لها الباب؟

نهض على الفور، وصعد الدرج قفزًا. الشرفة نظيفة، غرفة النوم مرتّبة ومنضدة، ملاءة السرير مستبدلة، وكذلك الوسادة، والخزانة ملمّعة، والملابس بداخلها معلقة، الكتب والدفاتر مصفوفة بعناية، لا أثر للفوضى، لا أثر للنفايات.

لا أثر لوجود هنانة؛ لا حقيبة، لا صرّة، لا رائحة برتقال، لا رائحة مسك.

انتقل إلى المطبخ، الأواني نظيفة، الموقد نظيف، الحيطان نظيفة، رائحة صابون ورغوة باقية في لجن الغسيل. من الذي فعل هذا؟

شعر بالحيرة. ماذا يتعين عليه أن يفعل؟ سقط نظره فجأة على فردة قرط نسائية، تكاد تتماهى مع لون البلاط، فردة قرط من ذهب تنتهي بحجر من الزبرجد، قرط يبدو لوهلة أنه سقط من أذن أميرة. انحنى والتقطه ثم اعتدل وبدأ يتأمله ويفحصه. يبدو قطعة فنية مشغولة بيد جواهرجي دمشقي يمتهن مهنة الصياغة أبًا عن جد. انحنى ثانية وأخذ يبحث على البلاط، لعله يجد الفردة الثانية. لكنه، بعد طول بحث، لم يجدها.

دس القرط في جيبه، وخرج إلى الشرفة يبحث عن شيء آخر، يبحث عن صاحبة القرط، فقد أيقن أنّ ما حدث في بيته كان بفعل فاعل، والفاعل امرأة، لكن من أين دخلت، وكيف ولماذا؟ لم تدخل

من الباب، وبالتأكيد، لم قمبط من السماء. دخلت وتركت أثرًا من آثارها، وتركت نظافة روحها.

أطل من الشرفة على البيت المجاور الذي يفصله عن بيته سور حجري متوسط العلو. كانت العتمة تتسلل رويدًا رويدًا بعد المغيب، وفي تلك اللحظة، ظهر من وراء نافذة الطابق الثاني للبيت المجاور ضوء من وراء الستائر.

لم يكن بيتًا صغيرًا، كان يبدو، من مظهره وفخامته، أنه بيت أناس ميسورين.

تعلقت عيناه بالنافذة، ثمة ظلال وشبح يعبر من وراء الستارة.

خيل إليه أنها المرأة صاحبة القرط، ودار بخلده أنه أمام مغامرة لا يريدها، وليس بوسعه أن يسعى إليها، لكنه كان مدفوعًا بحب الاستطلاع. ولم يطل انتظاره؛ فقد انطفأ المصباح، وحلت العتمة، وظللت المكان وحشة.

إنها المرة الأولى التي ينطحه فيها كبش المغامرة، ويحوّل حب الاستطلاع إلى إحساس بالجوع، وإلى هواجس وخيال. ها هو الجنّي الذي يتزمّل في ثيابه يستيقظ.

ران الصمت بعد ذلك، فهبط السلالم وجلس على الدكة قريبًا من الفسقية ورائحة الليمون. لم يشعل المصباح. ظل جالسًا في العتمة ينتظر.. ماذا ينتظر؟ هل ينتظر أن تظهر صاحبة القرط فجأة، تفتح النافذة وتطل عليه سافرة بينما الهواء يعبث بشعرها، أو هي

تعابث الهواء بخصلاتها؟ هل تطل عليه وتنظر إليه بعينين تشبهان عيني غزالة؟

ذهب بعيدًا في الخيال، ولم يستطع أن يثني نفسه عن التفكير. أسقط عليها في خياله، أو أسقط ذلك الجنّي، الصفات النبيلة. أسقط مقاييسه في الجمال على شعرها وعينيها وشفتيها ورقبتها وصدرها ونهديها وبطنها وسرتها وردفيها وفخذيها وأصابع يديها وقدميها.

كان قد أخرج القرط من جيبه ووضعه على راحته وأخذ يدقق به من جديد. القرط طويل، فلعلّها بعيدة مهوى القرط، وهذا يعني أنّها طويلة. القرط ينتهي بحجر كريم من الزبرجد الأخضر، وهذا يعني أنها تلبس ثوبًا أخضر يناسب لون زبرجدها. ألبسها في خياله ثوبًا طويلاً ورداء من المخمل يكشف عنقًا نافرًا كأعناق الغزلان. لماذا صنعت له في هذه الليلة لغزها؟ لماذا صادت هذه الليلة أشواقه وناره وشبقه؟ ماذا ينتظره، وماذا تخبئ له الأقدار؟

أحس بخلاياه تتسع. أحس بجسده يسخن. أحس بأصابع يديه تشتعل. شعر بخوف، بل برعب، فقرر الخروج من البيت.

خرج وأغلق الباب. مشى في الزقاق المظلم الذي كان يضيئه مشعل معلّق عند الناصية.

توجه نحو المدينة التي أغلقت حوانيتها، وتناثرت أكوام الزبالة بانتظار من ينقلها إلى المزبلة. بينما الكلاب الضالة تجوس هنا وهناك فرادى وجماعات.

مشى في طرق موحشة. وصادف في طريقة شرطة الجندرمة عند السبع بحرات، فطرح عليهم السلام ومضى متوجهًا نحو مرتفعات الصالحية؛ فقد قرر الذهاب إلى حانوت للهو يقيم فيه ساعة من الزمن.

وصل ودخل البهو الواسع الذي يغص بالساهرين؛ رجال ونساء وبخور ورائحة ياسمين، مقاعد وأرائك ودخان، عازف قانون يطلق تقاسيم تركية ومغنية تصعد إلى الدكة وتغني، الزبائن بشوات وأغاوات أتراك، ووجهاء وتجار شوام، مسيحيون ويهود، وقناصل فرنسيون وألمان. كانت القاعة مليئة، وبالكاد وجد مكانًا. الندل يتحركون في كل الاتجاهات، ورائحة الشواء تختلط بروائح تبغ ويانسون العرق. جلس وحيدًا. كانت طاقته النارية قد هدأت، وكان يود إخمادها بكأس من منقوع الزنجبيل. لكن النادل قال إنهم لا يقدمون الزنجبيل، بل يقدمون منقوع اليانسون ومنقوع الشعير، فطلب قرعة من ماء الشعير. ووسط الضجيج، حاول أن يلتقط صوت الموسيقى وصوت المغنية، ولم يفكر في النظر إلى النساء السافرات اللواتي يملأن المكان. وحاول أن يتناسى القرط وصاحبته. وبعد ساعة، أدركه السأم، وماء الشعير جعل النعاس يغزو عينيه، فدفع للنادل النقود وخرج. استأجر الحنطور الذي يتوقف أمام الملهى وعاد إلى البيت.

نام دون أن يستبدل ثيابه. نام عميقًا دون أن يرى ما يراه النائم من أحلام.

***

الفصل السابع عشر

أفاق على صداع. هبط السلم إلى الفسقية وملأ كفيه ورشق الماء على وجهه. كان الليمون يطلق رائحة مؤنسة، وكذلك الياسمين. ترك الماء يسحّ عن وجهه ويبلل ثيابه.

صباح بنسمة طرية. جلس على الدكّة. وجد نظراته تتجه إلى النافذة، النافذة مغلقة.

بالقرب منه حمامة تحط على صينية الفسقية وتمد منقارها إلى الماء ثم تغمر صدرها كما لو أنها تبترد. كان بحاجة إلى كوب من منقوع (البردقوش) ليوقف هذا الصداع. صعد إلى غرفة الطبخ، فأشعل موقد الحطب، وعبأ الدورق بالماء ووضعه فوق الموقد، وأضاف له الأعشاب.

شرب مشروبه الساخن والنافذة لا تزال مغلقة. اغتسل ولباس لباسًا جديدًا والنافذة لا تزال مغلقة. جمع أوراقه في حقيبته والنافذة لا تزال مغلقة. هبط السلم وسمع وهو يهبط حركة ما فوقه. توقف ورفع رأسه، كان أحد مصراعي النافذة قد فتح مواربة. لم يظهر أحد. لم تظهر المرأة. انتظر قليلاً.. لم تُفتح النافذة وظلت مواربة.

قرر أن يخرج. كان على يقين أنها تراقبه، فاستجمع قواه وأشار لمن تراقبه من وراء شقوق النافذة إلى أنه سيغادر، لعلها إشارة تحدٍّ. وعند ذلك، جاءت الاستجابة؛ انفتحت النافذة على مصراعيها،

فرفرفت الحمامة الحذرة، رفرفت بجناحيها وطارت، وأحس كما لو أنّ جناحيها يخفقان في قلبه.

أطلت عليه بخمارها وهي تكسو كتفيها بوشاح أحمر، لم يكن يظهر سوى عينيها. يا لهاتين العينين السوداوين الكحيلتين اللتين تنظران بشبق! أشار لها أن تميط خمارها، فأماطته على الفور ونشرت شعرها.

داهمه ألقها ونطح قلبه؛ وجه ساحر حتى الذهول، شعر فاحم ينسدل على الكتفين، جبين واسع، خدان لهما لون التفاح الشامي، أنف يرتفع بشموخ، شفتان ممتلئتان بصبغة الأرجوان، ذقن يشكل مع رقبتها ما يشبه الطريق إلى حريرها وياسمينها.

كانت تطل عليه من عليائها غير العالي، تنظر إليه وتشعله بالرغبة، وتحرك كوامن حنينه وأنينه، ارتبك وشعر بيديه ترتجفان، وخانه الكلام.

أعادت لثامها، وسمع صوتها قبل أن تغلق النافذة: اعتلِ السور وتعال إلى مخدعي عندما ينتصف الليل.

أحكمت إغلاق النافذة. ذهبت، راحت، اختفت. لحظة حلم، لحظة عبرت مثل لمعة برق أعقبها في أعماقه ما يشبه هدير رعد.

ظل واقفًا بذهول.

كان عليه أن يجلس بعد أن شعر بالدوار. نظر إلى الحائط أو السور الذي يفصل بين بيته وبيتها، وحاول أن يتخيل فناء البيت،

والنافورة، والحديقة، والباب الذي يتعين أن يكون مفتوحًا، والسلالم التي يتعين أن يصعدها ليصل إلى مخدعها، مخدعها بحريره ووسائده وطنافسه وعطوره وغواياته. وذهب بعيدًا في التخيّل حتى وصل إلى اللحظة التي يتذوق فيها عسيلتها وتتذوق عسيلته.

مر وقت طويل وهو يخترع أحلامًا يعجز الشيطان عن اختراعها، أحلام يقظة أو أضغاث أحلام. كان الجنّي قد حلّ في جسده تمامًا.

***

أنفق الوقت بالانتظار. ثمّ استحم وتعطر ونظف أسنانه بالمسواك ولبس أفخر قمصانه الهندية. وأفضل سراويله الفارسية، وشذب شعره بالموسى وغمر وجهه وكتفيه وصدره بعطر الورد، وظل ينظر إلى المرآة يتفقد شاربه ولحيته وحاجبيه.

جاء المساء، حلت العتمة. لكن منتصف الليل لا يزال بعيدًا. استلقى على سريره، أتعبه الانتظار، أمضّه الخيال، أرهقه الترقب.

نوافذ بيتها مغلقة. يظهر من بين الشقوق ضوء شحيح. ما الذي يحدث وراء تلك النافذة؟ أتراها تتزين وتتعطر، وتلبس فاخر الثياب، ما هو شفاف وخفيف؟

لا صوت من وراء النافذة، ولا رائحة. لعلها تدخر الماورد والمسك والياسمين إلى لحظة العناق.

***

أزفت اللحظة، وحان وقت المغامرة الجسورة. كل شيء على ما يرام. كل شيء أصبح في متناول اليد. كل شيء تسبقه اللهفة وسحر الغواية، وبذخ الخيال. ألقى على نفسه نظرة أخيرة في المرآة، ولم ينس أن يضع فردة القرط في جيبه.

تسلق الحائط. وبقفزة واحدة، أصبح في فناء دارها. كانت ثمة فوانيس تضيء على جانب السور ويصل ضوؤها الشحيح إلى النافورة والمدخل، لكنه صعد الدرجات بخفة دون أن يساوره خوف أو قلق.

كان الباب مغلقًا. حاول أن يدفعه برفق لكنه لم يفتح. انتظر أن تأتي وتفتحه، لكن الوقت يمر وهي لا تأتي. فكّر فيما يتوجب عليه أن يفعل، لم لا يطرق الباب برقّة ليشعرها بقدومه؟ كان كل شيء صامتًا، ولا حركة سوى حركة أغصان شجرة النارنج القريبة منه.

طرق الباب طرقًا خفيفًا وما من مجيب، فكّر أن يعود من حيث أتى، لكنه أبعد الفكرة. وفي لحظة، وجد نفسه يطرق الباب بقوّة. اندفاعة طائشة غير محسوبة، وواصل الطرق.

أخيرًا، فتح الباب وأطلّ خادم عجوز يحمل شمعة وينظر إليه بدهشة، وفي الوقت نفسه، جاء جنود من الشرطة الذين يحرسون المكان وقد سمعوا طرقه للباب، ونظرت إليه الأعين شزرًا.

الرجل العجوز ينظر إليه بخوف وقلق، والشرطة الذين يلبسون الميري ويضعون على رؤوسهم القلبق وجّهوا إليه طبنجاتهم.

سأله أحدهم: من أين دخلت؟

وسأله الثاني، وهو ينظر إلى ثيابه الفاخرة، وكأنه يستبعد أن يكون لصًّا: هل أنت قريب البيك الأوضباشي؟

لم يجب. شعر أنه وقع في فخ، وأنّ مكيدة قد دُبرت له، فظل صامتًا.

– هل أوقظ سعادته؟

سأل الخادم، فأجابه كبير الحرس: لا. سنأخذه إلى المخفر.

قال ذلك، ثم قام مساعداه بتكبيله، واقتادوه إلى المخفر.

***

في المخفر، كان جنود عابسون من رتبة الصناجق يلبسون لباس الشرطة الأسود ويتعممون بالقلبق، وجندرمة يحملون العصي الغليظة، وبصاصون يلبسون الملابس المدنية، وضباط من رتبة القلقات، فالمكان مكتظ، ويبدو أنه المخفر المناوب الذي تحال إليه جرائم المدينة ومشاكلها في ليلة النحس هذه.

أناقته ووسامته ولبسه لفتت نظر الصناجق والبصاصين والقلقات، فبان كما لو أنه ابن الوالي، أو ابن الشهبندر، أو ابن آغا المستحفظان.

عندما مثل أمام الضابط المناوب، عامله برقّة. لكن الضابط عندما علم أنه دخل بيت الأوضباشي منتصف الليل خلسة، تجهّم ووجّه إليه صفعة، وعامله بغلظة.

لم يحتاجوا لاستعمال أكفّهم أو كرابيجهم لاستنطاقه؛ فقد سرد لهم ما حدث بدقة، ووصف لهم المرأة وصفًا دقيقًا، وفهم من خلال غمزهم ولمزهم أن لها سوابق، وأن قضايا عديدة قد مرت على مخفرهم شبيهة بقضيته.

وما دام الأمر لم يكن متعلقًا بالمس بصاحب السعادة الأوضباشي، أو سرقة بيته، فقد اكتفوا بجلده ثلاثين جلدة، ومصادرة قميصه الهندي، وإنذاره بالرحيل من بيته المجاور لبيت السيد المبجّل في غضون يومين.

***

الفصل الثامن عشر

عاد إلى البيت منهكًا. صعد وسط عتمة حالكة، صعد السلالم بصعوبة. وبالكاد قادته قدماه إلى غرفة نومه، ارتمى على السرير، تمدد على بطنه وأسند رأسه في طيات الوسادة. كان الألم يتزايد؛ فالكرابيج أدمت جلده. أغمض عينيه وهو يفكر بهذا الكابوس الذي يشبه فجيعة.

حضر في مخيلته أبوه أحمد آغا وأمه بهنانة، وحضرت صورة السيدة، سلسلة من الصور: بيت على التلال، قصر السيدة، عيناها الحانيتان، لوحتها ودفء روحها. عند القذارة نتذكر الطهارة. مرت في مخيّلته صورة يافا: دكان في السوق، أبراج ومدافع، رائحة صابون، خرير نهر، ظلال أشجار عالية، بساتين برتقال، بيوت متدرّجة حولها سور، شباك صيادين، رائحة سجق، غزل ونسيج، فخّار وخمور، معاصر زيت، خشب أرز، صخرة أميرة، جامع كبير، سبيل ماء، شجرة حرير، دودة قز، جبل ملح.

عادت لذاكرته يافا، وبكى.

بكى وداهمه حنين للسيدة ممزوج بالوجع، حنين لم يستيقظ في قلبه منذ أن غادرها.

نام على وجع، أغفى على نعاس حارق، سقط في بئر الكوابيس، والأحلام ذات الفك المفترس. رأى فيما يرى النائم أنّ الحوت ابتلعه وجاب به البحار ثمّ لفظه على شاطئ مهجور. كان

عاريًا، نبتت فوقه شجرة وظللته، أوراقها سترت عورته. عاد الحوت وأطلق نداءً كالعويل، كان ينتظره ليعود إلى البحر ويبتلعه ثانية، ويتركه يسبح في أنهار عروقه. خرج وحش هائل وجعل الأمواج تغرق الشاطئ والمدينة. التقطه الحوت وأدخله إلى بطنه دون أن يمزقه بأسنانه، وجاب به البحار، ثمّ لفظه قبالة سواحل الأناضول، فالتقطه بحارة يعملون في أحواض صناعة السفن، وهناك التقى بالجارية التي ما زالت تحتفظ بوشم شفتيه على نحرها، وطلبت منه أن يطبع وشمه على خدها الآخر، ثم ألقت بنفسها في البحر، وسحبتها الأمواج إلى العمق، وتحولت إلى حورية.

اكتظت أحلامه، وفي الصباح تبخّرت. وحده حلم الحوت الذي ظل عالقًا في ذاكرته عندما استيقظ. لم ير المرأة في منامه، المرأة التي نصبت له كمينًا ووجهت له لطمة هزّته. وتركت آثارًا موجعة على ظهره، وفي نفسه وقلبه، وغيّرت مزاجه، وقلبت حياته.

اغتسل، وبدّل ثيابه. أشعل الموقد، شرب قهوته.

لم يجرؤ على النظر إلى النافذة. جمع ملابسه وكتبه في حقائبه، وقرر أن يترك المكان ويرحل إلى أحد الخانات في حي باب شرقي البعيد.

***

استأجر غرفة في الخان الذي يؤمّه الغرباء في باب شرقي، الذين يصطحبون خيولهم وعرباتهم ومواشيهم، غرفة منعزلة بعيدة نوعًا ما عن الضجيج والإسطبل والروائح الكريهة.

هنا، لا فسقية ولا شجرة ليمون، لا عليّة ولا موقد، ولا نافذة تطل منها غواية. هنا يحس بالغربة والوحدة والعزلة. هنا، لا يشذب شعر رأسه ولا شعر ذقنه. هنا. لا يشحذ ذهنه من أجل مهارات في فن العمارة، ولا انشداد لنقش وزوايا وأقواس ونمنمات وخط كوفي وفسيفساء. هنا، يحتاج إلى أن يهرب من الزمن، ومن التفكير والتأمل.

لم يخرج لمدة يومين، وفي اليوم الثالث، ذهب لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأموي.

في اليوم الرابع، خرج يتمشى في الأسواق، وظل يتسكع في شوارع الصالحية حتى حلول الظلام.

في اليوم الخامس، عاد إلى مدرسته (مدرستي ملكي سلطاني)، فاحتفى به رفاقه، وسألوه عن أسباب غيابه، وسألوه أسئلة أخرى، لم يجد لها جوابًا.

ظل الحوت يواصل ابتلاعه في الليالي التالية ويقذفه على شواطئ الأناضول. ظل يصحو على صداع.

صار مشغولاً بحلمه الذي لا يفارقه. وكان بوده أن يجد من يفسّره له.

فتّش في مكتبات الورّاقين عن كتاب ابن سيرين. حصل عليه وقرأ ما ذكره من تفسير عن رؤية حيوانات البحر، بما فيها الحيتان. لكن ذلك لم يشف غليله.

***

ذات يوم، وبعد صلاة العصر، وقبل أن ينصرف، توجه إلى الإمام وانحنى ليقبل يديه، لكن الإمام أمسك به وقال له: اجلس يا بني.

استجاب وجلس قبالة الشيخ الجليل. نظر له الشيخ برقة، وقال: أيها الشاب! هل أنت غريب عن هذا البلد؟

هزّ رأسه ولم يقل شيئًا. لكن ملامحه كانت تقول كل شيء.

قال له الشيخ: حضورك الدائم لفت نظري، ولفت نظري أنك مهموم يا بني. هل أستطيع أن أساعدك؟

أجابه: أمر في مرحلة نقاهة من مرض يا سيدي. لا أحتاج شيئًا. ولكني كنت أرغب في أن أطرح عليك سؤالاً، ولكني كنت في كل مرة أتردد.

– على الرحب والسعة يا بني.

قال الشيخ. فطرح يوسف سؤاله:

– أرى فيما يرى النائم أحلامًا تؤرقني.

ظل الشيخ يستمع، فأضاف: أرى كل ليلة أحلامًا عجيبة، أغربها أنّ حوتًا يلاحقني ويبتلعني، ثمّ يقذفني من جوفه.

– خير يا بني، خير إن شاء الله، خير.

قصّ يوسف على الشيخ حادث الحوت الذي جرى معه في بحر يافا، وقص له ما يحدث له هذه الأيام من رجوع الحوت إلى أحلامه.

صمت الشيخ قليلاً، ثم قصّ عليه قصة النبي يونس: ارتبط اسم الحوت باسم النبي يونس عليه السلام، فعندما كان النبي يونس في الفلك، هبت الرياح والعواصف، وأشرف ركابها على الهلاك، فعملوا على تخفيف أحمالها، ورموا كل ما هو ثقيل لكي لا تغرق، وقيل إنهم أرادوا أيضًا تخفيف حملها من الركّاب، فطلبوا من يونس عليه السلام أن يقفز منها، وقيل غير ذلك. لكن النبي يونس قفز إلى الماء والموج، فأرسل له الله سبحانه وتعالى حوتًا التقطه وخبّأه في جوفه، ونقله إلى بر الأمان، وقذفه إلى شواطئ فلسطين.

كان يوسف يعرف قصة النبي يونس، فكل أهالي يافا على معرفة بها، بل إنهم يعتقدون أن الحوت قذفه على شاطئ يافا، ولذلك، سمّوا التلة التي قذفه عندها تلة يونس. وكان حادث الحوت الذى جرى معه قد صار ذكرى من ذاكرة المدينة. وللمدينة تراث وملاحم وأساطير.

واصل الشيخ حديثه: لا تقلق يا بني، فإن مفسري الأحلام في تراثنا فسّروا رؤية الحوت تفسيرًا طيبًا، وقال معظمهم إن رؤية

الحوت تدل على دخول معابد الصالحين والمتعبدين. كما فسّروا أن رؤية حوت يونس في المنام تعني الفرَج بعد الشدة، والأمن بعد الخوف، والملك لمن يليق به الملك، فلعلّ ما رأيته هو حوت يونس. ويجمع الفقهاء على أنّ حوت يونس كتب له أن يظل حيًا حتى يوم القيامة.

وأنهى حديثه بقوله: قبل أن تنام، اقرأ سورة يونس، فهي سورة الرحمة التي تمنع عنك الرؤى غير المستحبّة.

***

خرج من المسجد وهو يفكر بكلام الشيخ. ولا بد أنّ بعض الطمأنينة قد تسللت داخله، ليس لكلام الشيخ بحد ذاته، لكن لأنه باح لأول مرة بشيء مما يقلقه ويعذبه. قرر أن يتمشى في حارات باب شرقي وأزقته قبل أن يعود للخان.

مشى في طرقات لم يسبق له أن مشى بها؛ ساحات تعج بالباعة المتجولين وتغص أيضًا بالمتسوقين، رجال بقفاطينهم، ونساء بعباءاتهن السوداء، بضائع مرصوصة بعضها إلى جانب بعض: فستق مقشور وفستق غير مقشور، زلابية تقلى في وجاق واسع، فواكه وتين مجفّف، عراجين تمور معلّقة، فطائر مغمورة بالزبدة، عطارون يبيعون عقار عودة الشيخ إلى صباه، وحدّادون يحذون الخيل، وصنّاع يبيّضون الأواني النحاسية، ويجلخون السكاكين على حجر المسن.

اشترى فطيرة وجلس يأكلها على مطلع درج يفضي إلى زقاق. كان جائعًا فأكل بنهم، مثلما كان آخرون يأكلون بنهم وبلا حـــرج. وكان المارة يمرون، والكلاب والقطط تبحث عـــن رزقهـــا دون أن ينهرها أحد.

فجأة، هجمت عليه رائحة عطر نافذ، سقط أمامه أو حولـــه، وارتطم بأنفه ونفذ إلى صدره وعروقه وشرايينه. كانت امرأة تتلفـــع بعباءة، وتغطي وجهها بالبرقع واليشمك. كانت تقف وتتأمل البضائع المعروضة على بعد أمتار منه وسط الزحام، ونداء الباعـــة، وهـــرج الناس ومرجهم. تقف دون أن ينتبه أو يكترث أحد بعطرها، أو لعلّ عطرها خُصّ به وحده.

أمالت رأسها ونظرت إليه. وقعت عيناها عليه. وقع عطرهـــا مصحوبًا بلغة وحشية من عينيها. انكسرت نظراته ولم يقوَ علـــى أن يواصل التحديق.

مشت خطوة، وعبرت من أمامه وغمزتـــه بطـــرف جفنيهـــا، وتعمدت أن يمس طرف عباءتها ساعديه. وقالت بما يشـــبه الهمـــس: اتبعني.

***

الفصل التاسع عشر

تبعها دون تلكؤ. لم يفكر أو يتردد قليلاً أو يشاور نفسه، أو يقوَ على مقاومة إغرائها. لم يكن في وضع يسمح له بتذكر صفعات ضابط القلقات أو كرابيج الصناجق أو أحلامه المشوّشة.

مشى خلفها وهي تتأود أمامه وتشد عباءتها حول وسطها وخصرها النحيل، ما يبرز ردفيها.

مشى كما لو كان يمشي وهو نائم، كأنما هو إبرة خياط عمياء يجذبها مغناطيس. مشى وراءها في الزقاق الضيق الذي تتجاور أبواب بيوته أو تتباعد، والذي تتدلى من شرفاته نباتات الزينة وزهورها ذات الألوان الفاقعة، أو تطل من وراء الشبابيك أصص العطرة والسجادة والأرطاسيا والورد الجوري. تمشي دون أن تلتفت إليه، دون أن تنظر إليه وترى إن كان يتبعها أم لا. كأنها تعتبر أنّ من يسير وراءها لا يستحق العناء.

مرت من تحت قنطرة يعلو فوقها بيتان متصلان وقد صار الزقاق خاليا. توقفت لحظة، فتوقف تاركًا مسافة بينه وبينها. خطر له أنها ستستدير وتنظر إليه أو تكلّمه، لكنها لم تفعل، ثم واصلت المشي، لكن مشيها لم يطل. توقفت أمام باب كبير، له باب صغير في وسطه (خوخة)، وطرقت طرقتين فانفتح ودخلت وتجاهلته، وأغلقت الباب وراءها.

وقف كالأبله. تسمّر مكانه. لم يكن ينتظر شيئًا. كان قد أحب هذا العبث، وهذا الجنون الذي يعيده إلى وعيه، كأنما هو بحاجة إلى

هزّة جديدة تجعله يصحو من هزّة أفقدته توازنه، صار بإمكانه أن يدرك أن عِشرَة النساء صعبة، وأنّه صار بهلول هذه المدينة التي سئمت من الحكمة والنظافة وجماليات الزوايا والأروقة والمآذن.

شعر للحظة أنه يفيق من غيوبة وأنّ عليه أن يعود أدراجه ويتناول فطيرة ثانية. لكن الباب انفتح فجأة وأطلت من وراء ضلفته يد تكسوها الأساور حتى رسغها، تشير إليه بالدخول.

دخل وانحنى ليعبر باب الخوخة المنخفض. دخل فناء الدار الواسع، ومشت أمامه بعباءتها وقبقابها ويشمكها.

بالفناء، كسائر البيوت الدمشقية، فسقية ونافورة وياسمينة وأصص مصفوفة على الجانبين مزروعة بالزهور والورود. خطوات قليلة ووصلت باب البيت. دخلت ودخل وراءها إلى صالة الاستقبال. قالت له دون أن تلتفت إليه: اجلس.

جلس على أقرب أريكة. الصالة أنيقة؛ الأرائك موزعة بانتظام وأناقة، وحولها في الزوايا تحف فضّية، ونحاسية، وزجاجية، وجلدية.

استدارت فجأة وخلعت العباءة دون أن تخلع البرقع واليشمك، ظهر ثوبها الجميل، رداء (اليلك) الطويل أزرق اللون، مطرز على الجانبين بخيوط الفضة، واسع الأكمام، واسع فتحة الصدر.

كان مبهورًا بفخامة الأثاث والتحف واتساع المكان، ومأخوذًا بالمرأة التي ظلت واقفة تنظر إليه من عل بتحدٍّ من عينين تشبهان عيني ذئبة تكمن لاصطياد الفريسة وتنشب في وجهه مخالب حدقتيها.

لم تكن هاتان العينان غريبتين عليه. كأنهما العينان اللتان أطلتا عليه من النافذة. وتساءل في داخله: هل تتشابه العيون؟

أماطت البرقع ونزعت اليشمك، وأطلقت شذى أسرارها. وافتر فمها عن ابتسامة وأسنان كاللؤلؤ، وواحدة من أسنانها كان ملبّسة بالذهب.

هي نفسها، هي بجاذبيتها، برقتها ومكر غوايتها، بغموضها، بنارها، بهدوئها وعنفوانها، بطهرها وفجورها، بإنسيّتها ووحشيتها.

قالت له: عرفتني الآن؟

هز رأسه، ولم ينبس ببنت شفة، على الرغم من أن سؤالها فتح له شهية الكلام.

قالت: أنت غاضب لأني خدعتك، أليس كذلك؟

كان بوده أن يقول: لماذا فعلت ذلك، لكنه لم يقل.

قالت: يلذ لي إذلال الرجال. تعمدت إذلالك.

شعر آنذاك أنها امرأة صعبة. كانت تتحدث إليه من عل، فقرر أن يقف ويواجهها من عل أيضًا.

قالت له: ابق جالسًا.

أجابها: أنت مغرورة، أنت أقل جمالاً مما توقعت.

عرفت أنه يكذب، لأن ما شاهدته من انفعالات وجهه لحظة أماطت البرقع ونزعت اليشمك كان مختلفًا، وإحساسها لا يكذب.

جلست، وقالت له بقسوة لا تخلو من الغنج: اجلس.

تلكأ قليلاً ثمّ جلس.

جلست قبالته تفصلها عنه طاولة قصيرة من خشب الأرز، فوقها مجموعة تماثيل صغيرة لخراف منحوتة من عظم العاج.

بادرها بالكلام قبل أن تبادره، متسائلاً: من أنت، إنسية أم جنية؟

نظرت إليه كأنها تحاول اختبار قدرته على التحدي، ولاحظت أنّ صدرها يلفت نظره، وأنّه يختلس النظر إلى فتحة صدرها التي تفصل ما بين النهدين، فأفسحت له مجالاً للمزيد من البصبصة، وصمتت قليلاً، وبعد ذلك أجابت: الاثنان معًا؛ في النهار إنسية، وفي الليل جنيّة.

وأضافت: في النهار أكون سلسة، وفي الليل متوحشة.

صمتت وهي تنشب مخالب عينيها في عينيه من جديد: أنا قاتلة الرجال، لا أذبحهم بالسكين، إنما أذبحهم بسلاح المتعة واللذة وطاقة الجماع. أذبحهم بناري وشبقي. أمتص كل الطاقة الكامنة في أجسادهم. أنهكهم، فأنا بقوة عشر نساء. فهل أنت مستعد للموت اللذيذ؟

قالت ذلك، وافترّ فمها عن ابتسامة ملتبسة، فبانت سنّها الذهبية، وبدت إذ ذاك مثل ناب حية زرقاء.

داهمه وجل، وبدت له قبيحة.

فردت شعرها، ونادت بصوت عالٍ على خادمتها لتحضر الشراب.

ظل صامتًا يفكّر، وغض بصره.

جاءت الخادمة بالشراب. خادمة بيضاء الوجه، شقراء، صغيرة، دقيقة الملامح، لها خصر دقيق، ترتدي قفطانًا نسائيًّا يكشف جزءًا من بطنها ويكشف سرّها، وتضع قبّعة جميلة على رأسها تسمح لشعرها الأشقر بالانسدال بلا حرج.

وضعت إبريق الشراب وعدة كؤوس، واستدارت برشاقة، ثمّ انصرفت.

وإذ لاحظت أن نظراته انصبت على قامتها المبهجة، بادرت بالقول: هل أعجبتك؟

ابتسم، وهز رأسه وأجاب: جميلة. لعلّها جارية من بلاد الغال.

ردت عليه على الفور: إنها (نهاوند). جارية تتكلم سبع لغات، وهي نتاج ليلة حب بين عسكري إنكشاري وغانية نمساوية في إحدى حانات القرم.

وأضافت: هي لك إذا نجوت من الموت ليلة زفافنا.

كان حائرًا، فما دار بخلده لحظة أنه سيواجه مثل هذه التجربة، فعاد لسؤاله: قبل أن تتحدثي عن زفاف، قولي لي: من أنت؟

أجابته: أنا الملكة.

ووقفت. استدارت مستعرضة جمال قوامها، ثمّ خلعت رداءها الفضفاض، فانكشفت ساقاها وذراعاها، ومساحة من صدرها، وانسدل شعرها على كتفيها، ومن جديد، أطلقت شذى سحرها.

– اسمك يوسف. أليس كذلك؟

ابتسم: كيف عرفت؟

أجابته: قلت لك إنني مزيج من الإنس والجان. أنا مارجة من اختلاط نار البراكين بسواد الدخان. أنا في النهار (أندروميدا)، وفي الليل (ميدوسا). أندروميدا التي تسقيك من عينيها خمرًا، وفي الليل، ميدوسا التي تحولك إلى حجر. أنا ساحرة ومشعوذة أعلم ما في الغيب وأكون قبيحة وشريرة أحيانًا، وفي أحيان أخرى، أكون مثل قطعة نقود ذهبية سكّها الحاكم الإغريقي سكاريوس الذي حكم بلدكم يافا. أما أنت، فإنك في منزلة بين منزلتين، من جهة جميل ومذهل، ومن جهة ثانية قبيح وكاذب. يتعين أن تكون غامضًا ومختلفًا مثلي، نهارك أسود، ومساؤك أبيض.

تعمّدت إهانته، واعتبر ذلك لازمة من لوازم لعبتها، وأدهشه كلامها الذي ينمّ عن معرفة بالأساطير، وفهم كلامها عن أسطورة

الأميرة أندروميدا، الأسطورة التي يعرفها كل أهالي يافا، أيقن أنها تريد أن توحي له بمعرفة ودراية بذاكرة بلده.

ظل صامتًا، وظل يتأملها وهي تقف وتتجوّل في الصالة كأنها تبحث عن شيء ما، ثمّ تذهب إلى داخل البيت.

غابت وتركته لتداعياته. طال غيابها وفكّر بالخروج، فكّر بالهرب. لكنه قرر ألا ينتهي الأمر بهزيمة.

عندما عادت، كان يسبقها عطرها النفاذ، وكانت قد استبدلت بردائها قميصًا شفّافًا يكشف عريها أكثر من السابق. عادت تحمل في يدها مروحة مفرودة على اتساعها مرسومًا عليها نمنمات وزهرة الباقونيا، وتزيدها ألقًا.

جلست، وصبت له من الإبريق الزجاجي كأسًا من مشروب الزنجبيل.

– اشرب ولا تخف؛ الزنجبيل المحلّى بالعسل يقوي الباه. أعني يقوي طاقتك.

لم تمتد يده إلى الكأس، وإنما قال مرة أخرى: من أنت؟

أجابته بدلال: أنا الملكة.. أبحث في رعيّتي من الرجال عمّن هو أكثر وسامة وأكثر جمالاً وأكثر رجولة وأصطاده وأروّضه، وأتزوجه، وأقيم له حفل زفاف، واقتله ليلتها، أميته موتًا لذيذًا، وأستمتع أكثر في لحظات احتضاره.

نظرت إليه نظرة لبؤة، وأضافت: أنا ملكة، أنا أشبه ملكة النحل. أرأيت كيف تستمتع ملكة النحل بالزفاف. يتنافس الذكور على خطب ودّها، فتختار أجملهم وأكثرهم قدرة وطاقة، ثمّ تبدأ رحلة السيطرة عليه، يتقرب إليها، لكنها لا تستجيب. وتعمل على إذلاله وتلويعه، وبعد أن تخضعه، تبدأ معه رحلة حب في الفضاء، تطير فيلحقها، هرب منه، فيتذلل لها، وبعد أن تروضه تمامًا، تسمح له أن يحتضنها في الفضاء ويسيطر عليها، ثمّ هبط معه إلى غصن شجرة، وتسمح له بتلقيحها بكل جنونه، بينما هي مستمتعة بامتصاص طاقته حتى نفادها، وما إن ينتهي منها حتى يموت وينقلب على ظهره، ويصبح طعامًا للنمل.

هكذا أنا.. أنا الملكة.

أدهشه كلامها مرة أخرى، وحديثها بلا مواربة، وجرأها، وراق له فجورها، فقرر أن يواصل اللعبة معها.

– ولماذا وكيف اخترتِني من بين رعيّتك من الذكور؟

وضعت رجلاً على رجل، وحرّكت المروحة بخفة ورشاقة، وقالت: أنا صريحة لا أكذب مثلك. رأيتك مرة في زقاق المنطقة التي تسكنها، كنت خارجًا لتوّك من بيتك. كنت أزور بيتًا يبعد قليلاً عن بيتك.. سحرتني من النظرة الأولى.. حاولت أن ألفت نظرك وتركت العباءة تنزلق عن كتفي لكنك لم تنتبه لي، ومنذ ذلك اليوم، صرت أتربص بك وأتابعك، وأعرف مواعيدك، وقررت أن أصطادك.

توقفت قليلاً، وتناولت كأس الشراب، وأخذت رشفة، وأشارت له أن يشرب، ثمّ أكملت حديثها: عشقتك، فأنت جميل وغريب، وأنا يعجبني الغرباء، وقررت أن أوقع بك، أن أهينك، فنصبت لك فخًا، وعملت حيلة بمساعدة نهاوند، لا تسألني كيف صعدت إلى تلك الغرفة ذات النافذة التي أطللت عليك منها، فأنا ساحرة ومشعوذة وتخيّل ما شئت، أستطيع أن أمر من جانبك دون أن تراني، أستطيع أن أدخل بيتك وأنام قربك دون أن تشعر بي، بل إنني أستطيع أن أمارس قدراتي في التحوّل وأحولك من رجل إلى حيوان أو طائر، أستطيع أن أحوّلك إلى جرو أو بومة أو حشرة، وإذا طاوعتني وطلبت الرحمة، أحوّلك إلى حصان أو ثور أو ثعلب.

– ألم تقولي إنك تريدين قتلي؟

ضحكت ضحكة ليس لها معنى، ضحكة اصطناعية، وقالت: إذا كنت فحلاً وتمكنت من الصمود أمامي، فسوف يتأجل موتك أو تحوّلك إلى ليلة أخرى، لكنني أفضّل أن تموت في تلك الليلة بين أحضاني، أليس الموت بين أحضاني هو الموت اللذيذ؟

اعتدلت، ثم انتقلت إلى أريكة ملاصقة لأريكته، وقالت: سيكون زفافنا في الموعد الذي أراه، أختار المكان والزمان، ونتزاوج كما تتزاوج ملكة النحل وذكرها، نطير في أرجوحة، وعندما تمتلكني نذهب إلى المخدع.

ضحك، وأجابها: أيتها المجنونة، تتحدثين كما لو أنني موافق على هذا الجنون.

خلعت قميصها، فأغمض عينيه. خلعت قميصها، فاختلطت الرغبة بعطرها العميق، عطر مثير لم يسبق له أن شم مثله.. لم يستطع المقاومة.

ضمّها إلى صدره، فتمنّعت، وانسلّت من بين ذراعيه، وقالت: ليس الآن.

ثم ابتعدت، وتناولت قميصها فلبسته، ووقفت وبحثت عن عباءها، وارتدها. أغلقت نوافذ غوايتها وأبواها. وقالت بنبرة صارمة: انصرف الآن ولا تعد إلى بيتي إلا حين آذن لك.. أعرف الخان الذي تنزل فيه. ستأتي إليك نهاوند وتخبرك عن موعدنا القادم.

كانت وجنتاها محمرّتين، وعيناها أيضًا. كان المساء يقترب، فلعلها في حالة تحوّل. رغم ذلك، وقبل أن يستدير. قال: لم تقولي لي ما اسمك.

أجابته بصوت خفيض: اذهب بدون إبطاء.

أجابها: منذ اللحظة، سأسميك ذات السن الذهبية.

دفعته بعصبية كي يخرج، فاستدار ومشى، عبر الباب إلى الفناء. في طريقه إلى الباب، كانت العتمة تكمن وراء باب الخويخة.

***

الفصل العشرون

في باحة الخان، في المكان المخصص للطعام، كانت الموائد تمتد على شكل دائرة، وعلى الطاولات الصغيرة، كانت الأواني الفخارية مصفوفة ومليئة باللحم والمرق والخضار، وإلى جانبها، صحون تحتوي على الثريد والحمودية واللّكباج، ويزيّن كل مائدة طبق فاكهة، وباقة من زهور البنفسج.

المناسبة حفلة إفطار يقيمها صاحب الخان لمناسبة صوم يوم عاشوراء.

وجد يوسف نفسه وسط مجموعة من التجار المسلمين القادمين من آسيا الصغرى، والصين، والهند، والمجر، والبلغار، وبلاد الألبان، ومعظمهم يتكلم لهجات عربيّة بحكم ترددهم على بلاد الشام والحجاز وما بين النهرين ومصر وبلاد المغرب للتجارة والحج. كان ألبانيون يتاجرون مع دول أوروبا ويتاجرون أيضًا مع الدولة العليّة يتحدثون عن ثورة للدهماء في فرنسا أطاحت بالملك والنبلاء والإقطاعيين ورجال الكنيسة، ثورة أحدثت فوضى، وأوغلت في فصل الرؤوس بالمقصلة. ولم يعد الناس هناك يأمنون على حياتهم.

كانوا يتحدثون أثناء انتظار موعد الإفطار، ورفع أذان المغرب. العديد ممن لديهم حب الاستطلاع وسماع الأخبار التي يأتي بها التجار والرحالة استمعوا باهتمام. كان الناس يعرفون أخبار ما يجري في بلاد الواق واق أو بلاد ما وراء البحار من هؤلاء التجار الذين لا يكفّون عن التنقل والارتحال.

عندما رُفع الأذان، توقف الجميع عن الكلام وانهمكوا في الأكل، أكلوا بشراهة، وابتلت لحاهم بالثريد، وأياديهم بالمرق.

كانت ثمة مائدة أخرى في ركن بعيد للنساء اللواتي يرافقن أزواجهن.

كانت المرة الأولى التي يجلس بها يوسف في هذه الباحة الملحقة بالخان ويختلط بالغرباء المقيمين فيه، ويستجيب لدعوة صاحبه، هذه الباحة التي يجلسون بها لشرب العصائر أو المشاريب الساخنة، والتي تفضي إلى الحمّام الذي يستحمون به.

بعد تناول الإفطار، صلوا صلاة المغرب، ثم جلسوا لتناول الفواكه والقهوة، وعاد الحديث والمسامرة.

بدأ التجار القادمون من الصين، ممن اعتادوا على سلوك طريق الحرير، يتحدثون عن بضائعهم، وعن مغامراتهم الجسورة، وما يواجهونه من مصاعب ومكر وقرصنة.

كما تحدث الآسيويون من الأوزبيك والقازاخ والتتار، القادمون من بخارى وسمرقند وطشقند وخوارزم وضفاف نهر جيحون، ووادي فرغانة. استمع إليهم وإلى أحاديثهم. كانوا يلبسون ثيابهم التقليدية، ويضعون على رؤوسهم طواقي مزركشة مستديرة، ويتدثرون بمعاطف صوفية، ولا يتوقفون عن الحديث. يتحدثون عن جمال نساء الأوزبيك. ويتفاخر القادمون من (ألما آتا) بشرب حليب الخيول الذي يقوّي بنيتهم ويجعل الواحد منهم أقوى من عشرة أحصنة في سرير امرأة. ويتفاخر آخرون بحصادهم الوافر من القطن

والجلود والحبوب والأرز الذي يملأ محافظهم بالفضة والليرات والذهب. وكان صاحب الخان يتنقل بين الجموع، ويرحب بكل مجموعة على حدة، ويبالغ في الترحيب.

***

وبعد الفاكهة والقهوة والحلوى، تجمّع أوزبيك وتتار آسيا الصغرى وشكّلوا جوقة، يغني أحدهم، ثم يعطي الدور لرفيقه، ثم يواصل الثالث، فالرابع، وهكذا.

غنّوا على إيقاع آلة تقليدية تشبه العود، أخرجها أحدهم من حقيبته. غنّوا بلغة القفجاق القديمة أغاني الرعاة والحجاج والتجار الذين يعبرون مدينة تاراز، محطتهم وهم يعبرون طريق الحرير.

وعند الغناء، اقتربت النساء، ووجدن لهن أرائك قريبة فجلسن يستمعن وقد غطين وجوههن بالخُمر، ولم تبد للناظر إليهن سوى باقة صغيرة من العيون.

امتد العزف والغناء. لم يفهم يوسف لغتهم، ولكنه شعر من خلال مساحات مقاماتهم وتلاوينها وتدرجاتها، شعر وأحسّ بأحزانهم ومسراتهم، وعشقهم وحنينهم، وجمال الكحل في عيون حبيباتهم، واتساع المدى أمام قوافلهم، وسحر خيالهم الذي يعبر حدود المستحيل، وفضة أحلامهم المرشوشة بذهب الأساطير.

وانتبه يوسف إلى رجلين تدل ملامحهما ولباسهما على أنهما من الهند، ينتحيان جانبًا، ولا يشاركان التتار بحفلة السمر، وإن كان

الغناء يصل إلى مسامعهما. أثار ذلك فضوله، فقـــرر أن ينتـــهز أول فرصة للانضمام إليهما.

تسلل برفق واقترب منهما، حيّاهما واستأذن بالجلوس، ردا لـــه التحية، وأوسعا له مكانًا.

جلس، وسألهما إن كانا يتكلمان العربية، فهزّ كبيرهما رأســه بالإيجاب، وأضاف: نتكلم لهجة أهل البحرين وشيئًا من لهجة أهـــل الحجاز.

عرف أنهما من كلكتا، وأنّ أحدهما مسلم والآخر من الديانـــة السيخية، وأن السيخي صام تضامنًا مع رفيقه وشريكه في التجـــارة، لكنهما لم يشاركا الآخرين الطعام لأنهما نباتيان ولا يأكلان اللحوم.

كانا لطيفين، ويتاجران عبر طرق الحرير، يبيعـــان الحيوانـــات والطيور النادرة والأعشاب الطبيّة، وذكرا له أسماء بضـــائعهم الـــتي يتاجرون بها، مثل الضفدع القرمزي، والنمور البنغالية، والنســـانيس البنيّة، والنسر الأبيض، وكذلك عود البخـــور، والـــتين الهنـــدي، والأحجار الكريمة.

وتحدثا عن الهند وأديانها، عن الديانات: الإسلامية، والمسيحية، واليهودية، والهندوسية، والبوذية، والجاينية، والسيخية، عما يجمـــع بينها وما يفرق، لكن الجميع متعايش بعضه مع بعض.

وفهم من الحديث أنّ الديانة السيخية نقطة وسط بين الإسلام والهندوسية، فالسيخ موحدون يؤمنون بإله واحد وينكـــرون عبـــادة

الأوثان، كما أنهم يؤمنون بالمساواة بين البشر، لكنّهم كالهندوس، يقدّسون البقرة، ويؤمنون بتناسخ الأرواح.

وقالا إنهما يتاجران بالولايات التركية؛ لأنّ الإنجليز يحتكرون التجارة في الهند.

ولاحظ يوسف أن بعض أعين النساء تنصب نظراتها عليه، لكنّ انتباهه كان مشدودًا إلى حديث الرجلين، وكان أحدهما، وهو السيخي، يشرح في تلك اللحظة شيئًا عن تناسخ الأرواح، إذ عندما يموت الهندوسي أو السيخي، يحرقون جثّته، فتصعد روحه من بين النار والدخان إلى السماء، تنعتق الروح وتبحث عن جسد آخر لتحل به وتبدأ حياة جديدة، فإذا كان صاحبها طيّبًا، فإنها تحل في جسد طيب وتكون حياة جديدة سعيدة، وإذا كان شريرًا، فإنّه سيعيش في دورة حياة تعيسة في جسد كلب أو ضفدع أو ذبابة.

ثمّ عاد الحديث عن الإنجليز وشركتهم التي صارت تحكم الهند وتحتكر تجارة البر والبحر، بل وتسمح للقراصنة الأوروبيين باختطاف فقراء القرى القريبة من السواحل، وبيعهم كعبيد، كما تسمح لهم بصيد الحيتان في عمق المياه الإقليمية، وهو ما لا تسمح به للصيادين الهنود. وهنا، اغتنم يوسف الفرصة، فجرّ الحديث إلى الحيتان وسيرها، وذكر شيئًا عن حوت يافا الذي شاهده بأم عينه، ورآه في منامه. لكن الرجلين لم تكن لديهما معرفة بعوالم الحيتان، فاكتفيا بالاستماع، وإبداء الدهشة. وعرج الحديث في نهاية الجلسة على القصور القديمة وتاج محل ومعمار الفرس والسلاجقة، وكتب الحكمة

والأدب وسير الأباطرة في العصر الذهبي للهند، والأساطير والملاحم الواردة في ملحمة (الماهابهارتا) التي تتعلق بها قلوب الشعب الهندي.

كانت ليلة مؤنسة، أدخلت إلى قلب يوسف الفرح والسرور، وعندما عاد إلى غرفته، كان ممتلئًا بسلام نفسي وسكينة غامرة، ويقظة تغريه بالتأمّل.

يا لهؤلاء الرحالة الذين يذرعون العالم للتجارة والمتعة! يا لمغامراتهم الجسورة والشيّقة، المقترنة بالبهجة والمعرفة والاطلاع على أنماط التفكير وأساليب الحياة والعادات والتقاليد وثقافة الطعام والملبس، وتنوّع السلع النفيسة، واختلاف المدن والفصول والنساء والوجوه والحكايات، والأديان والعبادات والمعتقدات!

ظل يحدث نفسه، ويعيد. صار مفتونًا بفكرة السفر والرحيل.

ظل يعيش في هالة العوالم التي رسموها في مخيلته. حتى إنه كاد ينسى ما حدث له مع ذات السن الذهبية.

نام دون أن يطفئ السراج الذي كانت ذبالته على وشك الانطفاء.

نام نومًا عميقًا، وغلبت أحلام اليقظة أحلام ما يراه النائم.

كانت أحلامه بلون وردة جورية وزهرة لوتس، انتشى بنوم عميق ولذيذ.

وعندما صحا من نومه، صحا نشيطًا، فاغتسل وشرب قهوته، ثمّ أخذ يفكّر مليًّا بالرحيل والسفر وركوب الريح.

***

الفصل الحادي والعشرون

تسير العربة التي يجرها حصان بين البساتين في طريق يضيق أحيانًا، ويتسع أحيانًا أخرى. يمشي الحصان خببًا ثم يتباطأ.

بساتين تتدلى من على أسوارها وعلى الجانبين نباتات تطلق زهورًا قانية، وتطل من ورائها شرفات بيوت لها نوافذ بزجاج معشّق.

وبساتين بلا أسوار مزروعة بالخضار وأشجار الرمّان وقد حُمّلت أغصانها ببراعم وبنوّار أحمر قان، وعلى امتداد البصر مروج مطرزة بالزهور البرية: نرجس وحبق وقرنفل وعرف الديك وقرن الغزال، ومن ورائها نباتات عبّاد الشمس ترسم بساطًا أصفر فاقعًا للغاية، وعن يمين العربة تتدفق مياه النهر، وعلى الضفاف تنمو الأعشاب وأشجار شوكية.

الطقس يميل إلى البرودة، والأفق مغلق بغيوم سوداء على الرغم من أن الفصل ربيعي.

تسير العربة التي يسوقها حوذي يصمت طوال الطريق، ولا يجيب عن أسئلته. يجلس يوسف يمتع بصره تارة، ويفكر بما ينتظره من هذا اللقاء الذي عاند نفسه وسعى إليه.

الطريق إلى بساتين وادي بردى طويل، وهو يلقي نظرة إلى البساتين والمروج، ونظرة إلى ما وراءها، ونظرة ثالثة إلى ما في أعماقه من برازخ وأرخبيلات وجزر بعيدة، ونساء بعيون مكحولة، وحواجب مزجّجة، وذراعين كشجرتين تتفرع من كل منهما أربع

أذرع تمسك أصابعها بكتاب الحكمة، وزنابق الشهوة، وأساور لها رؤوس الأفاعي، وصولجان الحياة والموت.

يفكر ويرسم في خياله كل ما هو سحري وجنوني وعبثي وشيطاني، كل ما يتسم بالمكر والغدر والنطع والسيف والنزال والمبارزة والطعن والخسارة والفوز.

لم يستعد لهذا اللقاء، لكنّه قرر أن تكون له نهاية، نهاية ما، مثل حقيقة ما، أو أكذوبة ما، أو ضحكة ما، أو دمعة ما.

في جيبه فردة الحلق ذات الحجر الكريم بلونه الزبرجدي. وضعها في جيب قفطانه. فقد صاحبته من نقطة البداية. ويتعيّن أن تكفّ عن مرافقته في تراجيديا النهاية.

طاردته ذات السن الذهبية بكل جنون. هرّب منها، فلاحقته حتى داخل حرم "مدرستي ملكي سلطاني". وضعته في مآزق في الشوارع، وفضحته في سوق الصالحية التي تزدحم بالمارة، وادّعت أنه تحرّش بها، وناله وابل من الصفعات من أولئك الغيورين، فهرب وأطلق ساقيه للريح قبل أن يأتي البصاصون والصناجق.

ترك الخان وسكن في مرتفعات (تل منين)، فسبقته إلى هناك وهددته بفضيحة أمام الأهالي.

قالت له: سأذلّك قبل أن أمنحك جسدي. قالت له: سأمنحك قبلة الموت. قالت له: أيها الجبان! لماذا تخاف من منازلتي؟

سببت له القلق والصداع، فخطر له أن يترك المدينة ويعود إلى يافا، بل إنه مرّ على خانات باب شرقي وباب توما والمرجة والشيخ محيي الدين، بحثًا عن قافلة متوجهة إلى شرق الأردن أو القدس الشريف، ووجد قافلة تجار متوجهة إلى طبرية عبر مناطق الجولان، فقرر أن يرافقها.

لكنها ظهرت له، وأبلغته أنها ستلحق به إلى المدينة التي ولدت فيها روحها منذ آلاف السنين، روحها التي انتقلت إليها بالتناسخ عبر أجيال وأجيال من النساء الشريرات، وحلت بجسدها. قالت له: ألا تذكر أنني أخبرتك أن روحي تناسخت من روح ميدوسا التي تحوّل البشر إلى تماثيل من الحجارة. ميدوسا التي أغرقت مدينتكم يافا بأمواج البحر، وحوّلت بحّارتكم وسفنكم إلى تماثيل حجرية؟

ها هو يذهب بخياره إلى حتفه أو حتفها. وها هي الرياح تشتد ويشعر برجفة. هل ارتجف من البرد أم ارتجف خوفًا من عواقب منازلته لذات السن الذهبية التي تسكنها البراكين والشياطين ونفر من الجن؟!

مزق الأفق رعد انفجر فجأة. ولمع الضوء على امتداد البصر. هطل المطر مدرارًا. ابتلّ وابتلّ الحوذي والحصان، وابتلّت العربة.

قال للحوذي أو قال لنفسه: أمطار تأتي في غير وقتها.

تنحنح الحوذي، وبدا كما لو أنّه سيتكلم. لم يتكلم على الفور، وإنما تكلم بعد هنيهة، وقال: يحدث ذلك يا سيدي في ليلة عرس

الذئب. هكذا تمتلئ السماء بالغيوم وتمطر الدنيا في غير الأوان ليلة عرس الذئب.

ما الذي يعنيه هذا الحوذي اللعين؟ أهو يشير إلى عرسه مع الذئبة ذات السن الذهبية؟ أم أنه يطلق الكلام على عواهنه؟!

***

وصل المزرعة بعد أن توقفت الأمطار.

استقبلته ثلة من الجواري اللواتي يلبسن أفخر الثياب، ويمتلكن أجمل العيون، وأكثر القامات رشاقة. ولمح من بينهن نهاوند.

هبط من العربة. سارت الجواري أمامه وحوله. مشى باتجاه قصر ريفي واسع، لمدخله رواق وأعمدة تعلوها تيجان حجرية، وسيراميك ونمنمة ورسوم تمثل مثلثات ونجومًا وغزلانًا.

دخل الصالة الواسعة المعدة لهذه المناسبة، حيث تمتلئ بالأثاث والطنافس والسجاد ونباتات الزينة والأرائك والنمارق.

قادته نهاوند إلى الداخل، إلى غرفة الحمّام، وقدمت له المناشف والصابون والليفة وزجاجة عطر، وملابس داخلية، وقفطانًا من قماش القطيفة بلون البنفسج، وطلبت منه أن يستحم ويبدل ثيابه، ويلبس القفطان، ثوبه في هذا العرس. استحم ولبس قفطانه الجديد، وخرج من طيّات البخار، وعاد مع نهاوند ورفيقاها.

أجلسنه على أريكة مفروشة بأوراق الورد، بينما أريكة مماثلة فارغة إلى جانبه تنتظر من ستجلس عليها.

***

دخلت ذات السن الذهبية. دخلت ملكة بثوب من الديباج والأطلس المموّج، منسوج بخيوط الذهب، ومطرز على الصدر والأكمام بخيوط الفضة، وملوّن بزخرف ونمنمات متناسقة الألوان.

يلتف حول خصرها الدقيق حزام من قماش الدمقس.

تغطي رأسها بشال من قماش الألاجا مطرّز بزخارف ساحرة.

قامتها عالية، ينسدل ثوبها الطويل ليصل إلى أطراف حذائها ذي الكعب العالي.

دخلت معطّرة. دخلت بوجه مزجّج الحواجب، كحيل العينين، أسيل الخدين، وأنف شامخ العرنين، وشفاه رقيقة مصبوغة.

دخلت تحف بها الجواري. تقدمت وحيّته وجلست إلى جانبه.

عند ذلك، جلست الجواري على الجانبين، وتناولت كل منهن آلتها الموسيقية. وعندما أعطت نهاوند الإشارة، صدحت الموسيقى. شارك الناي والطنبور والعود والدف والرباب والسنتور في إطلاق المقامات. وعلى الإيقاع الثري، قامت نهاوند ودخلت وسط الديوان بملابسها الرقيقة والشفافة التي تكشف بطنها وسرتها، وبدأت ترقص بخفة فراشة، وعنفوان لبؤة.

***

انتهى حفل الزفاف، وحل وقت الدخلة. الجواري انصرفن بعد أن فرشن المائدة وسلة فاكهة. وحدها نهاوند بقيت بالجوار تنتظر. كان مسحورًا بما يحيط به من أجواء سحرية. لم يفكر بعد بالخطوة التالية، لكنها كانت تعرف، فأعطت إشارة إلى جاريتها الأقرب إلى قلبها. خرجت نهاوند وعادت بسرعة، وقالت: الحصان المجنّح ينتظر.

كان حصانًا من البلّور بجناحين، يبدو كما لو أنّه مخلوق من خاصرة جبال الثلج، وكان يتأهب ويدق الأرض بحافره كأنه في عجلة من أمره.

قالت له: آن لنا أن نطير.

نظر إليها باستغراب، فأضافت قائلة: هل نسيت أنني الملكة، أنني مثل ملكة النحل التي ستلوّعك قبل أن تظفر بها؟

فكّر فيما يتعيّن عليه أن يفعل. صهل الحصان مرتين، وهو يفكّر. استعجلته وعنّفته، وهو يفكر. لن ينقاد ولن ينحني. كانت عيناها تخلبان مخيّلته. اقترب منها ورفع غطاء رأسها وسمح لشعرها وجديلتيها بالتحرر. لم تعترض. فك أزرار ثوبها فاستسلمت.

قال لها: سنطير في مخدعك.

تمنّعت وأبعدت يديه عن صدرها، وقاومت اندفاعته.

رفع يده عاليًا وصفعها. سخن أكثر. امتزج هياجه بلهيب في دمه. أدارت له خدها الآخر فصفعها. ومع الصفعة الثانية، غلى

بركان بداخله. وصلت الشهوة مداها. بدأت شفتاه تتحولان إلى جمرتين. طاوعته ومشت نحو المخدع.

على السرير، كانت نصف عارية. احتضنها فتشبثت به. اندفع بناره إلى خديها وشفتيها ورقبتها وصدرها. اندلع حريق في وجهها، واشتعل اللهب في شعرها، وانتقلت النيران إلى بدنها، فصرخت، وصرخت عاليًا، صرخات كعواء ذئبة صرخت وهي تتحول إلى فحم ودخان. وتنتقل النار إلى صوف فرشتها وقطن مخدتها وحرير ثيابها.

عند ذلك، استيقظ من نومه.

***

استيقظ من نومه على صدى صرخة. استيقظ فتوقف كل شيء وساد الصمت، مر وقت قد يكون طال أو قصر حتى أدرك أن كل ما حدث هو حلم ومنام وكابوس. كانت الدماء لا تزال تغلي في عروقه، وتنتقل إلى شفتيه ورؤوس أصابعه.

وكان الفجر يشقشق. ومن وراء ستارة النافذة الشفّافة في غرفته في الخان، كان الفضاء يطل ويشي بصباح يوم آخر.

انسل ببطء من فراشه، وألقى نظرة على الأشياء في الغرفة، ليتأكد من أنّ ما حدث ليس إلا حلمًا من الأحلام التي يراها النائم في منامه. لم يركب عربة. لم تحط به الجواري. لم تكن الملكة حقيقة. لم يذهب معها إلى المخدع. لم يندفع إلى شفتيها وخديها ورقبتها بنيرانه.

قام وتناول إبريق الفخّار وشرب جرعة ماء، وأدار على رأسه ما تبقى فيه، كي يدرك أن ما رآه مجرد أضغاث أحلام.

اقترب من النافذة وأزاح الستارة. عند ذلك. شمّ رائحة تشبه رائحة دخان وحريق ممزوج بفتيت المسك، فيبدو تارة برائحة البخور، وتارة أخرى برائحة الفحم. عند ذلك، انتبه إلى أنّ ثيابه مصبوغة بلون البنفسج، وأن فردة الحلق في جيبه قد تحولت من ذهب إلى تنك، وأن حجر الزبرجد أصبح مجرد حجر من الجير.

يا لهذا الحلم المخيف الذي خرج من إست ليل أسود، أدلج، قاتم، أسحم، أحتم، سحكوك، غدافي، حُلبوب، غرابي. وأدهم!

***

الفصل الثاني والعشرون

في باحة الخان ضوضاء يثيرها الأوزبيك والقازاخ والتتار وهم يتهيأون للرحيل. يثيرون المرح وهم ينقلون متاعهم إلى ظهور الجمال ذات السنامين التي تبرك في الساحة الخلفية.

تبدو عليهم الحيوية والنشاط والإقبال على الحياة بقوة. بُنى متينة، وصدور واسعة، وعضلات مفتولة، في لباس تقليدي وطواقٍ مزركشة، وبعضهم لا يكفّ عن الغناء.

يا لروعة إطلالتهم، وعذب كلامهم وهم يتحدثون عن النساء والخيول واتساع المدى وقدرتهم على التحمّل وهم يوغلون في السفر بقوافلهم! يا لرقّة غنائهم، وروعة تقاليدهم، وجمال بلادهم في بخارى وسمرقند وخوارزم ووادي فرغانة!

ودّ في تلك اللحظة لو يكون معهم في ذلك التجوال الذي لا ينتهي، وأن يشرب معهم حليب الخيول، وينشد أناشيدهم، ويغني معهم أغاني الرعاة من القفجاق، التي تتشوق إلى الكحل في عيون النساء، والرزق الحلال من أرجل العير، ومن امتداد السهول في طريق الحرير.

جلس في الباحة يشاهد ويتأمّل، ويراقبهم ويتلقى تلويحات من أياديهم. وكم كان بودّه لو جالسهم وقصّ عليهم قصته، وطلب منهم أن يجدوا حلاً لذلك الجني الذي يتلبّسه.

رحلوا ولوّحوا له بأياديهم وهم يطلقون كلمات الوداع بلغتهم، وتركوا صمتًا وفراغًا.

كم صارت القاعة موحشة! وكم مرت في ذاكرته من صور وتداعيات! وفجأة، دخل إلى الباحة الهنديّان، المسلم والسيخي. جاءا بلباسهما الزاهي والعمامة الهندية على رأسيهما. أشار لهما، فانضمّا إليه وجالساه.

بدا الحديث معهما عاديًّا، كلام عن الطقس، وعن اختلاف الفصول، وعن تجارتهما في بيع الحيوانات والطيور النادرة، وعن الأعشاب وأنواعها وفوائدها، وترد في أحاديثهما الفوائد الطبية للزنجبيل وإكليل الجبل والبابونج واليانسون وأعشاب أخرى، فحان الوقت عند ذلك للحديث الجاد.

شرح لهما حكايته مع الجنّي الذي يسكن جسده. وسألهما إن كان هناك دواء لمعضلته من خلال التداوي بالأعشاب.

ضحك السيخي ومازحه بالقول إنّ ما بداخله طاقة مغناطيسية هائلة، وليست طاقة شخص غيره، وإنّ عليه أن يحافظ عليها ولا يبددها. فيما تحدث إليه الهندي المسلم بجدّية قائلاً: لقد واجهنا في رحلاتنا حالات كثيرة مثل حالتك، وهذه الحالة لها أثر سلبي. وفي الوقت نفسه، لها أثر إيجابي. ولكن لها علاج ينظّمها ويقلل من سلبياتها.

كان يستمع بلهفة. وكان يستمع بانتباه بكل جوارحه. ووجد في كلامهما ما أدهشه وأدخل الطمأنينة إلى قلبه.

تشبّث بقميص الهندي السيخي، وسأله بلهفة ورعونة: أين أجد هذا العلاج؟

هزّ الهندي الآخر رأسه، وقد اكتسى وجهه بالرزانة والحكمة، وقال: هل تسمعنا أولاً؟

أجاب على الفور: أنا أسمعكما.

قال الهندي المسلم: أنا وصديقي (آرام) كنا بصدد الحديث معك بشأن ذي صلة، فإننا نبحث عن رسّام يتقن الخط والرقش والتزيين، وعلمنا أنك تتقن ذلك. فهل تقبل عرضنا؟

قال: وما علاقة ذلك بموضوعنا؟

أجاب الهندي السيخي: اصبر قليلاً، واسمعنا، ولن ننسى موضوعك. فسأل مستغربًا: ماذا سأرسم أو أخطط، منزلاً أم قصرًا أم بيت عبادة، أم غير ذلك؟

أجابه الهندي السيخي: كتابًا، الذي تسمونه مخطوطًا.

فكّر قليلاً، وقال: سبق لي أن نسخت كتاب "دلائل الخيرات" وزيّنته بزخرف ليس له مثيل.

قال الهندي المسلم: هذا ما نريده؛ نسخ كتاب بخط الثُلث.

وأضاف: كتاب مهم جدًّا ألّفه حكيم وفيلسوف وطبيب وعالم فلك وخبير بالموسيقى الروحية.

فكّر قليلاً بالعرض المقدّم إليه. وكان في عجلة من أمره ليعرف كيف يمكن أن يجد حلاًّ للجنّي ابن الكلب الذي ينغص حياته، فقال بلهوجة: قبل أن أُبدي رأيي، أود أن أعرف عن الطبيب الذي سيعالج حالتي.

قال الهندي السيخي: ولم العجلة أيها الشاب؟

أجاب بنرفزة: أمس، تسببت في إشعال النار بامرأة يا سيدي. أيرضيكما ذلك؟

ربت المسلم على كتفه، وقال: يتعيّن أولاً أن نتلقى منك إجابة: موافق أم غير موافق؟ وإن وافقت، فهل تحفظ السر؟ وإن عرفت أسرارنا، فهل ستستحسنها أم تستهجنها؟

ضاق ذرعًا، وخطر له أن هذين الرجلين يسخران منه، وأنّهما يطلقان الكلام على عواهنه. وهمّ بالوقوف والخروج، لكّن الهندي المسلم الذي يتحلّى بالرزانة قال: تمهّل. نحن نتحدث معك بشأن ذي أهمّيّة، وعلينا أولاً أن نطمئن إلى حسن نواياك.

لم يدخل كلام الرجل الطمأنينة إلى قلبه، ومع ذلك قال: العلاج أولاً، والنسخ ثانيًا.

هزّا رأسيهما معًا، وقال المسلم: سيكون لك ذلك. لكن يتعيّن أن تسافر معنا إلى حيث يوجد الفيلسوف. وهو، كما قلنا، فيلسوف وطبيب، وهو الطبيب الذي سيعالجك.

– أسافر؟ إلى أين؟

– فيلسوفنا يعيش الآن في إقامته المؤقتة في جبل من جبال الأناضول. نصطحبك معنا منذ الغد.

أدخله في حيرة هذان الرجلان، فمن يضمن أنهما صادقان؟ من يضمن ألاّ يخطفاه في الطريق ويكبلاه بالسلاسل، ويسوقاه إلى أسواق الرقيق، ويبيعاه كعبد؟ من يضمن؟

فكّر فيما يتعيّن عليه أن يفعل، ووجد أنّه بحاجة إلى مهلة ليفكّر أكثر، فقال: يتعيّن أن أتدبّر أموري، وأن آخذ إجازة من المدرسة، وسأردّ عليكم في أقرب وقت.

قال السيخي: لا تضيّع هذه الفرصة أيها الشاب. ستعمل عملاً يفيد الشرق كلّه، فضلاً عن أنّ مكافأتك ستكون مجزية.

وأضاف: وستجد العلاج على يد فيلسوفنا وطبيبنا.

هبّ واقفًا. حمل مخلاته وانصرف دون أن يودّعهما، ومضى في طريقه. لقد قرّر أن يفعل شيئًا!

***

اكترى من الخان حصانًا، وانطلق إلى الطريق المؤدي إلى وادي بردى. سلك الطريق الذي سلكته العربة التي يقودها حوذي عجوز. لقد ذهب في حلمه بعيدًا، وعليه أن يبحث عن الحقيقة. تذكّر كلام الحوذي عندما تساقط المطر في غير أوانه: "يحدث ذلك، يا سيدي، في ليلة عرس الذئب". قطع الطريق الواسع والحصان يمشي خببًا. الدرب واسع، ودرب الحلم ضيق. البساتين متباعدة، ولا أثر للمروج المطرّزة بنوّار أحمر قانٍ. لا مزرعة في نهاية الطريق. لا ملكة نحل بسن ذهبيّة، ولا نهاوند بملابس شفافة تكشف بطنها وسرّتها. لا جواري يعزفن على الناي والطنبور والسنتور والدف. لا امرأة بثوب من الديباج والأطلس المموج بخيوط من الذهب. لا لبؤة تغطي رأسها بشال من قماش الألاجا مطرّز بزخارف ساحرة. جال بحصانه في كل الأماكن. لا حسّ ولا صوت سوى خرير النهر. لا أثر لحصان مجنّح من البلور. لا أثر لحريق ولا بقايا دخان، ولا عواء ذئبة.

عاد من حيث أتى. عاد موقنًا أن الحلم خيال، أنّ الحلم خديعة، أنّ الحلم فعل من أفعال السَحَرة.

ذهب إلى الساحة التي تفضي إلى بيتها. كان بائع الزلابية لا يزال في مكانه. وباعة الخضار والفواكه يقفون أمام بسطاتهم. وكان بائع البرسيم يتروي في مكانه.

ربط الحصان، ودخل في الزقاق الذي يؤدي إلى بيتها. مشى في الزقاق الضيّق الذي تتدلى من شرفاته نباتات الزينة، وتطل أيضًا من وراء نوافذه أصص العطرة والسجّادة والأرطاسيا.

مرّ من تحت القنطرة، ووصل إلى بيتها. وصل إلى الباب الكبير الذي يتوسطه الباب الصغير الذي يسمى "الخويخة". طرق طـرقتين، وانتظر أن ينفتح وتطل من ورائه هاوند. لكنّ الباب عندما انفـتح، أطلّ من ورائه رجل جليل بعمامة على رأسه، ولحية بيضـاء طويلـة تكسبه مهابة. ومن وراء الشيخ، كان أطفال يلعبون في الفناء حـول النافورة والفسقية، وسيّدة تنشر الغسيل.

فوجئ وأرتج عليه، ولم يدر ما يقولـه، فتراجـع خطـوة إلى الخلف، واستدار عائدًا.

يا لهذه الألغاز التي لا يفعلها إلاّ العفاريت والسَحَرة والجنيّات الماكرات!

عندما عاد إلى غرفته في الخان، وجد القرط وقد عاد إلى لونـه الذهبي، وحجره الكريم من الزبرجد وقد عاد إلى لونـه الأخضـر اللامع. ومنامته عادت إلى لونها الطبيعي، وغاب عنها ذلـك اللـون القرمزي الكريه.

قال لنفسه: ينتهي مفعول السحر عند هذا الحد، ويتعـيّن أن أطرد ذلك الشرير من بدني اعتمادًا على إرادتي.

***

في تلك الليلة، داهمه حنين جارف للسيدة العيطموس، الطيبـة والحنونة والقريبة من القلب. تذكّر كل لمسـة ود منحتـه إياهـا،

وأخرجت الذاكرة ذهب الكلام الحميم الذي كان يدور في إيوان قصرها الصغير. ذهب الكلام الحميم في غرفة مطلّة على الشرفة، وحكايات تسردها الخادمات الجميلات في الحديقة لطرد السأم والملل، ونزهة على ضفاف نهر خريشة مكللة بزهور النرجس وشقائق النعمان والأقحوان والخزامى والسوسن والزنبق البري.

وأخرجت الذاكرة من داخل السياق سيرة طفلة اختطفها قراصنة، انتزعت من كبد المأساة، وبيعت كرقيق إلى البشاوات، وتنقلت كجارية مستعبدة في رواق الحرملك، ومكر دسائس السلطانات، واغتصاب الأمراء ووحوش الإنكشارية، ووجدت الرأفة عند السلطانة نخشديل، والحماية عند جركس باشا، والود والمحبة من وصيفة سمراء جميلة الروح، وعاشت في القصر وهي تشتهي العيش في بيت ريفي يوفر لها هدوء البال.

واندلقت من الذاكرة ألوان وريشة وخطوط ووجه يحفظه عن ظهر قلب، ومزيج من التزين والتزويق والكحل وظلال على الرموش، وثوب من حرير الدمقس، وقبعة، وثوب سلطاني، وحذاء ذو كعب عال، ولوحة مصمودة على الحائط مثل عروس في حنّائها وزينة جلوها.

انثالت الذكريات، وتنقلت ما بين قصر السيدة إلى طفولة وشباب مبكّر وقفز من أعالي السور إلى البحر، وشاطئ يطل على منارة وسفن تمخر عباب الأمواج، وأناس طيّبين، وعمال المدابغ، وباعة سجق وخمور، وصيّادين يصنعون الشباك ويوغلون في عمق

البحر، وجواري القصر اللواتي يطللن عليه من شرفات السرايا ورواق الحرملك، وغواية في بستان برتقال أيقظت الجنيّ الذي يلازمه فطبع قبلة حارقة على نحر واحدة منهن، وترك وشمًا، وألعاب على الشاطئ مع ابنة القنصل ورفيقاتها، وقصور لا تحصى من الرمال، وبازار ذي معمار مملوكي في مدينة تزهو بها القباب والأروقة والأعمدة والأقواس والتيجان والمآذن والأسوار والأسواق والباحات، وصباح من ندى يتوكل فيه على المولى ساعون للأرزاق، وتبدو في ضحاه وجوه حجّاج وسيّاح وبشاوات وأغاوات وجندرمة وسناجق، وطابور من جند الحامية.

وأغفى على رضى، ونام نومًا عميقًا، لا كوابيس فيه، ولا أرق.

***

الفصل الثالث والعشرون

في الصباح، بينما كان يتناول فطوره في الباحة، جاءه صاحب الخان، رجل دمشقي بلحية شقراء خفيفة، على رأسه عمامة حمراء، ويلبس سروالاً وقميصًا من الحرير، وملامح وجهه ودودة.

جلس بجانبه وتحدّث إليه. كان يتوسط للهنديين. قال له إنهما سألا عنه في "مدرستي ملكي سلطاني"، وقيل لهما إنك من أفضل الخطاطين، وإنك خبير في الرقش والتزيين، ولذلك، هما متمسكان بك.

وقال له: إنّ هدفهما نبيل، وهو كتابة نسخة عربية من كتاب عن حكمة الشرق، وحدثاني عن الكتاب وكاتبه لأنهما يثقان بي. كما أنني أعرفهما وأثق بهما، ويتعاملان معي منذ سنوات طويلة.

وأبلغه أنّه يكفلهما، وسيوقعان اتفاقية معه، ويكون هو شاهدًا عليها. ولن تستغرق مهمته أكثر من شهر. وما إن تنتهي العطلة الصيفية، حتى يكون قد انتهى منها، وعاد إلى مدرسته في دمشق.

تحدث صاحب الخان بحيوية وجديّة، ودقّ على صدره، وأكّد أنّه سيكون مسؤولاً عن سلامته في الذهاب والإياب، وأن المكان الذي سيذهب إليه ليس بعيدًا، فهو في "أضنة"، وليست بعيدة عن

اللاذقية، وجبالها الشاهقة تطلّ على البحر المتوسط، أي أنّها إلى الشرق من بلاد الشام.

هكذا بدأت الصفقة، وهكذا انضم الهنديان إليهما، وأبرم الاتفاق.

***

تحركت القافلة المكونة من ثلاثة جمال وحمار وعربتين تجرهما خيول؛ واحدة تحمل أقفاصًا فيها حيوانات السمور والقطط السيامية وغزلان المستنقع الهندي وطاووس ذكر وأنثاه، والأخرى تحمل التموين والمتاع.

أمّا الجمال ذات السنامين، فقد كانت محمّلة بالجلود والتوابل والأعشاب الطبيّة.

كان الهنديّان رفيقي سفر مريحيْن. كانا يتسمان بالدماثة والخلق الكريم. ومعهما، كان خدم يقومون على الاعتناء بالحيوانات، وإعداد الطعام، وخدمات أخرى.

تمشي القافلة على طول المدى، تعبر تلالاً ووهادًا، وتتوقف عند الأنهر والينابيع. وتنصب الخيام إذا ما أدركها التعب عند أماكن الإيواء التي أعدّها تجّار طرق الحرير على مدى الزمن.

في تلك الأماكن، يتناولون الطعام معًا، ويتحادثون ويتسامرون، ويطعمون السمور والغزلان والقطط السيامية ذات العيون الزرقاء،

والجمال ذات السنامين، والطاووس الذكر الذي يفرد ريشه المزركش بألوانه البهيجة، ويشبه مروحة المرزبان، بينما أنثاه تغفو هادئة، وتنكمش في زاوية القفص، بل ويخرجون الحيوانات والطاووس وأنثاه من أقفاصها لتشرب الماء وتغمر أجسادها بالمياه المتدفقة لكي تبترد.

كانت تلك الحيوانات الثمينة والنادرة تبدو كما لو أنّها مدجّنة، أو أنها اعتاد بعضها على بعض، ونشأت بينها مودّة، وأصبحت قطيعًا صغيرًا يتعايش، ويتحمّل مشقّة السفر.

***

بلاد تشيل، وبلاد تحط، ويوسف يعتاد على ركوب جمل بسنامين، واعتاد على هذه الرفقة الطيّبة. واستمتع بما يقوم به الهنديان في المناطق الآهلة وفي المدن الصغيرة حين يعرضان بضائعهما من الأعشاب والبهار في الأسواق، ويجمعان دنانير وليرات ذهبية وعملات أخرى. لم يكونا يعرضان بضائعهما الأخرى من الحيوانات وطير الطاووس، فهذه مبيعة ومجلوبة خصيصًا لحديقة قصر السلطان الصيفي على ضفاف نهر سيحان؛ فزوجة السلطان تحرص على أن تكون هناك حديقة حيوانات وطيور فريدة ونادرة ملحقة بقصرها. كما أنهما لم يكونا يعرضان حمولتهما من الجلود، ولم يفصحا له عن سبب ذلك، كما أنّه لم يسألهما.

***

في محطة استراحة بجانب نبع ماء على سفح جبل يحاذي غابة، بينما كان الخدم يطعمون الحيوانات، جرى حديث عن طباعها وأنواعها وقيمتها.

السمّور من أجمل الحيوانات وأندرها، ويتميّز بألوانه الجميلة التي يتدرّج ويتمازج فيها البني الفاتح مع البني الغامق، وهناك أنواع فراؤها أبيض، وكاد هذا الحيوان الصغير ينقرض لكثرة مطاردة الصيادين له؛ ففروته من أغلى أنواع الفراء، وهو يعيش في الغابات ويقتات على الحيوانات الصغيرة كالجرذان والسحالي وبيض الطيور، وهو حذر وليس سهل المنال؛ يعرف متى يختبئ وراء الصخور أو وسط أغصان الشجر الكثيفة إذا ما حاول النسر اصطياده. لكن الصيادين من البشر يبرعون في اختراع الحيل لاصطياده حيًّا للحصول على فروته دون خدوش.

أما الغزال الهندي، الذي يسمونه غزال المستنقعات، كونه يعيش في مناطق مليئة بالمياه الراكدة، فهو من أجمّل الغزلان التي تفخر بها الهند، ويميّزه عن غيره من الغزلان والأيائل قرنان طويلان ينتهيان بشعب ثلاث، ويشبهان أشجارًا ذات أغصان ثلاثة، وقد جردها الخريف من الأوراق وتركها عارية.

وأما القطط السيامية ذات العيون الزرقاء، فهي من القطط التي يقتنيها سكّان القصور، نظرًا لجمالها، وحسن طباعها، وروعة ألوان فرائها. يقتنيها الأغنياء كما يقتنون اللوحات الفنية والتحف النادرة.

• • •

وللطاووس الهندي جماله المبهر؛ فهو أزرق اللون، ولذلك يسمونه الطاووس الأزرق، وعندما ينشر ريش ظهره الذي يشبه مراوح الأثرياء، تبدو النقوش الساحرة الفريدة كلوحة يعجز أمهر الرسّامين أو الرقّاشين عن صنعها، وفي العادة، ينشر ريشه على هذا النحو أمام أنثاه، إذ يستعرض أناقته في مواسم التزاوج، وهو أجمل من أنثاه التي يكون لونها بنيًّا، وليس لها ريش على شكل مروحة كريشه. وللطاووس مكانة خاصة في التراث والأساطير والملاحم في الحضارات القديمة.

***

في ذلك اليوم، أخرج الخدم الحيوانات من أقفاصها بعد إطعامها. أخرجوها لتستمتع بشرب الماء من النبع وتبترد في جو ومناخ حار.

كانت الحيوانات شبه داجنة ولا تفكّر بالهرب.

وبينما كانت الغزلان ترتوي، فجأة، أصابها ذعر. شمّت بحواسها رائحة خطر. انتقل الذعر بالعدوى إلى الجمال والأحصنة والسمور والقطط.

كان يوسف والهنديان يواصلان الحديث، وفجأة، تحوّل الذعر إلى اضطراب. انتبه الرجال، وبدا لهم عن بعد حيوان فهد مفترس.

كان الفهد يتقدّم زحفًا وهو يلصق صدره بالأرض.

ابتعد أحد الغزلان عن القطيع، ثمّ أطلق ساقيه للريح.

وقف الهنديّان وكانا مرتبكين.

في تلك اللحظة، اعتدل الفهد ولحق بالغزال. كانت قفزات الفهد واسعة.

وقف يوسف، ودون أن ينبس بكلمة، التقط السوط الذي يحمله عادة سائق العربة.

لوّح يوسف بسوطه، وقفز إلى الأرض العشبية التي تجاور النبع. جرى قليلاً وهو يتابع قفزات الفهد وراء الغزال.

صارت المسافة قريبة بين الفهد والغزال، الذي يعدو ويراوغ يمينًا وشمالاً، والفهد يلاحقه من كل اتجاه.

فجأة، داهمت السخونة جسد يوسف: اشتعلت نيران بداخله، داهمته عاصفة وأثارت حوله زوبعة، نشطت حوله الريح، فقفز عاليًا واعتلى الريح، وطار في الهواء عاليًا، وحطّ على الأرض على بعد خطوة من الفهد الذي كان قد قبض على الغزال وأوشك أن ينشب أنيابه في حنجرته.

رفع السوط الذي داخله شواظ من نار عاليًا، وبيد من حديد، ضرب الفهد الذي يوشك على الفتك بالفريسة. ضربه على رأسه وطرحه أرضًا وصار يتفعفل بدمائه.

نجا الغزال، ووقف على قوائمه. بينما قرناه ينتصبان تعبيرًا عن دهشة، وكان جسده ما زال يرتعد، ونفَسه يتقطّع.

• • •

ظلّ الفهد يتفعفل ثمّ همد. كانت عينا الغزال تنظران ولم يحاول الابتعاد.

ظلّ كلاهما ينظر إلى الآخر. وعندما استعاد يوسف أنفاسه، وعادت نبضات قلبه إلى وضعها، نحّى السوط جانبًا وحمل الغزال الذي لم يقاوم، وإنما بدا مثل طفل صغير شعر بالطمأنينة عندما شمّ رائحة أبيه.

عاد يسير الهوينا. وعندما وصل، كان الهنديّان والخدم ينظرون إليه بذهول، ينظرون إلى يديه المنتفختين، وإلى عينيه الحمراوين، وإلى ملامح وجهه العابسة التي لم يفارقها بعدُ الغضب. وخيّل لهم أن هالة بيضاء تكلل قمة رأسه.

أنزل حمله إلى الأرض.

ظلّ الغزال واقفًا وساكنًا وهادئًا وقد خفّت ارتعاشته.

استدار يوسف ومضى إلى النبع. خلع ملابسه وغطس بالماء. ظلّ يبترد بينما أعاد الخدم الحيوانات إلى أقفاصها.

لم يعيدوا الغزال الناجي، تركوه يتوجه إلى النبع، لا ليشرب، وإنما لينتظر صاحبه.

ومنذ ذلك الحين، صاروا يطلقون على هذا الغزال اسمًا جديدًا؛ إنّه غزال يوسف.

***

بلاد تشيل، وبلاد تحط، والقافلة تسير. وتسير معها الوديان والينابيع وروافد الأنهر، والتلال والغابات، والجبال. ويوسف يتأمّل. وغزال يوسف لا يبتعد عنه؛ ينام قربه في العربة التي يظللها غطاء من قماش الشادر.

في محطة استراحة، أسند يوسف ظهره إلى ساق شجرة صفصاف، وركن مخلاته إلى جانبه، وأخذ يتأمل الطبيعة، بينما غزاله يرعى العشب مع بقية الغزلان.

كان الخدم يحرسون القطيع الصغير. والهندي المسلم يطعم حيوانات السمور، بحفنتيه، حبات التوت المفضلة إليها.

اقترب منه الهندي السيخي، وجلس إلى جانبه.

لم يشعر به يوسف في البداية. كان ينظر إلى المشهد من عل. كان النهر يبدو، وهو يشق طريقه بين التلال، متعرجًا، وكانت غيوم عابرة تضفي على المشهد رونقًا وهي تتشكل على هيئة خيول.

صار الهنديّان ينظران إليه بمهابة. وبعين الرضى. أما الخدم، وأغلبهم من الهندوس، فقد كانوا ينظرون إليه نظرة قداسة بعد أن شاهدوا قفزته المذهلة وركوبه للرياح التي هبّت فجأة وأشعلت الفضاء الفسيح باللهب، وتحوّل السوط الذي يحمله إلى سفود عندما أجهز على الفهد المفترس بضربة واحدة.

جلس الهندي السيخي إلى جانبه صامتًا. تركه يتأمل الطبيعة واحترم خلوته. جاء الهندي المسلم بعد أن أطعم السمور وجلس بهدوء وحذر، وظلّ صامتًا أيضًا.

انتبه يوسف إليهما، وكانت تدور في خلده أسئلة.

تشجّع السيخي، وطرح عليه السلام، ثمّ أشار بيده إلى تلة مقابلة، وقال: اقتربنا من الوصول، الحكيم باهر يقيم هناك.

وقال الهندي الآخر: لم تبق سوى نزلة نعبر بعدها نهر سيحان، ثمّ نصعد إلى التلة التي اختارها الحكيم.

وإذ ذاك، حان وقت طرح الأسئلة المؤجّلة، فأظهر لهما البشاشة، ولاطفهما، ثمّ طرح أسئلته ليعرف شيئًا عن هذا الحكيم الذي يقدّسانه. ويتحدثان عنه بانبهار.

كان الطقس لطيفًا هنا في الأعالي. وكانت مجموعة الغزلان منهمكة في اللعب، وتتناطح بقرونها الجميلة على سبيل اللهو. وكان غزال يوسف أيضًا يمارس رياضته في القفز والمشاكسة.

أخذ الهندي المسلم الكلام، وتحدث بوقار واسترسل في الحديث: الحكيم باهر من الحكماء الذين عزّ نظيرهم، يعيش ويتنقل في قرى سفوح همالايا، ورسالته هي الدعوة إلى المحبة والسلام واحترام الحياة، ووقف القتل.

يناهض سياسات الهيمنة الغربية، ويدافع عن تنوّع الشرق الديني والفلسفي. وهو من المناهضين للاحتلال الإنجليزي المثل

بشركة الهند الشرقية. ويرى أنّ دول الغرب، وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا والبرتغال وهولندا، تجهّز الغزوات للهند، وترسل السفن التجارية تحت مسمى تجارة التوابل والقطن والبهار والشاي والأفيون، في حين أنّ هدفها الحقيقي استعباد الهند، تمهيدًا لاستعباد الشرق بأكمله، الأقصى منه والأدنى.

وهو لا يدافع عن حكمة الهند فقط، فالهند نموذج لتعدد الأديان والمعتقدات والفلسفات، وهي مكوّن من مكونات الشرق الكبير، وتاريخه الحضاري. وبهذا، فهو يدافع عن الشرق وحكمته وقيمه وعلومه وثقافته في مواجهة التوحش الغربي الذي تمثله إنجلترا وفرنسا.

الحكيم باهر زار البلدان العربية، ودرس وأتقن لغة العرب. وهو يتقن لغات أخرى من لغات الشرق، منها التركية والفارسية. كما أنّه معجب بالآداب والفنون والعلوم وحركة الترجمة للدولة الأموية والعباسية والفاطمية.

الحكيم باهر جمع نصوصًا في كتاب، اختارها من القرآن والإنجيل والتوراة ومعتقدات الهند الهندوسية والبوذية والجينية والسيخية، ومن معتقد الزرادشتية الفارسي؛ نصوصًا تعبّر عن احترام هذه الأديان لكرامة الإنسان وحريّته ورفاهيته ورياضاته الروحيّة.

وقد عمل لها تلخيصًا وترجمة، تحديدًا إلى اللغة الفرنسية؛ لأنّ فرنسا تشهد الآن ثورة لتحرير الإنسان من هيمنة الأثرياء والنبلاء وكبار ملاك الأراضي ورجال الدين، وتطالب بالحريّة والمساواة

وحقوق المواطنين، ويريد أن يرسل كتابه في قيم الشرق إلى الفرنسيين؛ لعلّهم يلتقون مع هذه القيم، ويكون ذلك فرصة للقاء بين الشرق والغرب على قيم مشتركة، وفرصة في لحظة تاريخية كي يغيّر الغرب نظرته إلى الشرق، ولا تكون علاقة الغرب مع الشرق علاقة أسياد بعبيد.

وهو يعتبر المعتقدات بالتحديد، تراثًا إنسانيًّا اجتهد فيه الإنسان قبل مرحلة الإيمان السماوي الممثل بالأديان في البحث عن الحقيقة.

لذلك، اختار أن يرسل هذه الرسالة من الأناضول المطل على بقعة من البحر المتوسط، هي منطقة بحر إيجة، التي تشكّل نقطة التقاء بين الشرق والغرب.

تحدّث الهندي المسلم وأسهب. وعندما أنهى كلامه، أخذ السيخي الكلام: ولعلّك هنا تسأل عن دورك ما دام الحكيم يريد أن يرسل نسخًا من كتابه إلى حكماء فرنسا. وأقول لك إنّه سيطلب منك نسخ كتابه عن النسخة العربية، لأنّه يريد أيضًا أن يرسل معك نسخة لحكماء بلاد الشام.

وأضاف الهندي الأول: وسيكون لك دور في تزيين الكتاب باللغة الفرنسية بأنواع من الرقش الشرقي الإسلامي؛ لأنّ ذلك جزء لا يتجزّأ من رسالة الطموح بلقاء الشرق مع الغرب.

كان يوسف يستمع، وكان الغـــزال الـــذي اقتـــرب دون أن يلحظوه يستمع، وكان النبع يستمع، والشجرة تســـتمع، والفضـــاء يستمع، والغيوم الضّالة في الأفق تستمع.

***

الفصل الرابع والعشرون

توقفت القافلة عند مفترق طرق، فانقسمت إلى قافلتين: واحدة سلكت الطريق المؤدي إلى الجبل، حيث يمكث الحكيم باهر، والثانية سلكت الطريق المؤدي إلى قصر السلطانة الصيفي على الضفة الأخرى من نهر سيحان.

قافلة الجبل كان يقودها الهندي المسلم، وتضم الجمال المحمّلة بالجلود وأحصنة وعربة فيها قائدها ويوسف والغزال وأكياس من الأعشاب، وما خفّ من المتاع.

أما قافلة القصر، فقد قادها الهندي السيخي، وضمت العربة بأقفاصها وحيواناتها، وأكياسًا من البهار، وقوارير معبأة بزيوت ودهون لاستعمال النساء، للتطرية بعد الاستحمام.

توقفت القافلة التي صعدت إلى الجبل أمام بيت ريفي واسع له حديقة، ويكتظ برجال تدل وجوههم وملابسهم على أنّهم ذوو شأن، وبخدم من رجال ونساء يلبسون ملابس هنديّة بيضاء نظيفة.

كانت تفوح من المكان رائحة طبخ تختلط برائحة حبر. وكان في الساحة التي توقفت فيها العربة دجاجات وديك وثلاث من الماعز.

"وصلنا". قال الهندي، فهيّأ يوسف نفسه للنزول. حمل مخلاته ونزل، وساعد الغزال على النزول.

أشار الهندي إلى الخدم بإنزال الحمولة من الجلود، والاعتناء بالجمال والخيول والغزال، واصطحب يوسف إلى الداخل.

ممر طويل على جانبيه غرف مغلقة وأخرى مفتوحة.

في الغرف المفتوحة خطّاطون ينسخون. ورائحة الحبر تملأ المكان. وفي الممر حركة نشطة من الرجال ذوي الشأن. وفي نهاية الممر سلّم خشبي يقود إلى طابق علوي.

في الطابق العلوي، قابلا السيّدة التي تعنى بشؤون المترل والتي قادت يوسف إلى غرفة نومه في ذلك الممر الأعلى، وشرحت له نظام الإقامة والطعام بلغتها الهندية، وترجم له الهندي كلامها. وقبل انصرافه، أخبره أنّ هناك من سيقابله في وقت لاحق بعد أن يأخذ قسطًا من الراحة.

قبل الغروب، جاء أحد أولئك الرجال من ذوي الشأن، واصطحبه إلى تلة مرتفعة لا تبعد كثيرًا عن المكان.

هناك، كان يجلس على سطح صخرة ملساء الحكيم أو المعلّم، كما خاطبه المرافق.

حكيم في مرحلة الشيخوخة؛ شعر رأسه أشيب طويل غير مشذّب، وشاربه طويل يغطي شفته العليا، ولحية بيضاء طويلة

تسترسل من ذقنه حتى أسفل صدره، يرتدي سروالاً، وقميصًا طويلاً يغطّيه حتى ركبتيه، ويلفّ حول رقبته ووسطه رداء "الدوتي".

عندما وصلا، انحنى مرافقه ولمس الرداء تبرّكًا، ثمّ اعتدل وعرّف بيوسف القادم من بلاد الشام والأراضي المقدّسة، وكان يتكلّم بلغة هندية، فحدس أن المرافق يقدم تقريرًا وافيًا عنه وعمّا صادفه في الطريق، وربما عن الطاقة الكامنة بداخله.

كان الحكيم، كما يبدو، قد أنهى فترة التأمل في هذا المكان المرتفع، الذي يبدو ما وراءه طبيعة عذراء لا تزال كما هي، وكما خلقها الرب منذ الأزل.

أنهى مرافقه الحديث، وانصرف.

رحّب الحكيم بيوسف بلغة عربية فصحى، وأشار له بالجلوس.

كان الحكيم سمح الوجه، ودود الملامح.

دقق يوسف في شعر رأسه وشاربه ولحيته الطويلة، كما لاحظ أنه لم يقص أظافره منذ مدة، فأخرج يوسف من مخلاته ما يحمله من لوازم السفر: موسى الحلاقة ومقصًّا ومرآة صغيرة.

قال: هل تأذن لي يا سيدي؟

ودون أن ينتظر إجابة من المعلّم، صعد إلى الصخرة، وجلس قبالته، وبدأ بتشذيب شعر الرأس ثمّ شعر اللحية دون أن يعترض المعلّم. شذّب بمهارة ورقّة، بينما الرجل يرسم على شفتيه ابتسامة رقيقة، ويستسلم لهذا التشذيب.

بعد أن أكمل عمله، رفع المرآة ليرى المعلّم هيئته الجديدة.

بدا على المعلّم الرضى، فانتقل يوسف إلى الأظافر، فقلّمها بالمقص بلطف ونعومة.

قال الحكيم: بارك الله بك يا بني، لقد أدخلت إلى قلبي السرور.

وصمت قليلاً وأضاف: تعاملت معي كإنسان يحتاج إلى المساعدة، وهو ما لم يلحظه غيرك، أو لاحظه وخشي أن يقدم لي النصح.

قال يوسف: يا سيدي، أنت مفكّر ومتصوّف، وتعتبر الاهتمام بالنفس أمرًا ليس ذا صلة. لكنني تطفّلت وأحببت أن يكون مظهرك جميلاً كعلمك أيّها المعلم.

قال الحكيم: لا بأس من المظهر المقبول وأنت تمارس رياضة السيطرة على النفس. قل لي وأخبرني، كيف هي الحال في بلاد الشام؟

- والله يا سيدي إنّ الشمس لا تزال تشرق، والحياة تمضـــي. ندفع الضرائب، ونواجه إنكشارية متطرفة، ونحب الحيـــاة، ونحـــبّ تراب بلدنا في الوقت نفسه.

هزّ الحكيم المعلّم رأسه، وسأل: علمت يا بني أنّك خطاط تتقن رسم الحروف ببراعة، وأنك رقّاش تتقن التزويـــق. وجـــودك معنـــا سيكون له أثر طيّب.

وصمت قليلاً، وأضاف: نحن لدينا رسالة، رسالة محبة ومساواة وسلام. نحن نبشّر بالأخوّة والمحبّة بين بني البشر، فالناس في دينكم هم عيال الله، وهذه الأرض التي يتقاتلون عليها هي أرض الله، والبلاد في الشرق والغرب هي ملك الخالق، وهو الذي يرث الأرض وما عليها يوم القيامة.

كان يوسف يستمع، ويشعر بالألفة، وينتظر المزيـــد: قـــد لا تفهمني الآن، لكنّك ستقرأ ما ستنسخه، وتطّلـــع علـــى مضـــمون رسالتنا. الظلم وخيم، والحروب لا تتوقف، والغرب الـــذي يغـــزو الشرق لا يعرف شيئًا عن حكمة الشرق؛ يأتي إلينا بالســـفن عـــبر البحار والمحيطات ليستعبدنا وينهب خيراتنا، ويذلّ حضاراتنا وأدياننا ومعتقداتنا، ويسوق رجالنا ونساءنا للبيع في أسواق الرقيق. ورسالتنا بمثابة اليد الممدودة له للسلام والأخوة من موقع الند والتكافؤ. هـــل فهمتني؟

* * *

هزّ يوسف رأسه، وأجاب بصوت خفيض: فهمتك يا سيدي.

جمّع الحكيم نفسه متهيئًا للوقوف، فسارع يوسف إلى مساعدته ونفض ما علق بثيابه من الشعر الذي تساقط أثناء التشذيب.

وقف الحكيم وقال: هيّا نتمشى قليلاً في هذا المسرب.

سارا في طريق تحفّ به أشجار وأعشاب ونباتات شوكيّة، وفي الأعالي، يرفرف سرب من الطيور. سارا كصديقين. بسط له الحكيم بساط الألفة، وأشعره بالطمأنينة، فأحبّه وأحبّ هذه النزهة الروحية في بساتين الرب الواسعة.

قال الحكيم، والشفق يؤذن باقتراب المغيب: لقد علمت شيئًا عن الطاقة التي وهبك الله إيّاها، والتي مكّنتك من القفز في الهواء وإنقاذ الغزال.

ثمّ انحنى، والتقط حجرًا، وناوله ليوسف: ارمِ، يا بني، هذا الحجر على تلك الصخرة بقوة وعزم.

تناول يوسف الحجر، ولوّح بيده، ثم ألقى الحجر على الصخرة بقوّة وعزم، وما إن اصطدم الحجر بالصخرة، حتى اندلع من الصخرة الشرار الناري.

قال الحكيم: في قلب الحجارة يا بني، تكمن نار. والنار التي تسكنك هي ذاتها الطاقة التي تسكن الأشياء في هذا الكون.

وعبّأ صدره بالهواء الذي هـــبّ فجـــأة، وأضـــاف: لا أريـــد التحدث الآن في هذا الأمر. لكنني، من حيث المبـــدأ، أحببـــت أن أطمئنك. فالطاقة هبة من رب العالمين، فكيف نوجهها لما هو نـــافع لا لما هو ضار؟

ظلّ يوسف صامتًا، كانا قد قطعا شوطًا لا بأس به في المشـــي. وعند ذلك، استدار الحكيم وقال: هيّا لنعد قبل أن يحلّ الظلام.

***

عندما وصلا البيت الريفي، كان الظلام قد حلّ، وكان الخـــدم قد علّقوا القناديل في الخارج، وأضاءوا الفوانيس في الداخل.

ساحة المدخل مضاءة. عادت الطيـــور إلى مبيتـــها، وكـــذلك الماعز. وحده الغزال كان في الساحة واقفًا، يقف وحيـــدًا منكّسًـــا رأسه، معبّرًا عن قلقه بحفر الأرض بظلفه.

ما إن دخل برفقة الحكيم، حتى هشّ الغـــزال، وبـــدا عليـــه الانشراح والفرح والسرور. ومشى دون إبطاء نحو صاحبه، وتمسّح به بلطف وعذوبة.

مسح يوسف على ظهره بباطن كفّه، كما لو أنّه يقـــول: لـــن أنساك، ولن أتركك وحيدًا بعد الآن.

ونظر الحكيم إلى المشهد بحنو ورأفة، ومد كفه ووضعها على رأس الغزال، كما لو أنه يباركه، ثمّ أشار إلى الخدم الذين وقفوا احترامًا وتبجيلاً، وقال لهم: أكرموا هذا الضيف اللطيف.

قال يوسف: سأبقى مع الغزال قليلاً يا سيدي.

أجابه الحكيم: ننتظرك لتناول العشاء، فلا تتأخر.

***

تمشى، والغزال يتمشى ويدور حوله.

يا لهذا المعلّم الذي يخفف من الإحساس بالغربة، ويخفف ما عانيت من بُعد المسافة ووحشة الطريق!

يا صديقي "ذا القرنين"، مثلك أنا غريب، مثلك وحيد، ولم أعتد على الحياة في هذه البقعة بعد. لعلّك تشتاق إلى البراري والغابات والينابيع وصحبة القطيع، مثلك أنا أشتاق إلى بحر ومنارة وأسوار وبازار وبيت ذي معمار مملوكي فيه هنانة وأحمد آغا، وإلى قصر صغير له شرفة تطل على البحر، وسيدة جميلة ومؤنسة وطيبة القلب، ووصيفة خلاسية يفيض من عينيها الحنان.

يا صديقي "ذا القرنين"، ابق معي ولنكن صديقين فعلاً في هذه الغربة، فأنا أشعر بدفء قلبك، ولعلّك تشعر بدفء قلبي.

تعال لتشد أزري، وأشد أزرك، لأشكو لك وأبوح بآلامي، وتبوح لي بحنينك.

يا صديقي "ذا القرنين"، لك قلب إنسان ولي قلب غزال.

لك ذكريات لا أعرفها، ولي ذكريات لا تعرفني.

لك عشب أخضر لذيذ، ولي قلق جاف لا يخلو من اللذة.

لك بصحبتي السلام، ولي بصحبتك المسرّة.

فجأة، أطلت المشرفة على المترل، شاهدها هو، وشاهدها الغزال ورنا إليها.

كانت تلبس الساري، وتلف شعرها بغطاء أحمر، وتبدو من خلال الضوء الساطع المندلق من الممر حيوية وشابّة وجميلة ومهفهفة الخصر.

إنّها تلك المرأة التي استقبلته بثياب العمل لدى وصوله. كيف لم ينتبه لجمالها الأخّاذ؟ لعلّ التعب ووعثاء السفر غيّبا عنه الوعي بهذا السحر. توجّهت وكلّمته بلغتها الهنديّة، وعندما لم يفهم، كلّمته بلغة الإشارة، ففهم أنّهم ينتظرونه لتناول العشاء.

***

في غرفة الطعام مائدتان: مائدة للنباتيين، ومائدة أخرى لمن يأكلون اللحوم. حتى على المائدة، تتعايش معتقدات وعادات وطبقات وتقاليد. يجلس على المائدة رجال ذوو شأن، ونسّاخون وخدم، مائدة الطعام النباتي يسودها الهدوء. ومائدة الطعام الأخرى تشتعل بالفلفل الحار والتوابل والكاري وسلطة الريتا وصواني لحم الضأن والطيور.

الحكيم المعلّم يتوسط مائدة الخضار والنباتات؛ تصطف فيها خضار ورقيّة من السبانخ والزهرة والبقول المخليّة والرز المطبوخ على الخضار.

كان يوسف يجلس على مائدة الطعام التي تشتعل بالفلفل الحار.

كان الجميع يأكلون ويتحدّثون، يتناولون الطعام بأياديهم. وكان المرق يسيل حتى أكواعهم.

أكل يوسف كما يأكلون. لدغت فمه ولسانه قرون الفلفل. دمعت عيناه من رائحة الكاري، ومع ذلك، أكل بنهم؛ فقد كان جائعًا، وعندما يجوع، لا يستطيع أن يفكّر أو يتأمل.

كان يحني ظهره نحو الطعام، لذا، عندما شبع ورفع رأسه، انتبه إلى وجود المرأة ذاتها تجلس على الطاولة المقابلة. حالما التقت عيناه

بعينيها، غضّت بصرها وانحنت على طعامها، وكان غطـاء رأسـها الأحمر يغطي رأسها بإحكام.

لعلّها كانت تراقبه وهو يأكل بنهم. لعله أكل كذئب جـائع. لعلّها استهجنت طريقته في الأكل. أية صورة رسمتها له في خيالها؟

كانت تنحني على صحنها، وبين الآونة والأخرى، ترفع رأسها وتنظر نظرة خاطفة، وعندما تراه ينظر إليها، تغض بصرها، وتلتفـت إلى جهة أخرى.

حدّث نفسه: أيها الجنّي الساكن في قلبي، أما آن لك أن تغض البصر؟ أما آن لك أن تدرك أنّ عِشرة النساء صـعبة، وأنّ العشـق الجنوني مرتعه وخيم؟!

***

انتهى العشاء. وكان يتعيّن على الجميع تنظيف المكان وغسـل الصحون، والعودة إلى عملهم، ومن لم يكن له عمـل، يتـريّض في الحديقة الخلفية، أو يذهب إلى مهجعه.

وفي الحديقة الخلفية، وجدوا مأوى للغزال، وخزّنـوا حمولـة الجمال من الجلود.

كانت جلودًا نظيفة، ومعالجة، ومعدّة للاستعمال.

كانت رقاعًا للنسخ، ينسخون عليها المخطوط المعد لإرساله إلى الدول والأقاليم.

في تلك الليلة، اجتمع يوسف مع الحكيم بحضور بعض مساعديه، وتم تكليفه بشغل الرقش والتزيين لصفحات مخطوط باللغة الفرنسية، وكان موجهًا لقائد الجيوش الفرنسية الذي ذاع صيته: نابليون بونابرت.

***

الفصل الخامس والعشرون

عكف يوسف على تزيين مخطوط (الشـــرق حكمـــة ومحبـــة وسلام)، بتزيين حوافه ومتنه، وزخرفته.

ابتكر ونمّق نقوشًا مستوحاة مما تختزنه ذاكرته، ومما هو مسكون في وعيه من تجريد مطلق، وحدس روحي، وصيغ جمالية حفظها عـــن ظهر قلب، تزيّن جدران المساجد، وبوابات القصور، وسور المصحف الشريف.

ابتكر صيغًا هندسية؛ فمزج بين المثلّثات والمربعـــات، وصـــنع نجومًا ثمانية، ومتواليات ذات سحر، وأضاف عليها رموزًا طبيعية من خلال التشجير بأوراق نباتية وورود وزهور.

منح رقوشه أبعادًا روحية. وعلى امتـــداد الكتـــاب بترجمتـــه الفرنســـية، ظلّ يبتكر وينمّق ويستبطن شـــفافية الشـــعر، وتجليـــات الصوفية.

حوّل رقشه إلى رموز ودلالات وصلاة وتبتل وتجويد وصـــوت أذان، وجلال المساجد، والكنائس، والمعابد.

أدخل الخط العربي برقّة ولين داخل رسومه، لتنـــدمج، كمـــا تخيّل، بحكمة النص المكتوب، وللإيحـــاء بـــالتنوع، ولقـــاء الأرض بالسماء، والشرق بالغرب.

عمل في غرف مغلقة، فغاب عن الغزال، وعن التفكير بالنساء، وعن الأكل والشرب والنوم العميق، وتوّحد مع جـوهر الفكـرة والرسالة، وأدخل نفسه في مساحة التأمّل الروحي.

وعمل في الهواء الطلق، هناك، حيث كان يمارس الحكيم المعلّم رياضته الروحية. هناك في الأعالي، قريبًا مـن السـماء والطبيعـة، مصطحبًا معه غزاله الجميل العاقـل الـذي لا يشـاكس ولا يـثير الضوضاء، كما لو أنّه تحلّى بالحكمة التي تظلل الفضاء.

***

لم يحسب الزمن، ولم يعدّ الأيام.

اشتغل في هذا البيت الريفي دون أن يفكّر بشيء غير عملـه. كان يصحو ويستحم، ثمّ يدخل المطبخ، فيشرب حليبه الصـباحي، ويتناول حبات من التمر.

لم يلتق في المطبخ بالمرأة التي أثارت خياله. وعندما سأل عنـها، قالوا له إنها ذهبت إلى أضنة لشراء تموين البيت، وحاجياته. وبعـد ذلك، لم يعد يأبه لغيابها.

كان يلقي نظرة على ذي القرنين قبل أن يبدأ العمل، يطعمـه بيده ويسقيه، ويمسح فروته الناعمة، ويمنحه بعض الدفء والحنو.

وعندما قرر أن يرسم في الخلاء، راق مزاجه، وتحسّن رقشـه، ودخلت الحكمة صدره.

مرّ الوقت الطويل وهو يرافق الكاغد والجلود والمداد والقلم والألوان، واستعان بخبير من طاقم الحكيم لمساعدته في عملية تثبيت الألوان وتذهيب الأطراف. وعندما أنهى كل شيء، حان وقت التجليد والتسفير لصنع الغلاف. اختار ورقًا من الكاغد الفارسي. نقشه وزيّنه بألوان مذهّبة ليعبّر عن الجوهر المكنون في متن الكتاب، وقام بتجليده وربط صفحاته، وأخاطها بتناسق ومهنيّة.

وقد حان الوقت في نهاية المطاف ليعرض عمله ويطّلع الحكيم على إنجازه.

تحدد الموعد، وكان عليه أن يمثل أمام لجنة من أعضاء فريق الترجمة ورسم الخطوط وخبراء الأحبار والألوان والرقش.

لفّ يوسف الكتاب بقماش من المخمل الأحمر، وتوجّه إلى قاعة الاجتماع.

قاعة صغيرة مفروشة بأثاث بسيط، تتوسطها طاولة عليها حاملة من خشب، مفتوحة على هيئة كتاب.

وفي طريقه إلى القاعة حاملاً المخطوط، لمح عن بُعد، المرأة ذات الساري الأخضر والشال الشفّاف الأحمر منهمكة في الحديث مع واحدة من الخدم.

توقف قليلاً، فانتبهت إليه. التقت عيناهما، فتركت محدثتها، وخفّت إليه.

هزت له رأسها بالتحية، وبدت بشوشة ويانعة كعروق النعنع.

أشارت إلى باب القاعة، ودعته للدخول. كان لها دور في هذا المحفل.

دخل وفي أعماقه تهيّب وقلق.

الحكيم يتصدّر القاعة، وحوله أربعة رجال من ذوي الشأن، وبعض الخبراء في صناعة الكتب ورقشها وتجليدها.

طرح السلام، فاستقبله الحكيم باحترام، ونظر إليه الآخرون نظرة تفحص لا تخلو من الشك.

نزع قماش المخمل عن الكتاب، وثبّته على الحامل الخشبي، ونظر إليهم يتفحّص بدوره وجوههم، التي لم تكن تشي بشيء.

عرض في البداية فنّه في التجليد، وشرح شيئًا عن الأسلوب الذي اتّبعه في التخريم والحبك، وما استعمله من الصمغ الطبيعي والغراء، وطريقة تجهيز كسوة الغلاف الذي زيّنه بالزخرف والتذهيب.

بدا على الوجوه الاهتمام، وصارت الأنظار مشدودة إلى زخرف الغلاف الذي يوائم مضمون الكتاب ويعبّر عن جوهره.

وبدأ هؤلاء المحكّمون يتبادلون نظرات الاستحسان بين بعضهم، وصارت نظراتهم تنمّ عن دهشة. أمّا الحكيم، فقد كان مستغرقًا في تأمل ما يراه.

ثمّ أخذ يقلّب الصفحات، ويشير إلى التزويق في زوايا المتـــون، ويشرح دلالة كل رقشة وتعبيرها عن سمو ما كتب فيها من كـــلام، وما فعله من رقش ونقش وتوشيح وتوريـــق وتشـــجير وزخـــارف هندسية أعطت بهاء ورونقًا لكل صفحة، وعبأت الفـــراغ بشـــكل مدروس، ومنحت الألوان للمتصفّح متعة بصرية وجماليـــة، وزادهـــا التذهيب سحرًا، خصوصًا أن الرسوم راعت تناغم الخط مع المساحة والحركة والإيقاع.

عمّ الذهول القاعة، وخرج المحكّمون عن صمتهم، وأطلقـــوا كلمات الإعجاب، وأثنوا، بحماسة، على هذا العمل الـــذي حـــوّل الكتاب إلى تحفة فكريّة فنيّة تليق بخزائن الملوك، ويعـــزّ نظـــير مـــن صنعها.

تنفس يوسف بعمق، ونظر إليهم غير مصدّق هذا الإطنـــاب في المديح، وبحث عن المرأة، فوجدها تقف خلفهم. وعندما وقع بصـــره عليها، أرسلت له من عينيها ومن يدها المخضبة بالحنّاء تلويحة رضـــى وإعجاب وأكثر.

ربت الحكيم على كتفه مباركًا هذا العمل المكتمل، وشـــكره، وطلب منه أن يختم جهده بصنع حافظة وصندوق موشّـــى بقمـــاش الحرير، لحفظ كتاب الحكمة هذا، ونقله إلى من يســـتحق الاطـــلاع عليه.

وأضاف الحكيم وهو يشير إلى المرأة: وستساعدك (فيـــديا) في اختيار القماش وخياطته.

نظر إليها. ها هو يعرف اسمها، فافترّت شفتاها عن ابتسامة، وهزّت رأسها مرحبّة.

لم يدر لأول وهلة ما يقوله لنفسه. وعندما اختلى بالحكيم، قال: ولكن يا سيدي، كيف أتفاهم معها وهي لا تتقن لغتي، وأنا لا أتقن لغتها.

ابتسم الحكيم وقال: عالم المعاني العميقة يفهمه القلب. والمعرفة شيء ملموس.

لم يفهم ما يقصده الحكيم، لكنه سكت، وترك الأمور تسير على هواها.

***

احتفظ الحكيم بالكتاب في خزانته.

انشغل يوسف بالتفكير في صنع صندوق يليق بكتاب الحكمة.

قرر أن يصممه بنفسه؛ فرسمه أولاً على الورق، ثمّ رسم على حوافه منمنمات ليبرزها بالحفر على الخشب، وكذا الغطاء. ورأى أن يكون الخشب من شجر السنديان الأحمر، مبطّنًا من الداخل بقماش الحرير، وهنا يأتي دور فيديا، ذات الساري الجميل والعينين الحوراوين.

وكان لا بد له أن يعرف شيئًا عن فيديا هذه، فلم هي المرأة التي تحظى برعاية خاصة من الحكيم؟

قرر أن يدخل في صحبة مع الخطاطين الذين يتكلمون اللغة التركية، وأن يعرف أكثر عن هذه الوجوه التي يراها، وخصوصًا أولئك الرجال الذين يدل مظهرهم على أنّهم من علية القوم.

وكان حسين، الشاب الهندي الذي يبرع في رسم الخطوط الهندية، الأقرب إلى قلبه. وكان من أكثر المعجبين بما فعله يوسف من رقش.

كانا يمضيان كثيرًا في نزهات مسائية بصحبة الغزال، ويتحدثان بالتركيّة، وكان دائم التحدث عن أسرته التي تعيش في كلكتا، وعن الفتاة التي يحبّها، وكم كان يتشوّق ويحنّ للعودة إلى بلاده.

وعندما سأله عن أولئك الرجال الذين يعملون مع الحكيم، قال له إنّهم من مشاهير الأطباء والمهندسين والعلماء وكبار التجّار الذين يؤمنون بأفكاره ويسعون لنشرها وتعميمها، ويموّلونها، ويدعمون رسالته في التواد والتوحد بين مكونات الشرق الدينية والعقائدية التي تجمعها المساواة والمحبة ومكارم الأخلاق، وحب الحرية، ومقاومة الاستبداد، والقيم الروحية، وسمو التوحد بين الأرض والسماء. فهناك ما يجمع بين حضارات الشرق من حكمة ومعرفة وفكر وتنوير ونظم الحياة.

وعندما تعززت الصداقة، حدّثه كثيرًا عن رسالة الحكيم باهر للتقريب بين أبناء البشر، وخصوصًا بين الشرق والغرب، ورسالته موجهة بالدرجة الأولى إلى الغرب الذي يرسل سفنه وجنوده إلى الشرق الأقصى والأدنى للهيمنة على الشعوب، وخصوصًا شركة

الهند الشرقية التي يملكها البريطانيون، والتي قيمن على أجزاء من البلاد، وتطلق يد القراصنة لخطف الرجال والنساء وبيعهم في أسواق الرقيق.

وعندما سمع الحكيم عن الثورة الفرنسية التي أطاحت بالنظام الملكي، والإعلان عن النظام الجمهوري، وما تسرّب من كلام عن إطاحة الثورة بطبقة النبلاء وحلفائهم من رجال الكنيسة، وتقويض سلطاقم، وإبعاد سلطة الدين عن سلطة الدولة، وما تسرّب أيضًا عن مدونة الثورة حول حقوق الإنسان؛ عند ذلك، تفاعل الحكيم بهذا التغيير، ورأى أنّه من الممكن أن تكون علاقة الشرق بالغرب علاقة تحالف وحوار، لا علاقة تنافر وصدام وهيمنة، إذ يتعيّن أن تلتقي حكمة الشرق بالرؤى التنويرية التي يشهدها الغرب من خلال الثورة في فرنسا.

ويرى الحكيم باهر أنّ ما يقوم به هو مساهمة جادة يتوجب أن تساندها جهود أخرى من مراكز التأثير في الشرق العربي، وخصوصًا من الأزهر الشريف، والقدس الشريف، والجامع الأموي الشريف، ومن حكماء مكّة والمدينة والنجف والأستانة وعلماء بلاد الشام والعراق وبلاد فارس.

وقال الهندي: إنّ هذه الدعوة وجدت صدى واسعًا في أوساط النخبة في عموم الهند، ومنهم هؤلاء الذين تراهم من علية القوم. وقد تم إعداد نسخ كثيرة من هذا الكتاب بمختلف اللغات، وهو بمثابة دعوة لتضافر الجهود من أجل السلام ووقف سفك الدماء، وللمحبّة

والمساواة والأخوة بين بني البشر، وقد استهلّ كتابه باقتباسات من القرآن الكريم ومن أحاديث للرسول محمد -صلى الله عليه وسلّم- عن حق الحياة وكرامة الإنسان؛ إذ إنه (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)، والخلق كلّهم عيال الله، والناس سواسية كأسنان المشط.

وفي نزهة ما، سأله يوسف عن فيديا، وأنّ رغبته في معرفتها من باب حب الاستطلاع، كونها ستكون معاونته في إعداد صندوق الكتاب.

قال له حسين إنّه لا يعرف الكثير عنها، لكن سمع أنها كانت منبوذة من قومها لأنها رفضت أن تحرق نفسها مع جثّة زوجها؛ فأهل الهند من الهندوس لا يدفنون الميت كما يفعل المسلمون والمسيحيون واليهود، وإنما يحرقونه ويذرون رماده أو يحتفظون بالرماد في زجاجة. وفي العادات والتقاليد، يتعيّن على المرأة أن تحرق نفسها معه كنوع من الوفاء، لكنّها رفضت. وعندما ترفض المرأة، ينبذها قومها، ويعاملونها باحتقار. وكما تعلم، فإنّ رسالة الحكيم هي حماية الحق في الحياة، وإنّه يقف إلى جانب المهمّشين والمنبوذين. وعندما لجأت إليه، رعاها وكرّمها وصارت جزءًا من فريقه.

***

في المشغل الملحق بالقبو والمخصص لأعمال النجارة، عكف يوسف على صنع الصندوق بنفسه. ساعده العاملون في القص وتوفير أدوات الحفر على الخشب.

أمضى نهارين في الترقيق والحفر والتركيب، وجمعِ أجزائه ولصقها بعضها ببعض بالغراء، وفي نهار ثالث، كان الغراء قد جفّ، وصار هناك صندوق بالغ الأناقة ومتين.

بحث عن فيديا، فوجدها في القاعة الكبيرة.

عرض عليها الصندوق، فعبّرت عيناها عن إعجاب وسرور.

قالت كلامًا بلغتها. وعندما أدركت أنّه لم يفهم، رسمت بأصابعها شكل وردة. ابتسم، فأغلق يده ورفعها، وحرر منها إصبع الإبهام ووجهها إليها.

تفاهما بسرعة. تحدّثا تارة بلغة الأصابع، وتارة أخرى بلغة العيون.

بدأت تقيس أبعاد الصندوق شبرًا شبرًا، ثمّ حملته. وقالت عيناها إنها ستقوم بعملها لكسوة الصندوق بقماش الحرير، وأشارت إلى حجر كريم يتوسط خاتمًا في إصبعها بلون الزمرد، ففهم أنها ستكسوه بلون الحرير الأخضر.

ثم هزّت له رأسها احترامًا، وحملت الصندوق وخرجت.

عندما خرجت، تذكّر قول الحكيم: عالم المعاني العميق يفهمه القلب، والمعرفة شيء ملموس.

ابتسم، وخيّل إليه أنّه بدأ يتهجّى شيئًا من حروف هذا العالم العميق.

***

عندما خرج إلى الساحة الخارجية، وجد أمامه صاحبيه في الرحلة الطويلة: الهندي المسلم، والهندي السيخي.

استقبلهما بالأحضان. كانا عائدين في ذلك اليوم من مكان ما، وكانا متعبين. كانا بحاجة للطعام والنوم. وكانا يبحثان عن فيديا.

كانت فيديا تنتظرهما، فأطلت بعد هنيهة، وأقبلت نحوهما، وتكلمت معهما، وقادتهما إلى الداخل. وقبل أن تغيب، تلفتت نحوه. بدا له أنها لم تلتفت هي، وإنما تلفت قلبها.

***

الفصل السادس والعشرون

أنهت فيديا تزويق الصندوق الأنيق المصنوع من خشب الـــزان البني بقماش الحرير الأخضر.

التقى بها في مجلس الحكيم. وصل يوسف قبلها، ثم دخلت بعد هنيهة.

كانت تلبس "الساري" بألوان زاهيـــة ومزركشـــة ونقـــوش زخرفية. يلتف حول جسمها ويبرز خصرها، ويغطّـــي جـــزءًا مـــن شعرها، وتبدو فيه ممشوقة القوام.

كان وجهها متوردًا، فلعلّها وضعت عليـــه بعـــض مســـاحيق التطرية، وكانت عيناها مكحولتين.

وعلى جبينها، وضعت نقطة حمراء، فزادها ذلك ألقًا وبهجـــة، ولعلّ الحكيم فوجئ بهذه الأناقة، واللباس الزاهي، وكذا يوسف.

دخلت تحمل الصندوق بتؤدة، وبخطوات بطيئة. دخلت بكامل بهائها. وعندما وصلت، وضعت الصندوق على الطاولة. وبيد مخضبة ومزيّنة بالحنّاء، فتحت الصندوق، ورفعت الغطاء.

بدا الحرير في باطن الصندوق وعلى حوافه فارهًـــا، ومنسّـــقًا، ومتدرّجًا، ويزهو بلونه الزمردي الساحر.

نظر الحكيم إلى هذا الحُسن، وهزّ رأسه إعجابًا، وعمد إلى خزانة في مجلسه ففتحها، وأخرج الكتاب. وحمله بخفّة ولطف، وأسكنه الصندوق، وتأمله قليلاً، ثمّ أغلق الصندوق.

نظر إليهما نظرة أب جليل القدر، وقال: لا أجد كلمات بليغة لأشكركما.

وتحول إلى يوسف، وقال بالعربية: أنت يا بني، قطعت مسافات طويلة وتجشّمت عناء السفر، وأكرمتنا بعملك البديع الذي لا يضاهى، وساهمت معنا في هذه الرسالة التي تدعو إلى عالم أكثر عدلاً ومحبة وسلامًا، فلك الشكر.

وتحوّل إلى فيديا، وعلى شفتيه ابتسامة. وتحدّث معها بالهنديّة، فضحكت واحمرّ وجهها، وأجابته بالهنديّة. فضحك الحكيم، ورد عليها، ثم ردت عليه بالغناء، وغنّت مقطعًا من أغنية هندية. كان صوتها لا يقل سحرًا وعذوبة عن وسامتها ورقّتها. كان يوسف يسمع بانبهار. بعد أن أتمت غناءها، تحوّل الحكيم إليه وترجم له: سألتها عن سر هذه الأناقة، وسر هذا الثوب المبهج، وهذا الوجه المزجج الحاجبين، والكحيل العينين، فذكّرتني بأنَ الليلة هي ليلة عيد (الهولي)، عيد الإله الهندوسي (كريشنا). ويسمونه أيضًا عيد الألوان، حيث يلبسون أفخر الثياب ويترلون إلى الشوارع للغناء وهم يصبغون الساحات بالألوان. وستشهد، يا بني، هذه الليلة حفلاً ينظمه رفاقنا من الديانة الهندوسية في هذه المناسبة، وقالت إننا

مدعوان للحضور. نحن في تجمّعنا من الأديان والمعتقدات نتشارك في كل مناسباتنا، ونحتفل بها تعبيرًا عن احترامنا للتنوع العظيم في الهند.

ثمّ طلب منهما أن يجلسا.

جلس يوسف ونظر إليها بعينين حنونتين، ونظرت إليه بعينين حوراوين، التقت العيون برهة، ثم غضّت بصرها خجلاً، لكنّ عينيها كانتا لغة، كانتا كلامًا، وشعر بخفقة قلب، ورعشة حنين.

خاطبه الحكيم قائلاً: تمكث عندنا شهرًا آخر، تُعلّم رفاقنا العاملين فن التزويق والتزيين والرقش العربي الإسلامي في الصباح، وأعلّمك علم الطاقة وفن الدفاع عن النفس وقت العصر.

وأضاف مداعبًا: وربما ترغب فيديا أيضًا في تعلّم فن التزويق العربي.

***

في المساء، كانت الساحة قد رشّت بالماء، وكُنست، وأضيئت بالمشاعل، وأشعلت في وسطها النار التي تطرد الأرواح الشريرة، وغصّت بسكّان هذا البيت الريفي، ومن يعملون به من خدم القرية المجاورة.

كان في وسطها أيضًا تمثال يمثّل الإله كريشنا.

وفي إحدى الزوايا، كان عازفو آلات السارود والسيتار والقيثارة والطبل والأجراس يلبسون زيًا موحدًا من القمصان والسراويل البيضاء، وعلى صدورهم تتدلى قلائد الورود والزهور.

وفي الركن الأيمن، تصطف أوانٍ نحاسية مملوءة بمياه ملوّنة.

غصّت القاعة بالحضور الذين يتهيأون للاحتفال بعيد الهولي، عيد الألوان والربيع والخصب وأمنيات الحصاد الوافر

وعندما دخل الحكيم والرجال ذوو الشأن ويوسف، وجلسوا على المفارش المزيّنة، بدأ الحفل؛ فعلى أنغام الموسيقى، دخلت النساء العاملات، الأولى تسوق عنزة سوداء مزيّنة بقماش يكسو ظهرها، ووجهها ملوّن بالمساحيق. الثانية دخلت تسوق حمارًا على ظهره بردعة فاقعة اللون، وحول عينيه مساحيق من شتى الألوان. الثالثة دخلت تسوق خروفًا لطّخت فروته البيضاء بألوان قوس قزح، ثمّ دخلت فيديا بثيابها الزاهية، وطلّتها الساحرة، تسوق غزال يوسف، وقد لُوّن قرناه ووُضعت في عنقه قلادة.

كان يوسف يراقب. وأسعده أنّ فيديا تعتني بالغزال. ولعلّ ذلك رسالة ذات مغزى.

وكان الحضور يصفقون لمرأى الحيوانات التي أفلتت وصارت جزءًا من المشهد.

وقف أحدهم وسط الحضور، وألقى كلمة بلغة هندية، فصفّق له الجمهور. وفهم يوسف أنّه يقدم فيديا لتبدأ الغناء.

عزفت الآلات، وصدحت الموسيقى بإيقاعات صقل الروح، ومن أمام تمثال كريشنا، غنّت فيديا أغنية قال الحكيم إنّها تستمد عذوبتها من المطلق الروحاني، وملأ صوتها الفضاء وسط صمت فيه خشوع.

لم يفهم يوسف كلمات الأغنية. لكنّه قارنها بأناشيد الأذكار الصوفية.

وعندما انتهت الأغنية، صفّق الجميع، وتبادلوا التهاني.

وخرج الرجل الذي يتولى إدارة الحفل، وألقى خطبة قصيرة، ثّم دعا فيديا للنزول إلى الحلبة.

أشارت فيديا للفرقة الموسيقية للكف عن العزف، وتقدم أحد الخدم وقدّم لها صينية عليها مساحيق الألوان. تناولتها وتقدّمت من الحكيم ومن يجلس حوله. طلبت منهم أن يغمسوا أكفهم باللون الذي يروق لهم، وكان الحكيم أول من غمس يده باللون البرتقالي، وتبعه يوسف والرجال ذوو الشأن. ثم أعادت الصينية إلى الخادمة، وأشارت إلى فرقة الموسيقى لمعاودة العزف، وأعلنت، كما تبيّن، عن افتتاح حفلة التراشق بالألوان، وعندها، هجم الجميع على الأواني وأخذوا يلطّخون وجوههم وملابسهم.

عزفت الفرقة هذه المرة موسيقى ترويض الجسد ذات الإيقاع العالي، فبدأت فيديا الغناء وهي ترقص وتتلوى على الإيقاع وتبدو

النقطة الحمراء على جبينها، فوق حاجبيها، مثل نجمة عنيدة، والتحق بها الحضور، وهم يرشّون المياه الملوّنة بعضهم على بعض، وتحوّل الحفل إلى مهرجان للبهجة والفرح وأقصى درجات المرح.

ولم يبقَ أحد خارج الحلبة، فقد شارك الحكيم في الرقص الرشيق وبدا نشيطًا وحيويًا كما لو كان شابًا في العشرين، وتبعه يوسف والرجال الآخرون، وأثناء ذلك، اقتربت فيديا من يوسف الذي يتعثّر في تنقيل خطواته، وأمسكت يده برقّة وعلّمته كيف ينقّل خطواته حسب إيقاع الموسيقى، وكيف يهز كتفيه وذراعيه. وعندما أمسكت بكفّه، اختلطت ألوان كفّها بكفّه، وأحس، وهو ممسك بكفها والدماء الحارة تسري في عروقها، كأنّه يمسك عصفورًا ينبض في يده.

أحسّ بها. أحسّ برسائل الود التي ترسلها إليه، باللمسات الرقيقة، والنظرات العميقة.

كان يخشى من هذه المغامرة. كان عليه أن يفكّر أكثر، وأن يتصرف بحكمة، فلماذا تلاحقه نزوة المغامرة أينما ذهب، وحيثما حل؟!

طال الرقص والمرح والتراشق بالألوان، وجنون ترويض الجسد، وصخب الموسيقى.

انتهت الحفلة في وقت متأخر من الليل. شعر يوسف بالإنهاك، وبدأ الجمع ينسحب، وعاد الحكيم إلى مهجعه، وكذا يوسف، والرجال ذوو الشأن. وعندما وصل غرفته، ارتمى على سريره ونام دون أن يتناول عشاءه.

***

أفاق متأخرًا. قام يقضي شؤونه ويغتسل. استبدل ثيابه. اليوم، ليس لديه ما يعمله. مشط شعره، وشذّب لحيته الخفيفة، وبدت له بعض الشعيرات البيضاء التي تندس بين شعره. ها هو يقترب من الثلاثين دون أن يشعر أنّ الزمن يمضي بسرعة.

رأى أن عليه اليوم أن يخرج للنزهة وحده. كان بحاجة لوقفة، للحظات تأمّل، ليعقد اجتماعًا مع نفسه، ليتذكر أحبابه الذين يغيبون عن ذاكرته، فماذا حلّ بهم؟ أحسّ بحنين لوالده أحمد آغا، وأمّه هنانة.

أحسّ بشوق جارف للسيدة في ذلك القصر الصغير وشرفته المطلّة على بحر يافا. أحسّ بحنين لوجه العيطموس وعينيها ودفء روحها، وحنين لبناها الجميلات، ولأسرار الخلاسية وغمازتيها على الخدّين.

خرج إلى التلّة العالية التي تحاذيها الأحراش وتطلّ على الجبال وآخر المدى.

كان مسكونًا بما تسلل إلى قلبه من حكمة ذلك الحكيم المعلّم، ومن أحاديثه في الفلسفة والروحانيات، برسالة المحبة، وتوحّد الشرق، والتوق إلى الحريّة والمساواة والحريّة بين بني البشر حيثما كانوا.

شعر أنّ كل ما في داخله يتحرّك، وأن الزمن يتدفّق ويندفع مثل الشلاّل. لم يعد يشعر أن الحياة راكدة، وأحسّ أنه يتعيّن عليه أن يكون لحياته معنى، وأن يتعلّم من حركة الحياة أكثر.

أوغل في سيره في السهول، ووصل إلى حافة الوادي.

عاد سالكًا الطريق ذاته. كان هواء لطيف يرسل نسيمه في الجو. وعندما اقترب من الصخرة، رأى الحكيم جالسًا وإلى جانبه فيديا والغزال.

عندما وصل، توقف وطرح السلام.

كان الحكيم يبدو مبتهجًا. وكانت فيديا تداعب الغزال الذي وقف مستكينًا. وكانت تلبس ملابس العمل. وكانت النقطة الحمراء لا تزال على جبينها.

قال له الحكيم مداعبًا: شاهدناك عندما خرجت من باب الإقامة، فلم نرد إيقافك وحرمانك من نزهة تحتاجها.

وأضاف: وفيديا رأت أنّ غزالك حزين، ربما لأنّك لم تعد تعتني به، فاصطحبته في نزهة.

ثمّ أشار له بالجلوس، فجلس.

تحوّل الحكيم من حديث الهزل إلى حديث الجد، وقال: يا بني، كان يتوجب عليك هذا الصباح أن تعطي رفاقك في العمل درسًا في فن الرقش العربي الإسلامي كما اتفقنا، وقد وجّهت اللوم إلى فيديا لأنها لم توقظك باكرًا، وتتدبر الأمر.

وصمت لحظات، ثمّ نظر إلى فيديا: فيديا تقوم بتنظيم كل شؤون الدار الكبيرة؛ شؤون النوم والمعيشة، وشؤون العمل. واستقبال قوافلنا التي تنقل المعرفة.

ظلّ يوسف صامتًا، وكذلك فيديا.

وقال الحكيم: وحان الآن موعدك في العلاج بالطاقة.

أجابه يوسف: ها أنا بين يديك.

كان الغزال يلتقط الحشائش، ويدور برشاقة هنا وهناك. وكانت فيديا ترعاه ولا تبعد نظرها عنه.

أشار الحكيم إلى فيديا، وقال: انظر إلى النقطة الحمراء على جبين فيديا.

نظر إلى تلك النقطة الحمراء التي تتوسط جبينها. ولعلّ فيديا التي لم تكن تفهم ما يقولانه ارتبكت عندما رأت يوسف ينظر إليها بكل جرأة.

قال الحكيم: هنا، عند تلك النقطة، مفتاح الطاقة.

وأضاف: أغمض عينيك.

أغمض عينيه.

قال الحكيم: اهدأ قليلاً، وتخيّل أن لـك عينًا ثالثـة فـوق حاجبيك. وأثناء ذلك، تنفّس بهدوء.

فعل كما طلب منه الحكيم.

- ركّز وانظر في أعماقك من عينك الثالثة.

مرت لحظات صمت، فقال الحكيم: لا تشغل عقلك بـالتفكير بالشوائب. اترك عقلك يفكّر بطاقتك الداخلية، وبتلك القوّة الـتي تمكّنك من فعل كل ما هو خارق. ابحث عنها. انظر إليها من عينـك الثالثة، من النقطة الحمراء التي تضعها الحسناء على جبينها، أي فوق حاجبيها. من هناك، مفتاح الطاقة الكامنة في داخلك. جده واعثـر عليه، وستشعر بنوع من السخونة. ستشعر بدبيب نمل يسري علـى جسدك. ستحس أن جسدك يتضخّم.

وصمت الحكيم. وتعلقت عينا فيديا بوجه يوسف. ومرّ وقت طويل ارتجف به يوسف وعبرت جسده قشعريرة.

فجأة، قال الحكيم: قف. وبكل هدوء، افتح عينيك.

فتح عينيه وقد احمرّ وجهه. ومرّت لحظات صمت عاد خلالهـا يوسف إلى وضعه الطبيعي.

سأله الحكيم: لقد وصلت إلى معرفة مركـز طاقتـك الـتي ستتحكّم بها. وستتمكن من ذلك بعد استكمال مجموعة من التمارين.

عليك أن تتدرّب على هذا التمرين اليوم وغدًا وبعد غد. وبعــدها، ننتقل إلى تمارين جديدة في التنفس والتأمّل.

دخل يوسف في حالة صمت وهدوء، وأحــسّ أنّ عضــلاته ترتخي، وأنّه بحاجة إلى غفوة.

وضع الحكيم يده على رأسه، ومرر كفّه على شــعره وقــال: الطاقة قوّة موجودة داخل الحجارة والأشجار والحيوانات والطيــور والإنسان، قوّة مغناطيسية داخل الإنســان مرتبطــة بالــدماغ، أي بالعقل، أي بالتفكير. طاقة يمكن بالعقل السليم، والرياضة الفكريــة والروحية، أن ننقيها من الشوائب، من مظاهر العدوان، ومن مظاهر الكذب والنفاق والاعتلال، ومن الزمن الرتيب. علم الطاقة هو علم البحث عن المعاني العميقة، علم تحويل الإنسان إلى كائن نزيه، علــم الطاقة يرتبط بالتأمل والحكمة، وفي التفكّر بعالم تنتفي منه الخطايــا. اسمع صوتك الداخلي يا بني، فثمة أشياء مغلقة يجب أن تفتحها، ثمــة نوافذ يتعيّن أن تُفتح لتدخل منها الشمس، ثمّة ما يجب عمله ليمتلــئ القلب بكل ما هو روحي، وثمّة أشياء فارغة في دواخلنــا يجــب أن نملأها بالحكمة.

***

الفصل السابع والعشرون

بدأت دروس الرقش في غرفة المعمل.

كان المتدرّبون ثلاثة، أحدهم صديقه حسين الذي يتقن اللغة التركية، والذي يقوم بمهمة الترجمة.

في اليوم الأول، لم تشارك فيديا. في اليوم الأول، وضع يوسف الإطار العام لدروس فن الرقش العربي.

نشر على الطاولة أقلام الفحم، والمسطرة والفرجار والمثلّث، وأقلام القصب المبراة، وزجاجات الحبر، ومعجون الألوان المستخرجة من الزهور، وأدوات الحفر والنقش، وقطع الصدف والعاج، وبعض الأحجار الكريمة.

بدأ في التعريف بهذا الفن وتاريخه. وتحدث عن رسم الأشكال الهندسية، المصحوبة بالخط العربي، واستحضار التوريق، أي الأشكال النباتية، وارتباط ذلك برؤية الفنان المسلم لطبيعة المكان الثقافية ودلالات المطلق الزماني.

وتحدّث عن تزيين البيوت والقصور والمساجد، وكيفية إبراز جماليات الزخرف والرسوم والخط والتعشيق والنقش والتطعيم.

كما حدّثهم عن المواد المساندة للرقش، مثل الصدف والخشب والمعادن والأصباغ، والذهب.

وبدأ في تعليمهم رسم الأشكال الهندسية، من متواليات هندسية تصنع المثلثات والنجوم وأشكالاً مخروطية وتكوينات فنية أخرى، من زخارف وزينة يستبطن فيها الفنان المسلم روحانية تمجّد عظمة الخالق.

كان صباحًا مفعمًا بالفرح. وكان المشاركون يقبلون بحماسة على المتابعة والتعلّم. وكان صديقه حسين يترجم من التركية بطلاقة.

في اليوم الثاني، جاءت فيديا، واستمعت إلى الشرح. وشاهدت يوسف وهو يرسم، ويستعمل أدوات الرسم، ويلوّن رسومه بشكل رشيق وجميل.

عندما انتهى الدرس، وقفت ووقف معها صديقه حسين، لم تتكلم، وإنما تكلّم حسين: طلبت مني فيديا أن أخبرك أنّها ترغب في تعلّم لغتك العربية.

مسح يوسف يديه بالمنشفة، وابتسم. وأبدى اهتمامًا.

خاطبها مباشرة بالتركية: ولماذا تهتم بتعلّمها؟

ضحكت ضحكة خجولة، وأجابت، فترجم حسين: تقول إنّها أحبتها وأنت تتكلّمها، ولأنها سترافق الحكيم في رحلته إلى بلاد الشام ومصر.

نظر إلى عينيها. كم يحب هذا البياض! كم يحب هذين البؤبؤين!

وكانت النقطة الحمراء لا تزال مطبوعة على جبينها.

***

في المساء، ذهب إلى خلوة التأمّل.

هناك، يتوحّد الحكيم مع الطبيعة، ويستغرق في التأمّل، وينشد عميقًا النمو الروحي، والصحة النفسية.

هناك، في بساتين الله الواسعة، بعد التمارين الروحية للطاقة، وفي لحظات صفاء، كان الحكيم يتكلّم ويجيب عن أسئلة يوسف:

الهند، يا بني، فيها تنوّع ديني وثقافي. وهي مهد حضارات، وطريق التجارة منذ أقدم الأزمنة. وظهرت فيها أديان قديمة، وجاءت إليها أديان سماوية؛ ففيها الهندوسية والبوذية والجاينية والسيخية والزرادشتية والإسلام والمسيحية واليهودية. تتعايش فيها هذه الأديان والمعتقدات منذ آلاف السنين. تتآلف أحيانًا، وتتصارع أحيانًا أخرى. والمشكلة ليست في الدين أو المعتقد، المشكلة في الفقهاء والرهبان والقائمين على بعض المعابد المتشددين والمتعصبين الذين يعتبرون أنفسهم ممثلي الرب على الأرض.

وحدثت في تاريخ الهند محاولة لدمج كل هذه الأديان بدين جديد، هو مزيج من تلك الديانات. وقام بهذه المغامرة الملك المغولي جلال الدين أكبر، الذي كان أميًّا حين استلم الحكم، لكنه أحب

الفلاسفة والرسامين والخطاطين. وجمع في بلاطه فلاسفة ينتمون إلى كل الديانات الهندية.

كان أكبر مسلمًا يميل إلى التصوّف، ورغم ذلك، أعجب بما في العقائد الأخرى من فكر، وتأثّر بالمناقشات التي كانت تدور في قصره بين العلماء والمفكّرين من شتى التوجهات، فقرر أن يؤسس دينًا جديدًا يوحّد الهند، وسمّى هذا الدين (الدين الإلهي)، وكان مزيجًا من كل ديانات الهند، وفرضه بالقوّة. لكن هذا الدين لم يعمّر طويلاً، فانتهى بوفاته. وبعد ذلك، عاد أتباع هذا الدين إلى دياناهم.

نحن مثلكم يا بني، نعتقد أنّه لا إكراه في الدين، ولذلك، ندعو إلى التعايش بين الأديان، سواء كانت سماوية أو وضعية، ففي كل منها حكم وعدل ومساواة وحرية وسلام ومحبة وأخلاق وتنوير، وهذا التنوع يثري الحياة، ويغني الثقافة، ويبعث على الإعجاب، ويغري بالتأمّل.

نحن ندعو إلى التعايش والمحبة بين أبناء هذا الشرق الغني بتراثه وتاريخه الحضاري والإنساني من جهة، وندعو إلى أن يعود الغرب إلى رشده، ويكف عن غزو الشرق واضطهاده والهيمنة على خيراته، ومعاملة هذا الشرق معاملة السادة للعبيد.

الغرب، يا بني، فقد رشده، في الغرب مفكّرون وفلاسفة تنويريون، لكنّ هذا التنوير مخصص لهم، لهم وحدهم، وليس لشعوب

الشرق. ونحن نريد أن نبعث رسائل لهذا الغـرب، لعلّـه يعـود إلى رشده، هل فهمت يا بني؟

كان يوسف يستمع ويعي ويعجب بكلام الحكيم المعلّم.

***

نهار كان رائقًا ونظيفًا في الصباح، اتسخ في المساء.

بينما كان يكتب لفيديا الحروف الأبجدية العربيـة، ويعلّمهـا كيف تنطق كل حرف بوجود المترجم حسين، جاء أحد الخدم ونقل النبأ الذي عكّر كل شيء: الغزال يتمدد في الساحة جثّة هامدة.

وقع النبأ وقوع صاعقة وكارثة وهزّة أرضية.

توقف كل شيء، وهبّ يوسف واقفًا، وتبعته فيـديا، وربمـا حسين أيضًا.

في الساحة. كان الغزال ممدّدًا، والزبد يملأ شدقيه. قرناه مثـل جذع شجرة يابسة، وعيناه مفتوحتان على ألم.

قالت فيديا ما مفاده أنّه لم يمت؛ فجسده يرتعد، وهذا يعني أنه لم يمت.

انحنى يوسف وحمله ونقله إلى الظل، وأحسّ أنّ قلبـه مـا زال ينبض.

قالت فيديا ما ترجمه حسين بأنّ هناك حشرة معروفة تلسع الدواب لسعات مميتة قد تكون لسعته، وأنّ لديها الدواء.

كان يوسف مهزوزًا، وتعطّل تفكيره، وأرتج عليه، فلم يستطع أن يقول شيئًا.

تركته فيديا يحزن على طريقته الخاصة، ومضت إلى الداخل.

كان يوسف يرتبك ويقرع السن ندمًا لأنّه لم يعتن بالغزال، وانشغل عنه.

عادت فيديا تحمل حقيبة، فتحتها وبدأت تبحث عن قارورة بداخلها.

حقنت الغزال بالدواء، ثمّ بحثت في جسد الغزال، ووجدت مكان اللسعة المنتفخ، وجرحته بالسكين. وانحنت تمتص الدم الفاسد وتبصقه، ثمّ ضمّدت الجرح. وطلبت من يوسف أن يدخل الغزال إلى غرفة في الداخل.

***

صار مرض الغزال موضوع الساعة. انتبه سكّان البيت الكبير إلى وجود كائن لطيف يشاركهم السكن. توقف النسخ والنقش والرقش والطبخ والغسيل والتأمّل.

صلّى أتباع الديانات جميعًا من أجل شفائه.

كان يوسف يراقبه وهو ينام على فرش من التبن الطري، كما يراقب أب فلذة كبده.

كان الغزال يسند رأسه على التبن ويغمض عينيه، كان قرناه يبدوان ذابلين، وكانت ثمة قشعريرة تجرح القلب تعبر فروته بين حين وآخر. كان يبدو كما لو أنّه يحتضر.

عينا فيديا تذرفان، وقلب يوسف يذرف. والحكيم الذي كان شديد التأثّر، يشيح بوجهه ليخفي دمعة. كانت العيون في تلك اللحظة قد أنسنت هذا الكائن في تلك اللحظة.

دخل الهنديّان –رفيقا السفر– إلى الغرفة، أحدهما، السيخي، كان خبيرًا بالبيطرة، دخل ومعه قارورة دواء، ودون أن يستأذن، ركع على ركبتيه، ودهن جسم الغزال بمعجون بلون الحليب، دهن رأسه وفروته وقوائمه، ثمّ دلك الفروة بلطف وخفّة. وبعد أن أنهى عمله، رفع رأسه وطلب دثارًا ليغطيه.

خلعت فيديا شالها وقامت بنفسها بتغطية الغزال الغائب عن الوعي، غطّته برفق وحنو.

وقف السيخي. التقط أنفاسه وقال: أرجو أن تذهبوا إلى مهاجعكم وتتركوا هذا الفتى ينام. اتركوا الهواء النقي يدخل إليه، ودعوا شمس الصباح تمنحه دفئًا مثل دفء قلوبكم، هذا الغزال ابن الطبيعة والبراري والغابات، وهناك، لا يوجد أطبّاء. هناك، تمنحه

الطبيعة مناعة. وفي الصباح، سأحمله إلى البراري، وسترون النتيجة. اتركوا لي العناية بهذا الفتى، واذهبوا الآن إلى غرف نومكم.

ربت الحكيم المعلّم على كتف يوسف، وهمس له: هيّا.

أمسكت فيديا بيد يوسف بلطف بكلتا يديها، كما لو أنها ترجوه، ثمّ سحبتهما بلطف. خرج طلبته من الخطاطين. خرج الحكيم وخرج يوسف، وبقي الهنديّان.

***

في الليل، رأى يوسف فيما يرى النائم، أو خيّل إليه، أنّ الغزال استيقظ عفيًّا، ونبت له جناحان، وطار في الفضاء مثلما تطير النسور. وفي طريقه، طوى المسافات، ومرّ على بلاد الشام، ورفرف فوق أسوار يافا، وحط في باحة قصر له شرفة تطلّ على بحر وشاطئ وسماء صافية، ومكث هنيهة عند روح وريحان وجنة نعيم، فأطلّت عليه من النوافذ عيون الحور العين، وجرت من تحته الأنهار، وهبت عليه نسائم من برتقال وليمون، وأطلّت وصيفة ولوّحت له باليد، ومن ورائها سيدة أطعمته اللوز بالسكر، وحمّلته السلام السليم الأرقّ من النسيم، وبعدها، فرد جناحيه ورفرف مصحوبًا بالسلامة، وعاد ليطوي المسافات طيًّا، وفي طريقه، حطّ في غابة، وفي الغابة، رأى غزالة، فأدركه الشوق والحنين، فذهب إليها ومشى معها إلى نبع ماء، شربت وشرب، واقترب منها واقتربت منه. تعانقا بحك كل منهما رقبته برقبة الآخر، ثمّ وقفا وجهًا لوجه ينظر كل منهما للآخر، تنظر إلى قرنيه كما تنظر ملكة إلى تاج ملك، وينظر إلى عينيها فتلتمع

مقلتاه بالبريق كما تلتمع عيناها. مشت ودعته أن يساكنها الغابة. خلع جناحيه واختار البقاء معها.

استيقظ دون أن يدري: أهو حلم الذي خيّل إليه في المنام؟ أم أنّ عقله الباطن نسج حكاية وأدارها في خَلَده؟ أيرغب حقًّا في دفع الغزال إلى الغابة ليعيش في بيئته ويجد قطيعًا ينضم إليه؟!

ولماذا جعل الغزال يطير إلى بلاد الشام ويحط رحاله في يافا؟ ولماذا استحضر السيدة ووصيفتها، واستحضر الروح والريحان وجنّة النعيم؟ ولماذا أطعمته اللوز والسكّر، وحمّلته سلامًا أرق من النسيم؟

أيكون ذلك إشارة حنين للعودة إلى يافا؛ ولأيامها وطقسها وتضاريسها وبحرها، وعشقها، وقلائد بناها وأساور نسائها، وبهار أسواقها. وتنوّع معمارها، وحنينه إلى السيدة وبناها والحكايا التي تطرد الألم والسأم؟

هل يشعر في لاوعيه بالعزلة مثل غزاله؟ ومثل غزاله يحن إلى قطيع، بل مثل عصافير الفضاء يحن إلى سرب؟

***

في مساء اليوم التالي، أفاق الغزال من سباته. حمله الهنديّان – رفيقا السفر– إلى الغابة، وتحت شمس ربيعية، تركاه يأخذ قسطًا من نقاهة.

ولحقت بهما فيديا، ووضعت يدها على جسم الغزال لتمنحه شيئًا من طاقتها.

في اليوم الذي يليه، وقف على قوائمه ومشى خطواته بتعثر. وفي اليوم التالي، مشى بصلابة، وأخذه يوسف معه إلى جلسة التأمل ورياضة الطاقة.

ثمّ صار الهنديان يعتنيان به. وقد حاز ذلك على رضاه؛ لأنّه لا يريد أن يكون الغزال عائقًا أمام رحيله من هذا البيت الكبير.

كان قد قطع شوطًا كبيرًا في الرياضة الروحية والتحكّم بالطاقة، وكان عليه أن ينتهي منها، فلقد حان الوقت الذي يتعيّن فيه أن يعود إلى دمشق ويافا، فلن يأبه بتهديد الإنكشارية والوالي.

سيعود لأنّ البلاد طلبت أهلها، ولأنّه لا بدّ من يافا، وإن طال السفر.

***

الفصل الثامن والعشرون

في التأمل والتدريب، يعود الحكيم شابًا؛ يلقي قميصه جانبًا، ويبقى بالصديري، والسروال الفضفاض الذي يشده إلى جسده حزام عريض.

يرفع رأسه عاليًا وينظر إلى السماء.

ثمّ يلتفت إلى يوسف، ويقول له بصرامة: ارفع رأسك وشد ظهرك، واعتدل.

يستجيب يوسف ويشد ظهره، ويجلس قبالة الحكيم.

هكذا كانت تبدأ تمارين الطاقة والتنفّس. هكذا كانت الأمور تأخذ منحاها الجدّي.

وكان يقول: الطاقة كامنة في الإنسان، وتستطيع، من خلال التمارين، أن تتحكم بها، وأن تستخرجها من أجل تحسين حياتك وصحتك ومزاجك، وأن تطوّرها للمحافظة على شبابك.

وهكذا كان يقول: التأمل والنظر من خلال العين الثالثة تنشيط لفكرك وتثقيف لعقلك.

ويقول: تعلّم أساليب التنفس وإطلاق الشهيق والزفير.

علّمه التمارين النوعية، تمارين الاستلقاء على الظهر، وتمارين مد الرجلين وفرد الذراعين، وشد عضلات البطن، وشد عضلات القدمين والذراعين، وعلّمه فن الاسترخاء. وعلّمه فن القفز في الهواء

عن طريق شحن الطاقة المغناطيسية في الجسم بنفس شحنات مغناطيسية الأرض لإحداث تنافر يؤدي للتخلّص قليلاً من الجاذبية.

وعندما أنهى تدريبات الطاقة والتنفس، علّمه فنون الدفاع عن النفس.

درّبه على إرسال الطاقة إلى رؤوس الأصابع لتتحول إلى صلابة الحديد، للقتال باليد.

وعلّمه فنون القتال بالسيف والخنجر والعصا والسوط، وفن حركات السرعة؛ الحركات الخاطفة وشل العدو، وإفقاده طاقته، والضغط على نقاط ضعفه.

لم يكن شيخًا هذا الذي يعلّمه، بل كان شخصًا آخر يتمتع بالحيّوية والرشاقة والقوة الخارقة.

لم يعد يفكّر بعد شفاء الغزال بالتعلّق بالمرأة والساري الذي تلبسه، والنقطة الحمراء على جبينها.

التمارين والتأمل وتطوير الطاقة والتحكّم بها غمرت قلبه بالهدوء والسكينة، وشوقه للعودة إلى يافا عبأ مساحة الرغبة والمراودة في أحاسيسه تجاه المرأة وجاذبيتها.

حتى الغزال، تركه في رعاية رفاق السفر، ولم يعد يرغب في التعلّق به.

كان السفر يلحّ عليه. وكان ينوي مفاتحة الحكيم المعلّم بهذه الرغبة، قبل أن توقظه فيديا من النوم ذات ليلة لمقابلة الحكيم على جناح السرعة.

***

كان الحكيم المعلّم في غرفته يجلس على البساط ينكبّ على قراءة الرسائل، رسائل وصلته للتو.

كان وجهه متجهمًا، بل مكفهرًّا. واصل الحكيم تدقيق النظر في أوراق البريد. وبعد صمت، قال: نابليون الفرنسي احتلّ مصر منذ أشهر، وهو يتوجه الآن إلى إيالات فلسطين ووصل قضاء يافا.

وقع الخبر عليه مثل سقوط جدار.

– حروب نابليون انتقلت من غزو دول الغرب إلى غزو الشرق.

– وربما يحتل كل شواطئ شرق المتوسط ليصل إلى الأستانة.

كان يوسف لا يزال مذهولاً. لم تعد ساقاه تحملانه، فجلس على البساط بصعوبة.

نظر إليه الحكيم، وقال: تحكّم بطاقتك. يتعيّن أن يكون عقلك سليمًا لتفكّر معي، فأنت ابن تلك البلاد وعليك أنت أن تدلّني.

كانت فيديا تنتظر قرب الباب. خاطبها الحكيم فغابت برهة من الزمن، ثمّ عادت وبصحبتها ثلّة من الرجال ذوي الشأن.

جلسوا على الفرش المحاط بالمساند، وبدأ الحكيم يتحدث معهم بلغتهم، بينما يوسف يستمع. وجرى نقاش طويل ويوسف يستمع، وتوصلوا، كما بدا، إلى اتفاق. ويوسف ينظر ويستمع وتدور في رأسه الهواجس.

وانتبه الحكيم إلى أنّ يوسف لم يشارك، وأنّه لم يفهم، فتوجّه إليه بالكلام: تحدثنا في أمور تتعلق بغزو نابليون وتأثيره على رسالتنا. وأجمع الرفاق على أن نذهب للالتقاء به، ونقدّم له كتابنا، ونذكّره بمدوّنة الثورة الفرنسية التي تلتقي، بنسبة ما، مع رسالتنا.

قال ذلك والتفت إلى الرجال، وتكلّم. ثم دخلت فيديا تحمل الصندوق، صندوق خشب الزان البني، المرقّش، والمزوّق، وعليه الحفر على شكل مثلّثات ونجوم.

تعلّقت عينا يوسف بالصندوق، ثمّ لما فتحه الحكيم تعلّقت عيناه بالبطانة الحريرية، ثم لما رفع الحكيم الكتاب، تعلّقت عيناه بالغلاف.

تمنى في تلك اللحظة أن يحتضن الكتاب ويفتحه صفحة صفحة، ويعاود تأمّله رسمة رسمة، وتزويقة تزويقة، ونجمة نجمة.

***

أجمعوا أمرهم، وفي الصباح، كانت لهم ضوضاء.

جمالهم تبرك في الساحة مثقلة بالأحمال، ومتاع يحمّل بالعربات، رجال وخدم بين غاد ورائح.

حوذي الجمال يغنّي، وحوذي العربة يردد، وأيمن ينظر إلى كبد السماء، وأيسر يطلب من الخدم شد الهمّة.

القافلة صارت جاهزة للتحرّك، والحكيم وصحبه من الرجال ذوي الشأن لم يظهروا بعد.

كانوا منشغلين في النقاش، فانسلّ يوسف من بينهم ومضى إلى غرفته، وحمل المخلاة وحقيبة ملابسه الخفيفة التي كان قد أعدها ليلة أمس.

حملها وهبط إلى الساحة. وجد أمامه ضوضاء وهرجًا ومرجًا، وكانت فيديا تراقب التجهيزات عن كثب ومعها الهنديّان رفيقا السفر وراعيا الغزال.

عندما شاهدته، أقبلت عليه، وأمرت إحدى الخادمات بتسلم حقيبته، إلاّ أنّه تشبث بالحقيبة، بل ومشى بها إلى الخارج. ذهلت المرأة، واستنجدت بالهنديين اللذين لحقا به.

لم يتوقف يوسف، وواصل سيره. ودون أن يلوي على شيء، قال لهما: أبلغا الحكيم أنني سأذهب إلى أضنة، وأعود إلى يافا عن طريق البحر.

وقفا مشدوهين. ومن خلفهما، وقفت فيديا في حالة من الذهول. مشى إلى المنحدر الذي يفضي إلى القرية القريبة.

اتخذ طريقه بين الصخور والأشواك، وكان يقفز أحيانًا، ويمارس طقوس التحرر من جاذبية الأرض ويركب الريح ويطوي المسافات.

• • •

صار بعيدًا. اختفى وسط الأراضي والصخور الصمّاء. وعندما صارت الحقيبة عبئًا، ألقاها جانبًا وواصل الرحلة.

***

من أضنة، توجّه إلى الميناء الذي لا يبعد كثيرًا. اكترى عربة أوصلته إلى منطقة بوتاش، حيث المراكب التي تنقل البضائع.

كانت معظم المراكب تتوجه إلى بحر إيجة. غيّرت مسارها لأنّ الأساطيل الفرنسية والبريطانية والروسية تجوب ضفاف شرق المتوسط. كانت موانئ يافا وعكا مناطق حرب.

نام على الرصيف ليالي عدة. كان الميناء مكتظًا بأناس من بلاد الشام انقطعت بهم السبل.

وجاء الفرج عندما تطوّع زورق صيد لنقله ونقل الآخرين إلى ميناء اللاذقية لقاء أجر بسيط.

***

من اللاذقية، أكمل رحلته في زورق آخر إلى بيروت، ومن بيروت، توجه جنوبًا نحو جبل عامل. ومن جبل عامل الى إصبع الجليل. ومن هناك، توجه نحو عكا مشيًا على الأقدام. كانت أصوات المدافع تملأ الفضاء. وكان سكان القرى التي يمر منها يحذرونه من الاقتراب من عكا. وقالوا له إنّ نابليون قد احتلّ يافا، وارتكب مجازر دموية، وإنّ حامية يافا قد استسلمت، وإنّ جنودها، وعددهم أربعة

آلاف، قد أعدموا بالرصاص والسلاح الأبيض، وإنّ الجثث تراكمت على رمال الشاطئ، فانتشر وباء الطاعون، وهجرها معظم أهلها.

وطلبوا منه أخذ الحيطة والحذر، لأنّ جنود الجنرال كليبر، مساعد نابليون، ينتشرون في القرى المحيطة بعكا، ويغيرون عليها، ويصادرون القمح والطحين والماشية.

وسمع أيضًا عن استبسال حاكم عكا في الدفاع عن المدينة، وأنّ جنودًا من الجيش العثماني يتبعون للقائد الشجاع كوشك حسين باشا يقاتلون بشجاعة خلف خطوط الفرنسيين الغزاة.

كل خبر تسبب بندبة في روحه. كل خبر جعله يسخن ويتحوّل إلى سفّود من الغضب. وكل خبر اعتصر قلبه وحوّل أصابعه إلى مشطين من الحديد.

فكّر في بهنانة وأحمد آغا. فكّر في الناس والبازار. وفكّر في العيطموس وأسرار. وفكّر في الأسوار والقلعة والأسواق. وفكّر في كل من يقلق عليهم.

كان يبحث عن طريق سالك إلى يافا. أرشده سكّان القرى إلى طريق قريب من قلقيلية. لكن عليه أن يكون حذرًا.

قطع طرقًا ضيقة من بين الجبال، وطرقًا وعرة في المنحدرات. نام ليلتين في الخلاء. وأكل البقول البرية عندما نفدت زوّادته.

وعند اقتراب الغروب، وصل تلة قريبة من قرية عزّون.

كان هناك تجمّع كبير من الرجال الذين يحملــون الطبنجــات والخناجر ويلبسون ملابس قروية، ويعتمرون الطــواقي والحطّــات البيضاء، فتوجّه إليهم.

هبط من المرتفع ثلاثة رجال، وطلبوا منه التوقف.

توقّف، فسألوه من أين أتى وإلى أين يذهب؟

أجاب عن سؤالهم، فسمحوا له بالتقدم.

كانوا من المجاهدين الذين يقطعون الطريق على الجيش الفرنسي المتوجه لاحتلال نابلس.

طلب أن ينضم إليهم، فتشاور كبيرهم مع من حوله، فتوافقوا على قبوله.

عرف في وقت لاحق أنّهم من قرى بني صعب التي تضم عزون وقرى أخرى. وعرف أنّ هذه الليلة ستشهد معركة فاصلة مع جيش نابليون.

سألوه عن خبراته في القتال، فأخبرهم عن التمارين التي تعلّمها على يد الحكيم المعلّم؛ تمارين القتال بالســيف والخنجــر والعصــا والسوط، والاشتباك مع العدو باليد، وفن الحركات الخاطفة، وشــل العدو وإفقاده طاقته، والضغط على نقاط ضــعفه، فــنزع كــبيرهم خنجره عن وسطه وقدمه له.

• • •

لم يكن هؤلاء الرجال مدربين على قتال الجيوش، لكنّهم كانوا يريدون إنزال الهزيمة بجيش نابليون المتوجه إلى مدينة نابلس. كانوا يمتلكون الشجاعة ورباطة الجأش، وكانوا يحملون الأسلحة البيضاء والعصي، وقلّة منهم كانوا يمتلكون الطبنجات.

قال وجيه القوم وقائدهم عابد إنّ فرقة الجيش الفرنسي تعسكر في وادي عزّون، وإنّهم ينتظرون حلول الظلام ليبدأوا هجومهم، فالليل أخفى للويل.

قال ذلك وبدأ يوزع عليهم المهام. قال إنّه قرأ عن معركة حطين التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين، وإن هذه الفزعة من عزّون والقرى المجاورة ستقسّم إلى قوة ميسرة وقوّة ميمنة، وقوة في الوسط. وكل القوى تنقضّ في الوقت المناسب على العدو.

عندما اشتدت حلكة الليل، تحركوا. وتحرّك يوسف معهم. كانوا يتسابقون للوصول إلى قمّة الوادي، وهناك كمنوا ينتظرون إشارة كبيرهم.

كان عابد يمتلك ذكاءً فطريًّا. وكان توقيت الهجوم ينمّ عن هذا الذكاء الفطري.

عامل يوسف كما يعامل الفلاحون ضيوفهم، فالضيف يكرّم ويعزز، ولذلك اصطفاه ليكون مع الوجهاء الذين لهم العقد والعزم.

نصبوا كمائنهم فوق الجبل، وانتظروا الإشارة.

• • •

كان المعسكر مكشوفًا، وكانوا يشعلون النار للإضاءة، وكانوا ينتظرون وجبة العشاء.

بذكائه الفطري، قال لمن حوله: سنفاجئهم وقت تناول الطعام.

وقال: سأطلق النار من هذه الطبنجة على أول ضابط يقدمون له الطعام، فلا بد أن يكون هو قائدهم، فإذا قتلنا القائد، تدب الفوضى ونهجم عليهم ونحن على قلب رجل واحد.

مرّ الوقت بطيئًا، ويوسف يراقب خيام المعسكر، والجنود، ببنادقهم الطويلة المركبة عليها مُدى، كانوا يلبسون ملابس الجيش، ويعتمرون قبّعات مزيّنة بشريط أحمر.

أخيرًا، حان وقت وجبة الطعام. نشروا صناديق الذخيرة على شكل مقاعد وطاولات، وجاء كبار الضباط إلى المكان الذي تضيئه نار الحطب، وتوزعوا على المقاعد، وتصدّر أحدهم الجلسة، وعندما قدّم الجنود القائمون على الطبخ طبق الحساء الأول للضابط المتصدر الجلسة، قام الوجيه عابد بتسديد الطبنجة نحوه وضغط على الزناد، فأصابه في رأسه، وانقلب على ظهره والدم يغطي وجهه.

وبدا المشهد كما هو متوقع؛ حدث ذعر وارتباك. وحاول الآخرون النجاة بأنفسهم. وقبل أن يولوا الأدبار، كانوا من الميمنة والميسرة قد هبطوا المنحدر ووصلوا إلى المعسكر، أما قوّة الجناح الأوسط، فقد هبطوا خفافًا ليكملوا على قادة الفرقة، وكان أولّهم يوسف، الذي وصل بقفزة واحدة، وتحكّم في طاقته، وتحولت أصابعه

إلى صلابة الحديد، وأعمل فيهم ضربًا بحركات خاطفة، فشلّ قدراتهم، وأفقدهم توازنهم، وضغط على نقاط ضعفهم، وأكمل الرجال بعصيّهم وخناجرهم على من تبقى.

سمع دوي طلقات قليلة، لم يمكّن الفلاحون الجنود من استعمال بنادقهم، غير أنّ قوّة المدفعية في النطاق العالي من المعسكر أطلقت بعض القذائف، وكان عددهم قليلاً فاندفع يوسف إليها. ركّز وشحن جسده بطاقة مغناطيسية تعادل القوّة المغناطيسية للأرض، فانفلت من الجاذبية، وبقفزة واحدة كان في أعلى الجبل، وأعمل بأصابع يده الحديدية توجيه الطعنات إلى الجنود الذين يتهيأون لتلقيم المدفع. وبقفزة أخرى، أجهز على آخرين، وولى من تبقى الأدبار.

وانتقلت عدوى الهروب للجنود الذين فقدوا قادتهم، وما إن انتصف الليل، حتى كان أهالي عزون من بني صعب قد سيطروا على الموقف وألحقوا الهزيمة بالفرقة العسكرية.

***

الفصل التاسع والعشرون

كانت هزيمة مدويّة للجيش الفرنسي الغازي، أبدى بها المقاومون شجاعة، ونبغ فيها يوسف. طبّقت أخبارها الآفاق، وتغنى بها الشعراء الشعبيون.

وصار الرواة يروونها في المجالس والمضافات على نغمات الربابة.

وذاع صيت يوسف وبسالته، ونُسجت عنه القصص والحكايات، وسمّوه في سيرهم وحكاياهم يوسف اليافاوي، وبعضهم سمّاه يوسف الذي يركب الريح. أما الرواة وعازفو الرباب، فقد أطلقوا عليه اسم: راكب الريح. وفي قرى الخليل، أضافوا كلمة "صندلاوي"، فصار "راكب الريح صندلاوي"، أي راكب الريح جنّابي، وهو يضع رجلاً فوق أخرى، دلالة على أنّه في ذروة مجده "فوق الريح".

بعد معركة عزّون، انضم إلى فرقة عسكريّة تابعة للقائد العثماني كوشك حسين باشا.

كانت الفرقة تعمل وراء الخطوط، وتقطع الإمدادات، وتهاجم مرابض المدافع.

وتخصص يوسف في عمليات الإغارة على رماة المدفعية التي كانت تمطر عكا بالقنابل؛ يسقط عليهم من عل، وينقضّ عليهم

كالنمر، ويجهز عليهم بذراعيه، ويمزّقهم بأصابعه العشر. فكل إصبع مدية أو خنجر.

وشارك في المعركة عندما أحدث الفرنسيون ثغرة في السور، واندفعوا لاقتحام المدينة، فواجههم رجال أحمد باشا من الأمام، وهاجمتهم جماعة القائد العثماني كوشك حسين باشا من الخلف، وكانت هزيمتهم مذلّة.

***

قال الرواة: انتشر الطاعون بين جنود نابليون. نقلوه معهم من يافا إلى عكّا، وصار وباء.

أحدث نابليون مستشفيات ميدانية لمعالجة المصابين في دير للرهبان في حيفا، وفي مبنى السراي في قرية شفا عمرو قرب الناصرة، ولم يكن ثمّة من علاج سوى الأفيون، لم يكن الأفيون علاجًا، كان يخفف الآلام فقط.

كثر المصابون بالوباء، وغصّت الأماكن بمن لم تستوعبه البيمارستانات، امتلأت الوجوه والأجساد بالدمامل والقيح. وكان الناس يسمعون صراخ المرضى وتأوهاتهم بسبب الآلام والأوجاع.

كان طلب نابليون من الأطباء زيادة جرعة الأفيون لمن حالتهم ميئوس منها من أجل التخلّص منهم.

***

مرّ شهران دون أن تتمكن مدافع نابليون من اختراق الأسوار ودون أن يتمكّن جيشه من دخول المدينة. كانت مدافع أحمد باشا تردّ على مدافع نابليون، وظل جنوده ومغاويره يهاجمون الأطراف.

وفي اليوم الستين للحصار، كانت خسائر القوات الفرنسية كبيرة. ورافق ذلك نقص في التموين والإمداد، وسرعة انتشار الوباء.

في اليوم الحادي والستين، أشعل الفرنسيون مشاعل هائلة على امتداد السور، وبدأوا القصف ليلاً من جميع المدافع بلا توقف. وواصلوا القصف نهارًا، وأفرغوا كل ما لديهم من قذائف وقنابل. وفي صباح اليوم الثالث، صمتت المدافع.

أفرغوا ترسانتهم، وتوقفوا. لقد أقرّوا بالهزيمة.

***

قال الرواة:

إنّ الفرنسيين بدأوا في الانسحاب؛ أخلوا مواقعهم، وأغرقوا أسلحتهم الثقيلة في البحر، وتخلّصوا من جنودهم المرضى بالطاعون بحقنهم بجرعات كبيرة من الأفيون، وحملوا عددًا كبيرًا من الجرحى في رحلة العودة الشاقة إلى مصر. وإنّ نابليون عاد مهزومًا مثل ذئب جريح.

***

على طول الطريق الساحلي، يغصّ الطريق بطابور من العربات والجنود المشاة. يسيرون وقد أنهكهم التعب، كأنما يخوضون في وحول الحر ودبق رطوبة البحر.

يحملون على أكتافهم حقائبهم، وتــنحني ظهــورهم لثقلــها. أحذيتهم بالية، وملابسهم متسخة، وقليل منهم يمتلك قبعة تقيه حــر الشمس.

تسبقهم العربات التي تحمل قادتهم، وجرحــاهم، ولا يــأبهون بابتعادها.

البنادق على أكتافهم مثل غصن شجرة يابس، وكلّمــا مــروا بقرية أو مضارب البدو، توقفوا ليتزودوا بالزاد والماء، بالحســنى أو بالعنف.

توقّفوا في حيفا، وكانت العربات تنتظرهم. انتشروا على طول الشاطئ، بعضهم خلع ملابسه وسبح على الشاطئ ليبترد، وبعضهم الآخر تمدد تحت ظلال أشجار السرو والصنوبر على التلة المقابلــة، ونام.

كان أهالي حيفا يطلون من نوافذهم علــى المشــهد، دون أن يعرفوا أن الحرب انتهت. كانت تغزوهم الهواجس، ويقتحم قلــوبهم الخوف مما يخبَّأ لهم من هذا الزحف.

هناك، على سفح جبل الكرمل، كانت تحدث في الدير عملية إعدام لمرضى وباء الطاعون. كانوا يحقنوهم بجرعات عالية من الأفيون، دون أن يفرّقوا بين من هو ميئوس منه، وبين من يتماثل للشفاء. كانوا في عجلة من أمرهم، ويريدون الرحيل دون إبطاء.

غافل مريض يتماثل للشفاء، وهو أشقر، وأزرق العينين، الجنود والأطباء، وهرب من الموت بملابسه الرثّة. قفز من النافذة، وركض نحو الكنيسة الملحقة بالدير.

خبّأه الرهبان وقدموا له الطعام، وعزلوه في غرفة في باحة خلفية، وقدمت له الراهبات المساعدة، وزودنه بمنقوع البابونج لمسح الجراح والصديد الذي ينز من الدمامل في جسمه.

وعلى الشاطئ، وزعوا الطعام على الجنود الذين بدت وجوههم مصفرّة، وبان عليهم الهزال والضعف.

وبعد حين، اصطفوا في الطوابير، وتقدمتهم العربات، وواصلوا السير جنوبًا بمحاذاة الشاطئ.

***

في عكا، خلع يوسف ملابسه العسكرية، ولبس ثيابه المدنية، وركب حصانه الذي وهبه له قائد فرقة القائد كوشك حسين باشا.

كانت عكا تشهد احتفالات النصر؛ تتجمّع الحشود عند جامع أحمد باشا، فيهتفون ويرقصون ويطلقون موسيقى الطبول والمزامير والشبّابة، ويحملون على أكتافهم الجنود الذين دافعوا عن المدينة.

عَبَر يوسف من على أطراف ساحة الاحتفال، وخرج من بين المباني ذات المعمار المملوكي والعثماني، وهو يلقي نظرة وداع على الشرفات المحترقة التي لا تزال تتدلى منها نباتات الزينة، وكانت القنابل لا تزال تترك آثارها على أبراج السور.

خرج من البوابة بحصانه الأبيض متين البنية، وعبر تلة الفخار التي لا تزال بها آثار السواتر الترابية ومخلّفات القذائف وبقايا الخنادق، وأطلق لحصانه العنان متوجهًا نحو الجنوب، في الطريق إلى يافا.

كانت الطرق لا تزال غير آمنة، لكنّه، مدفوعًا بحنينه وبوصلة قلبه، قرر أن يخفّ سريعًا إلى يافا، مدفوعًا بأمل العثور على والديه وأحبابه.

الطريق موحش، لكنّ حصانه يطوي الأرض طيًّا. مرّ في قرى بائسة، وبطرق على جانبيها بقايا مدافع هالكة، وشظايا متناثرة، ودواب ميتة ينغل في أجسادها الدود، وزمازم ماء، وأحزمة رصاص، وأحذية بالية، وخوذ حربية، وسقط متاع من مخلّفات طوابير الجيش الفرنسي.

عندما وصل منطقة العتيقة في مدينة حيفا خارج أسوار المدينة، ربط حصانه، وقرّر أن يأخذ قسطًا من الراحة.

كان طابور الجيش المنسحب لا يزال على الشاطئ، وكانت العتيقة خالية ومليئة بالخضرة والأشجار الكثيفة.

قلّب أمره في الطريق الآمن الذي يتعيّن عليه أن يسلكه.

ركب حصانه وسلك طريق البر. صعد إلى جبل الكرمل بمحاذاة السور، وسلك طريق قمة عين الحايك، ميممًا نحو أحراش الجبل في جنوبه الشرقي، واخترق المسارب التي تشق غابات البلوط واللوز وكروم العنب.

سلك طريقًا التفافيًا لا تسلكه طوابير الجيش المنسحب.

وفي طريقه، مر على قرية وتزوّد بالخبز واللّبن، وتزوّد ببرسيم لإطعام الحصان.

سلك طرقًا وعرة. وعندما استوت الأرض في منطقة سهلية، وجد عند منعطف جنديين مصابين بالوباء هائمين وهاربين من الموت على قارعة الطريق يتسولان بملابس رثّة، فتوقف وأعطاهما زوّادته، وشعر تجاههما بالأسى.

وقال لنفسه إنّ المرض سيحولهما إلى هيكلين عظميين قبل بزوغ فجر يوم جديد.

الحرب هي الحرب؛ موت وأوجاع وتوحش، وأمجاد عسكرية على جثث أرقام.

كم من الدماء سالت على كوكب الأرض في تاريخ الكون، كل عصر أكثر وحشيّة من العصر الذي سبقه؟ وكم من مذابح سترتكب إلى أن يرث الرب الأرض وما عليها؟

وقال لنفسه إنّه لم يكن يرغب في أن يكون محاربًا، وإنّه مارس حق الدفاع عن النفس.

خواطر كثيرة خطرت بباله وحصانه يعدو في الأرض المنبسطة، ويقطع المسافات، وعلى الجانبين خراب ودمار ووحشة.

في روحه أشواق، وفي أحاسيسه حنين، وفي القلب جمرة، فيا لبعد المسافات! كأن الحصان يعدو إلى الخلف، ويا لوحشة الطريق! ويا لسوء المنقلب!

***

الفصل الثلاثون

بديع هذا الحصان، بديعة قوائمه وسنابكه، بديعة جبهته العريضة التي تزيّنها غرّة تشق وتخترق الهواء المعاكس، بديع ذيله المرفوع كعامود راية. صبور هذا الحصان الرشيق الجميل، يتلاعب الهواء بشعر ناصيته، ولعينيه بُعد نظر، ولجلده نعومة وبريق، ولأذنيه انتصاب، ولعنقه الطويل شموخ.

يا لهذا الرفيق الذي يؤنس الوحشة! تعب راكب السرج وهو لم يتعب. تعب ماسك اللجام وهو لم يتعب. فيا لعنفوانه وصلابته وقوّته!

شعر يوسف بألفة مع هذا الرفيق الصبور والرشيق، مع هذا الكائن الضامر الخصر.

وصل وحصانه مشارف يافا. بدت الأسوار من بعيد والغيوم تنتشر وتتمدد في السماء، وكان الوقت وقت الغروب.

خفف من سرعة الحصان، وقلبه المضنى يخفق.

افتحي لي ذراعيك يا حنانة، وشدّني إلى صدرك يا أبتاه.

اغفري لي يا أمّي، ويا مدينتي المكلومة، ويا أهل بلدي البسطاء.

دخل بوابة المدينة.

أبراج منهارة، ثغرات وانهيارات في السور، آثار القنابل وحريق في الأسواق والبيوت المهجورة، حفر عميقة في الشوارع، آثار دم جاف على الحيطان، دواب نافقة على الطرق، دجاج ضال يجول في

الحارات، قطط فقدت القدرة على المواء، وكلاب تجوس بين الأزقة تلهث ويبدو عليها الهزال، أشجار مائلة وأعناقها مكسورة، أكوام نفايات يحط فوقها ذباب أسود. فوانيس إضاءة مكسّرة يتناثر زجاجها على قارعة الطرق، دبابير خارجة من أوكارها، أبواب بيوت مخلوعة وبقايا نوافذ محترقة، روائح كريهة تنتشر في الهواء، رعب خفي في الحارات ينمّ عنه صمت ووحشة. كأن نعيق غربان ظلّل المدينة بالسواد. كأنّ الأشياء تحتضر. كأنما الموت طحن المدينة بكلكله، ومزّقها بأظافره، ومسح ألقها بقبحه.

يمشي ويمشي معه الحصان، يحترق قلبه، ويجفل الحصان في كل خطوة.

المشهد يتسع على وجع، على بقايا جثث، وعلى بحر متسخ، وعلى كلاب مسعورة تعوي حتى الانتحار، على سفن محطّمة بلا سواري ولا مجاديف، وعلى أبراج سقطت من على الصخور وتناثرت أحجارها، وعلى ليل شديد السواد يرخي سدوله على خوف، ويغلق رتاجه على فزع.

يصل بعد لأي إلى الحارة التي تغيّرت معالمها، وأصبحت مهجورة.

يصل بعد لأي إلى بيت أحمد آغا وهنانة.

***

لم يكن هناك باب كي يطرقه، ولم تكن هناك حديقة. كان ركام يسد المدخل ولا يوحي بأنّ وراءه بيتًا.

نزل عن الحصان، وانحنى في الظلمة، ودعبس وهو يمشي على يديه فوق الركام بحثًا عن بقايا بيت، امتلأ بالهواجس، وخيّل إليه أنّ أبويه ربما يكونان جثتين تحت هذه الأنقاض.

حبا خطوة خطوة، حبا صاعدًا إلى أعلى. علق سرواله بخشبة مزّقت السروال وجرحت فخذه، كاد يتزلق إلى الخلف ويسقط. تشبّث بتراب وحصى. انتتر ومد يده إلى آخر مدى ممكن، وأمسك بما يشبه صخرة. صعد إلى أعلى. أصبح بإمكانه أن يطل على الجهة الأخرى. في الأسفل بقايا بيت أو بقايا أعمدة. لا ضوء ولا بصيص، عتمة مطبقة، وكآبة منظر.

تكوّر على نفسه وتدحرج. وجد نفسه في فراغ. تحسس ما يمكن أن تصل إليه يداه. خيّل إليه أنّ أمامه كتلاً من العبث واللا شيء. كاد يصل إلى اليأس. أغمض عينيه وحاول أن يرى من العين الثالثة. حتى العين الثالثة لم تسعفه.

توقّف دون أن يدري ما الذي يتعيّن عليه أن يفعله. وعندما اعتاد على العتمة، تسرّب ضوء ما، غيمة تفتتت وابتعدت عن القمر، وصار بإمكانه أن يرى المزيد من الحطام.

لا بيت، لا هنانة، لا أحمد آغا.

بكى وجثا على ركبتيه. جثا ونثر التراب بيديه، كأنما يريد أن يعفّر نفسه.

هل هي نهاية الرحلة؟ هل انتهى كل شيء؟

تسلّق الركام عائدًا إلى حصانه، وعائدًا إلى المدينة المذبوحة، المدينة التي تتدثّر بالعزلة والهواء الأسود.

***

أصبح الجامع الكبير أمامه.

ترجّل عن الحصان، ومشى وعبر الباب إلى الفناء. وعلى الرغم من العتمة، توجه بالحدس إلى ماء السبيل، وشرب وبلل حلقه الجاف.

ثمّة صفير ريح في ساحة المسجد السماوية. كان يحفظ محتوى المسجد ذي المعمار العثماني عن ظهر قلب؛ يستطيع أن يحدد مكان المزولة الشمسية، ومكان المتوضأ، ومكان الحمامات، ومكان المكتبة، فمشى نحو الرواق الأول دون عناء، كان يتوقع أن يجد أحدًا من حرس الجامع، خدم الجامع، مؤذن الجامع، شيخ الجامع وإمامه، فمشى دون عناء وسط هذه العتمة. كان يعرف كل عقد من العقود، وكل زخرف على الجدران، زخارف بآيات قرآنية أو بزخارف نباتية. وكان يستطيع أن يصل وهو مغمض العينين إلى كل ليوان من لواوين الجامع.

دخل الرواق الذي يحتوي على غرف العاملين ذات النوافذ التي تحيطها عقود نصف دائرية، وأطل من نوافذ الغرف ونادى بصوت عال، لكن أحدًا لم يجبه.

توجّه إلى داخل المسجد، خطا بضع خطوات ونادى إن كان أحد هناك، تردد صدى صوته بين جنبات القاعة الواسعة التي تعلوها قبب مزخرفة.

أضاءت شمعة حيث يؤم الإمام، وسمع صوتًا آدميًا شديد الحذر، ثمّ أقبل الضوء نحوه، وعندما اقترب، انفرجت ملامح حامل الضوء، وقال لمن يجلس هناك: إنّه يوسف آغا يا سيدي.

مشى نحو المنبر يسبقه الخادم، ولعلّه أحس بالسكينة، وشمّ رائحة الإنسان، فأقبل على شيخ الجامع وإمامه ولثم ظاهر يده.

عانقه الشيخ وقد عرفه. وكان ضوء الشمعة يتراقص وتتراقص معه الظلال.

– متى عدت يا بني؟

سأله الشيخ. فأجاب: منذ ساعة يا سيدنا.

صمت الشيخ مثل صمت الأعمدة والتيجان والعقود والرخام.

– وجدت بيتنا ركامًا، ولم أجد والديّ. قل لي يا سيدنا أين أبي؟ ألا يتردد على الجامع؟

بكى خادم الجامع، بكى بحرقة، وبكى الشيخ.

غاص قلبه، بل انخلع. جفّ حلقه ودمعت عيناه، وأُرتج عليه، وانثالت دموعه مرارة وملوحة. وسرت الرعشات في بدنه.

وضع الشيخ يده على رأسه وتمتم بآيات من القرآن ليترل السكينة عليه.

قام الخادم وهو يمسح دموعه، وغادر المكان، ثمّ عاد بعد حين وهو يحمل أكوابًا محلاة من منقوع الأعشاب.

كان يوسف يطأطئ رأسه، بينما الشيخ يواصل تمتمته.

وعندما أنهى تمتمته بقراءة الفاتحة، توقف وقال: تناول الشراب يا بني قبل أن يبرد.

رفع رأسه، وهو يحسّ بغصّة، وسأل: كيف مات والدي؟

أجاب الشيخ: مات كما مات أكثر من أربعة آلاف يافاوي بالقصف أو بالإعدام. صخرة الأقدار سقطت على رؤوس الجميع.

– هل مات في قصف القنابل أم بالإعدام؟

– أنت تقلّب الأوجاع يا بني.

قال خادم الجامع: أعطى ساري عسكر الفرنساوية الأمان للجنود الذين استسلموا، وأعطى الأمان للسكان، لكنه غدر بهم وبالوجهاء من المدنيين؛ قتل الجنود بالرصاص والخناجر والسيوف، وكذلك قتل الآغاوات والباشاوات وممثلي الطوائف الدينية.

قال الشيخ: صه يا رجل، صه.

تدخل يوسف: دعه يكمل يا سيدنا. لقد وقع الفأس بالرأس وانتهى الأمر.

صمت الخادم، فوجد الشيخ أنّه ملزم بتكملة الكلام.

– جمعوا الوجهاء وبدأوا عمليات الإعدام بالسيوف، وكان المشهد مرعبًا، فطلب عدد من الوجهاء أن يختاروا بأنفسهم طريقة موهم، وألاّ يسمحوا للجلادين بذبحهم بالسيوف والخناجر، فحفر

كل منهم قبره في الرمال، وطلبوا من الجلادين إهالة التراب عليهم. وكان والدك من بين من اختاروا هذه الميتة.

اكتست ملامح يوسف بحزن وغضب. اشتعلت نار في جوفه. أحسّ بأنّه يتحول إلى سفود، وسكنه زلزال ودّ لو كان أمامه ما يحطّمه، وظل يستمع إلى كلام الشيخ: أما السيدة هنانة، فقد انهار عليها البيت وأخرجناها من بين الركام، ودفنّاها في مقبرة الطابية.

بدت عليه أعراض القرين أو ارتفاع منسوب الطاقة، وبذل جهدًا ليتحكّم بطاقته. أحسّ أنّه يغيب، وأحسّ بالدوخة والصداع، ووجد نفسه يتمدد على سجّاد المسجد، ويغمض عينيه.

على الرغم من شح الضوء، بدا الشيخ وخادم الجامع محزونين وخائفين.

مرّ الوقت ثقيلاً قبل أن يستيقظ يوسف من غفوته.

استيقظ وذبالة الضوء توشك على الانطفاء، فقام وودع الرجلين، وخرج يمشي بتؤدة دون أن يخفّ الصداع.

ركب حصانه، ومضى يخوض في زمن المدينة المر.

لم يكن هناك من أحد، ولا حتى جنود الفرنساوية.

كانت المدينة فارغة، لا هبوب ولا دبوب، لا صوت سوى نباح الكلاب المسعورة، وصدى ثغاء الخراف التي سيقت إلى المسالخ، ومأمأة العنزات المذبوحة التي تسخر من العنزات المسلوخة.

* * *

هواء ساخر مسموم يحوم فوق الأمواج، وحول الجثث الملقاة بعضها فوق بعض، والجثث التي تتناوشها الضباع وبنات آوى. هواء ساخر يملأ شقوق الأبواب المحطمة وتجاويف ما تبقى من مآذن وأبراج أجراس، وفوانيس منارة مطفأة. هواء مسموم، عندما يدركه السأم، يمارس العبث ويتلاعب بأوراق الشجر المتساقطة.

ما الذي بقي من المدينة، وإلى أين تذهب؟ وعندما يهاجمك التوحّش عن يمينك، ويهاجمك عن يسارك، ويهاجمك من خلفك، فعلى أيّ جانبيك تميل؟!

***

قادته قدماه وسنابك الحصان إلى ذلك القصر الصغير ذي الشرفة المطلّة على البحر.

كان مستنفدًا، فارغ الأحاسيس، ميّت العواطف. كان مستلبًا ومصدومًا ومجوّفًا.

كان يتوق إلى بكاء، لكنّ الدمع صار عصيًّا.

وقف على مقربة، ووقف معه الحصان. وكانت الغيوم الرقيقة تسمح بمرور ضوء القمر عبرها.

كان ذلك القصر يبدو له فارغًا وموحشًا. لم يشعر برعشة، ولم تهزّه ذكرى.

ما الذي أتى به إلى هذا المكان، الذي كان مكانًا؟

ما دامت بهنانة غائبة، وأحمد آغا غائبا، فلمن تنادي المآذن، ولمن تقرع الأجراس، ولمن تورق الأشجار، ولمن ترفرف العصافير، ولمن تقرع الطبول، ولمن يرسم الرسامون، ويرقّش الرقّاشون، ولمن تسرد الحكايا، ولمن يصبح الصباح، ويمسي المساء؟

كان القصر الصغير يبدو له كقلعة في صحراء، قلعة مهجورة صامتة لها حديقة مزروعة بالرماح.

ظلّ واقفًا، يعتلي السرج وتأخذه التداعيات كل مأخذ، ولعل السأم أو التعب أدرك حصانه، فأطلق حمحمة ثمّ صهيلاً.

عندها، وبعد هنيهة، أطلّ ضوء سراج، ضوء شحيح، لكنّه بدا، وقد حجبت الغيوم ضوء القمر، سراجًا منيرًا.

تقدم الضوء نحوه. تقدّم بوجل. وعندما اقترب، ظهرت خلفه الوصيفة الخلاسية.

رغم العتمة وصعوبة الرؤية، أحسّت به، شمّت رائحته، رأته ببصيرتها وليس ببصرها. سقط السراج من يدها وانطفأ.

جثت على ركبتيها وانهارت بالبكاء، فترجّل عن حصانه، ومشى إليها، فكفّت عن البكاء ووقفت وعانقته.

وفيما كانت تحضنه، شاهد من خلفها شبحًا ينتظر في الردهة.

كفكفت الوصيفة دموعها، وأمسكت يده، ومشى معها إلى الداخل.

• • •

فجأة، أُضيء فانوس ذو ضوء ساطع. فاجأه الضوء فأغلق عينيه نصف إغماضة، ومرّ وقت قصير قبل أن يعتاد عليه.

عندما دخل ما ظنّ أنّه الليوان، فتح عينيه جيّدًا، فأبصر العيطموس. أبصرها، ولكنها بدت بلا ملامح.

كانت روحه إذ ذاك مطفأة، وكانت روح العيطموس، كما بدا له، مطفأة أيضًا.

عندما وقعت عيناها عليه، أقبلت وجثت على ركبتيها وبكت أمامه بحرقة.

ظل واقفًا أمامها وكأنه شخص آخر. لم يدر ما يفعل. الكارثة كسّرت العواطف، وأطاحت برعشات القلوب.

وجد نفسه، أو وجد من كان يعتقد أنّه قرين يركع قبالتها، ويمسك يديها، ويضمها إلى صدره ويقبّل رأسها. لكنّها سحبت يديها من يديه بارتباك، وأبعدته عنها، ثمّ وقفت وولت هاربة إلى غرفتها.

***

الفصل الحادي والثلاثون

ولّت هاربة، ودخلت غرفتها، وأغلقت الباب وراءها.

تبعها وحاول الدخول، إلاّ أنّ الباب كان مغلقًا بإحكام.

تقدّمت الوصيفة أسرار ودمعة تغرغرت في مآقيها، وارتجفت شفتاها وهي تقول: لا تترعج. السيدة لا تريد أن تنتقل العدوى إليك.

فوجئ، ودخل قلبه الجزع. بحث عن مكان يجلس عليه، فلم يجد سوى بلاط الليوان.

يا هذه الليلة الداجية! يا هذا السواد المرير! يا هذه الأقدار الخشنة والجافّة!

سارعت أسرار، وجلبت وسادة سميكة فجلس عليها. كان الفانوس ينوس وتخفت إضاءته، ومع ذلك، انتبه أن الليوان عارٍ، ولا أثر للمقاعد الفارهة المذهّبة.

انطفأ الفانوس، نفد زيته، فاقترحت أسرار الخروج إلى الباحة.

في الباحة، تتناثر كراسي هنا وهناك. يبدو المكان خربًا، وخاليًا من نباتات الزينة.

لاحظ ذلك على الرغم من أنه كان مهمومًا وحزينًا ومستلبًا، أفكار هوجاء كانت تتلاطم مثل الأمواج في ذهنه، موت ووباء وهواء أصفر، كل ما يدور حوله أقسى مما تتحمله المخيّلة.

جلست أسرار أمامه تحت ضوء قمر شاحب وقد انطفأ ذلك البريق الذي كان يشعّ في وجهها، واختفت الغمّازتان.

جلسا صامتين. هي تضع يدها تحت ذقنها وتحزن على طريقتها. وهو يذهب بعيدًا. هو حاضر الذقن وغائب الذهن.

قالت فجأة: انتقلت إليها العدوى منذ أسبوع. حصد الوباء أرواح البنات اللواتي يعملن معنا. واحدة منهن نجت وتركتنا وذهبت في حال سبيلها.

كان ينظر إليها، ويستمع كما لو كان غائبًا عن التركيز.

وقالت: عشنا أسوأ الأيام منذ اليوم الأول للغزو.

صمتت ولم يبد منه رد فعل، فأكملت: لم نجد من يدافع عنّا. جنود الحامية استسلموا، فدخل جيش الفرنساوية واستباح جنوده المدينة. سلبوا كل ما يملكه الناس من حلي وأموال وأمتعة وتحف وأثاث، واغتصبوا النساء، حتى نساء الحرملك، لم يسلمن من الاغتصاب.

هزّ رأسه، وحاول أن يستوعب كلامها، فواصلت القول: داهموا قصرنا، قبل أن يصلونا، تناهى إلى أسماعنا صريخ واستغاثة من نساء البيوت المجاورة، فهربنا إلى حظيرة مواشي قريبة، السيدة والبنات وأنا لطّخنا أجسامنا بروث البقر، ولطّخنا وجوهنا أيضًا لننجو من عمليات الاغتصاب. لكنّهم لم يفطنوا لنا، إذ انشغلوا بسرقة القطيع.

كان قد سمع كثيرًا عن مثل هذه الأهوال، فظلّ صامتًا. ولعلّه في تلك اللحظة فقط فكّر فيما يتعيّن عليه أن يفعل من أجل السيّدة.

ثمّ حاولت أن تخفف عنه ما استطاعت: سرقوا كل محتويات القصر. ولكنّ شيئًا واحدًا لم يسرق.

وصمتت، ثم أكملت: لم يسرقوا اللوحة التي رسمتها للسيدة؛ لأننا خبّأناها في بساتين البرتقال.

***

مرّ وقت طويل قبل أن يستعيد تماسكه. سقطت صخرة الأقدار، ولا بد من أن يتصرف كيافاوي أصيل. أيقن أن الكارثة سحقت الجميع، وتقضي الرجولة أن يستجمع قواه ويفعل شيئًا.

قال لها: احكي لي عن مرض السيدة.

قالت: المرض ينتشر في أجزاء من جسمها. ثمّة دمامل وبثور تنتشر، نعالجها بالأعشاب، ونطهّر جروحها بمحلول عشبة البابونج، والنتائج مشجّعة.

ثمّ بكت وشرقت بالدمع وهي تقول: لم نعد نملك مالاً. نحن نقتات من البقول البريّة، والسيدة لا تجد طعامًا يقوّي مناعتها.

صهل الحصان في العتمة. صهل كما لو أنّه يستحث صاحبه. كما لو أنّه سئم، أو كما لو أنّه يعلن عن جوعه وعطشه.

مدّ يده إلى المخلاة، وأخرج نقودًا. ما زال يملك ما تيسّر من البارات والليرات الفضيّة والذهبية.

قالت أسرار: حتى لو كنّا نملك نقودًا، فلا نستطيع أن نشتري؛ فالحوانيت مغلقة.

وقف. وضع المخلاة على كتفه، وقال: سأعود غدًا، وسنرى ماذا نستطيع أن نفعل.

قال ذلك ومشى نحو الحصان. وظلّت الوصيفة واقفة إلى أن سمعت وقع حوافر الحصان وهو يعدو وتطويه العتمة تمامًا.

***

عاد يوسف إلى الجامع الكبير. كان الشيخ وخادم الجامع نائمين.

طرق باب الخادم وأيقظه. أفاق الرجل وأشعل فتيلة الفانوس، وفرك عينيه.

– هل أفرش لك فرشة لتنام يا سيدي؟

أجابه: أجل، ولكن قبل ذلك، هل لديك ما يطعمني ويطعم حصاني؟

– سأتدبّر الأمر يا سيدي.

– من أين تحصلون على الزاد؟

– بعض الأجاويد يحضرونه لنا ممن تبقى من الأهالي. كما نشتري من بعض أصحاب الحوانيت الذين أغلقوا حوانيتهم، وصاروا يبيعون خلسة من بيوتهم.

– بعد صلاة الفجر، تذهب وتشتري لي خضارًا ولحومًا وزيتًا وفواكه، كمية تكفي عائلة لمدة أسبوع.

– أنا في خدمتك يا سيدي.

قال ذلك، وأعطى الخادم النقود فأخذها، وأسرع ليعدّ له فراشًا ينام عليه.

***

أفاق قبل صلاة الفجر. صلّى الفجر مع الشيخ والخادم أمام المحراب. وطلب من الخادم أن يخفَ سريعًا للشراء، ثمّ حمل مخلاته وخرج. ركب حصانه الأبيض ويمم شطر مقبرة الطابية.

أرشده حارس المقبرة إلى قبر هنانة. كان مغطى بالتراب، وحجارة صغيرة تحيط به.

بكى ثمّ تحدث إليها كما لو كانت تجالسه. بكى وقال لها: اغفري لي إن كنت نسيت أو أخطأت. لا ظلّ إلا ظلّك يا أماه. انهضي يا سيدة الروح. انهضي يا سيدة الدفء والطيبة. انهضي يا من قلبك معبد للمحبة. انهضي يا سيدة الأيائل وحوريات النجوم. انهضي لتنهض يافا من جديد.

واصل حديثه، وهو يبكي تارة، ويصمت تارة، ويمرّغ وجهه بتراب قبرها تارة ثالثة.

صهل الحصان كأنه موكل بإيقاظه، فقبّل ترابها ووقف، ولوّح بيده تلويحة وداع.

عاد إلى الجامع. كانت أكياس التموين جاهزة. حمّلها على خرج حصانه. ركب وأطلق له العنان.

***

في وضح النهار، شاهد بؤس القصر، كان محطّم الأبواب والنوافذ. آثار العبث والتكسير في كل الغرف التي صارت عارية. سرقوا التحف واللوحات والسيوف الثمينة المعلقة للزينة. سرقوا

الأثاث الثمين. سرقوا ما في الخزائن من ملابس. سرقوا الأساور والخواتم والقلائد والأحجار الكريمة. ولم يبق في القصر إلا سقط المتاع.

تحوّل القصر إلى ما يشبه مغارة مهجورة. السيدة على فراشها تغيب في متاهة أحزانها. وهذه المرأة الطيبة التي تمتلك قلبًا من ذهب هي التي تفوح منها رائحة الإنسان في هذا الفراغ.

أدخل بنفسه ما جلبه من مؤن إلى الداخل، فوقفت تنظر إليها نظرة يتيم، يتيم مكسور الخاطر، ومكسور الجناح.

قال لها: أريد أن أرى السيدة.

هزّت رأسها. بدت كما لو أنها تعيش في تلك اللحظة عزلتها أو ذهولها.

أشارت له بالجلوس. تنبّه إلى أنها فرشت ركنًا في الصالون بما تبقى من سجّاد وطراريح وحشايا ووسائد، فبدا الركن أنيقًا.

ذهبت وغابت قليلاً: السيدة تبدّل ثيابها، وستأتيك بعد قليل.

قالت ذلك، وانصرفت إلى الداخل، ربّما لتفرّغ أكياس ما جلبه من تموين.

دخلت العيطموس بعد قليل، برداء أبيض. وجهها شاحب، وملامحها مطفأة، وتغطي رأسها بشال خفيف.

دخلت تنقّل خطواتها ببطء، فخفّ إليها وساعدها.

جلست على الطرّاحة، فأسند ظهرها بالوسادة، وهيأ للجلوس بجانبها، فعاجلته بالقول: إذا كنت تودّني، فابتعد عني قليلاً.

عرف أنها تخشى عليه من العدوى، فاستجاب وجلس على بعد ذراعين.

قالت: ما كنت أرغب في أن تراني في هذا الوضع.

وقالت بعد صمت: كم افتقدتك أثناء احتلال الفرنساوية للمدينة.

وأضافت، وهي تغصّ بالكلام: حدثت خيانة. الوالي عبد الله بيك كان جبانًا وقبِل الاستسلام، في الوقت الذي كانت فيه فرق من الجنود يقاتلون ويتصدون ببسالة. قبِل الاستسلام بذريعة سلامة الحامية والسكّان.

وقالت: لكنّهم نكثوا العهد وتوحشوا في القتل.

كانت معبّأة بالقهر، معبأة بمرّ الكلام وملوحته، معبّأة بصدى صرخات المغلوبين، فتحدّثت بلا توقف، وقالت وواصلت القول: أما كان من الأجدر أن يقضوا وهم يقاتلون بدلاً من أن يذبحوا كالنعاج. حتى الوالي الجبان لم يرحموه، ولم يرحموا نساءه.. تفو عليه.

افتقدتك، لأنّك أحد شجعان هذه المدينة.

وبكت بحرقة، وهي تشرق وتغص: كنّا نسمع صرخاتهم وهم يرتعشون تحت الذبح بالسلاح الأبيض. ذبحوهم ذبحًا ليوفّروا الرصاص. وسمحوا للوجهاء أن يختاروا طريقة موتهم، وأن يحفروا قبورهم بأيديهم ثمّ يهيلوا عليهم التراب.

تدخّل، وقلبه المضنى يعتصر، وقال لها: كفى. كفى. ارحمي نفسك.

أجابت، وهي على شفا الانهيار: ليتني أموت.. ليتني أموت.

قال لها: قلبي موجوع. فقدت كل شيء. فقدت هنانة. فقدت أحمد آغا. فقدت كل شيء.

توقفت قليلاً، كأنما تحاول أن تستوعب ما قاله، ثمّ بدأت تلطم خديها، وتنتحب.

دخلت أسرار بارتباك وعجلة، لعلّها سمعت النحيب، وبادرت إلى احتضان السيدة، وإيقافها، ونقلها إلى الغرفة، ومدّها على السرير، وتغطيتها.

عندما خرجت، قالت له: إنها تمرّ دائمًا بحالات اكتئاب مؤقّتة.

صهل الحصان، ووصل الصهيل إلى مسامعه، فحمل مخلاته وهَيّأ للخروج. تشبثت به أسرار ليبقى، لكنّه اعتذر وقال إنّه في عجلة من أمره، وإنّ ثمّة ما يتعيّن عليه أن يفعله.

***

ركب الحصان، وحثّه على العَدْو.

اندفع باتجاه الشاطئ، باتجاه أبراج السور، هناك فوق الصخور المطلّة على الغرب، إلى الشاطئ حيث صخرة الأميرة وميناء الصيادين، وحوانيت اليونانيين، وجامع البحر.

مضى مسكونًا بجمرة نار تحرق القلب حزنًا وحنينًا ولهبًا. مضى مدفوعًا بحرقة وغضب ومكابدة. وأصبح يطلّ من علٍ، ومن قرب، على المشهد.

مشهد مفزع جعل الحصان يجفل، ويتوقف ويدور حول نفسه.

اندفعت مع الهواء رائحة الجثث. جثث تصطف بفوضى على امتداد الشاطئ متحللة وتطلق رائحة موت شديد السواد.

جثث فوق جثث. بعضها برؤوس، وبعضها الآخر من دون رؤوس، وبعضها بلا أطراف. جثث لا تعد، جثث بشرية مذبوحة ومشوّهة، تطل على بحر فقد رونقه وتجمّدت على رماله الدماء.

كانت جثث ملقاة على الرمال المتّسخة.

تغسل الأمواج بعض القتلى في حركة اندفاعها وانحسارها. وتبقى الجثث عطشى كأنها لا تستسيغ ملوحة الماء، كأن طائرًا يخرج من هاماتها ويقول: اسقوني.

طيور النوارس والبواشق ابتعدت عن الشاطئ، ولم تظهر عن بعد سوى البوارج الحربية.

جفل الحصان، وظلّ يدور حول نفسه، ولم يعد بوسعه أن يتقدم خطوة واحدة.

نزل يوسف عن حصانه. كان الهواء الأسود يحمل رائحة لا تطاق. كان الهواء يصفع الناصية، بل يصفع الروح، كأنه ريح صرصر عاتية.

ظلّت عيناه تمسحان الشاطئ، وتستحضران المشهد بأحاسيس قاسية، توجعه بلا هوادة.

كان يبحث عن قبر في تلك الرمال، قبر بلا شاهد، وبلا سعفة نخيل، ينام وسط رماله أحمد آغا مثل حبة قمح.

أدرك أنّه لن يستطيع أن يعبر إلى الأمام بوصة واحدة، وكـــان الحصان يحمحم بتذمّر، فألقى نظرته الأخيرة، ثمّ استدار ووضع قدمه في الركاب واعتلى الحصان، وصعد نحو مركز المدينة.

***

الفصل الثاني والثلاثون

الباب الكبير للجامع الكبير يظل مفتوحًا، باب لكل من تغلق في وجوههم الأبواب.

ربط الحصان في الخارج، ودخل إلى الباحة. توجه إلى المتوضأ. ثمّ توجّه إلى حرم الجامع.

عند باب الرواق، أقبل عليه خادم الجامع بلهفة، وأخبره أن ضيوفًا من الهند حلّوا في الجامع ويسألون عنه.

لم يكن هناك ما يثير المفاجأة والدهشة، فلا بد أن الحكيم المعلّم قد وصل يافا.

في غرفة شيخ الجامع، كانوا يجلسون: الحكيم واثنان من ذوي الشأن وفيديا.

عندما دخل، هبّوا واقفين، وسلموا عليه بحرارة، ودعاه شيخ الجامع للجلوس.

كان الحكيم مكدودًا، وتبدو على ملامحه آثار تعب وإرهاق، ربما بسبب السفر، أو لما رآه أو سمع عنه من أهوال الحرب. ولم يبد على الرجلين المرافقين ما يشير إلى تعب، بل إنّ أحدهما، وهو داكن البشرة، كان يبتسم، كما لو أنّه يعلن عن سعادته. وأما فيديا، فقد كانت لا تزال بالساري الهندي، والنقطة الحمراء فوق حاجبيها تحتفظ بجمال وألق.

كان شيخ الجامع قد حدّثهم عمّا فعله الفرنساوية في يافا. ولم يكن ذلك معلومة جديدة عليهم؛ فقد انتشرت أخبار مذابح المدينة في كل بلاد الشام.

لذا، فحين جلس يوسف، بادره الحكيم بالقول: أنا وصحبي نقدم لكم المواساة والعزاء.

نظرت إليه فيديا نظرة تعاطف. فيما ظلّ الرجلان صامتين.

هزّ يوسف رأسه بلامبالاة، واكتفى بالصمت.

وأضاف الحكيم: أعدنا غزالك إلى موطنه في الهند.

لم يعلّق يوسف. ولم يبد منه ما يشير إلى استحسان أو استهجان. عند ذلك، عاد الحكيم ليصل ما انقطع من حديثه مع شيخ الجامع.

وفيما كان الحكيم يشرح رسالته عن حكمة الشرق، انشغل يوسف بالتفكير في شجونه، وظلت فيديا تصب نظراتها عليه.

لم يعد مشدودًا إلى الأحلام والرحيل والمغامرة وركوب الريح، لم يعد يأبه بالعشق والغواية ومعاشرة النساء. خسر كل شيء، ولم يعد ما يربطه بهذا العالم سوى لملمة جراح المدينة، وشفاء السيدة.

ويبدو أنّ الحكيم أنهى كلامه. وعلى الأرجح، فإن شيخ الجامع استقبل الكلام للمجاملة، ولم يبد رأيًا، فتلفت الحكيم إليه، وقال: وصديقنا الكبير يوسف يدعم جهودنا، ويؤمن برسالتنا.

• • •

توجهت الأنظار إليه، فصمت قليلاً ثمّ قال: يا سيدي، لم يعد هناك ما أؤمن به.

تلقى الحكيم رده بابتسامة، فمنذ أن ترك البيت الكبير، ورفض مرافقة القافلة، عرف الحكيم أنّ هذا الشاب مختلف، ويحتاج إلى كثير من الصبر.

وبعد هنيهة، قال: يا سيّدي، إذا كنت حقًّا تودّني، فأرجو أن تسدي لي خدمة.

أجابه الحكيم: لك ما تريد يا بني.

تفحصته العيون، فقال وهو يسدد نظره على وجه الحكيم: هناك مريضة بوباء الطاعون تحتاج إلى علاج، فهل يمكن علاجها بالطاقة؟

ارتسمت الوداعة على وجه الحكيم، وقال برزانة وهدوء: نعالجها بالدواء والطاقة. لدى فيديا الدواء، ولديّ العلاج بتعزيز الطاقة.

هزّت فيديا رأسها، وأعطته إشارة بالموافقة.

كيف فهمت ما قاله الحكيم الذي كان يتحدّث بالعربية، بينما لم يفهم الرجلان ما يقال.

قال لها: هل فهمت ما نقول؟

أخرجت من حقيبتها دفترًا، ونظرت به، ثمّ قالت: أجل.

وعلّق الحكيم قائلاً: هل نسيت أنك كتبت لها حروف الألـف باء؟

وفي الأثناء، دخل خادم الجامع، وانحنى على شيخه، وهمس في أذنه، فانفرجت أسارير الشيخ، وقال للضيوف: الغداء جاهز. تفضّلوا على ما قُسِم. المائدة في غرفة الطعام.

كانوا جياعًا، وكانوا ضيوفًا بارعين في مد الجسور مع الآخرين. لذا، وقفوا وتوجهوا بلا حرج إلى المائدة.

وفي الطريق إلى المائدة، قال الحكيم: نذهب لمعاينة المريضة بعد الغداء.

***

في ذلك القصر الصغير، الذي لا يبدو قصرًا بعد ما لحق به من خراب، حلّ الضيوف ومعهم يوسف.

كانت أسرار هناك، وحيدة في عزلتها. ضائعة في متاهة المجهول.

ظلّ الحكيم ويوسف في الخارج، ودخلت فيديا تحمل حقيبة الدواء.

عقّمت البيت من الداخل بالمحاليل التي جلبتها، وعقّمت يدي وملابس أسرار. كما عقّمت ثياب الحكيم ويوسف قبل أن تدعوهما للدخول إلى ركن الجلوس.

كانت تعمل ببراعة ورشاقة، وقد اكتسى وجهها بالصرامة والجديّة.

وكانت أسرار تقف ببلاهة.

دخلت فيديا غرفة السيدة، وأدخلت معها حقيبتها.

قال الحكيم: فيديا تحتاج إلى ساعة من الزمن، فهيّا نتمشّى في الخارج.

في الخارج، كان الهواء راكدًا، وكانت المدينة صامتة، وكان الوقت عصرًا.

قال الحكيم: لا تقلق. فيديا خبيرة بالطب الشعبي. ولا تنسَ أنّها كانت تعيش في منطقة كثيرة المستنقعات تتعرض دائمًا للأوبئة.

ثمّ انتقل الحديث إلى الصندوق الذي يحتوي على الكتاب.

كان يوسف يتمنى لو أنّه ينسىٰ ذلك الكتاب إلى الأبد، لذا، استمع إلى الحكيم المعلّم الذي يصرّ على تسليم الكتاب إلى ساري العسكر نابليون بونابرت، ويصر على الالتقاء به ومحادثته.

– سيكون لهذا الضابط شأن كبير في فرنسا، وقد يصغي جيدًا لرسالتنا.

– يا سيدي، المدافع لا تجيد القراءة.

طبطب الحكيم على كتفه، وقال: علينا ألا نفقد الأمل.

• • •

حل الغروب، وبدأت العتمة تنتشر، وعندما جاءت فيديا، طلبت من الحكيم أن يرافقها إلى غرفة السيدة.

بقي يوسف ينتظر، لكن لم يطل انتظاره، فقد عادت فيديا وتركت الحكيم يعالج السيدة.

وجد نفسه وحيدًا مع هذه الهندية ذات العينين الساحرتين.

قالت بالعربية: السلام عليكم.

قالتها بلكنة هندية، وكانت النقطة الحمراء قد اختفت بفعل التعقيم.

ردّ السلام، وقال: شكرًا لك.

أخرجت دفترها، ودققت به وقالت: لا شكر على واجب.

كانت تفهم الكلام، ولا تحسن الحديث.

ودققت مرة أخرى في دفترها، وقالت: إنّها سيدة جميلة.

ابتسم وأجاب: جميلة جدًّا.

ابتسمت بدورها، وقالت: ما تخاف، هي راح تكون مبسوطة.

هكذا قالت دون أن تدقق في دفترها.

وفي تلك اللحظة، انضمت إليهما أسرار، فبدأت تتحادث مع أسرار باللغة الهندية.

• • •

يا للمفاجأة! لم يكن يخطر بباله أنّ أسرار تتقن تلك اللغة.

أبدى دهشته، فقالت له أسرار: كانت معنا في الحرملك جاريات هنديّات، وتعلّمنا منهن شيئًا من هذه اللغة.

سألها إن كانت السيدة تتقن الهنديّة، فأجابت أنّها تتقنها قليلاً.

وأثناء ذلك، ظلّت فيديا تنظر إليه. وعندما تقع عيناه على عينيها، تسقيه من عينيها خمرًا وتطلق منهما سهمًا.

***

خلال أيام قليلة، تحسّن حال السيدة.

جفت البثور والدمامل، ونقل لها الحكيم بعضًا من طاقته، ودرّبها على نظرية العين الثالثة.

وتوطّدت العلاقة بين فيديا والحكيم وأسرار والرجلين المرافقين، وصار الجميع يتصرفون كما لو كانوا من أهل البيت.

أما السيدة، فقد كان العلاج يتطلّب عزلها إلى حين شفائها تمامًا، ولم يسمح لأحد بزيارتها. أما يوسف، فقد كان يفتح الباب ويلقي عليها نظرة عن بعد.

صارت أسرار عمود البيت، تعد الطعام للسيدة والضيوف. وكانت فيديا تطعم السيدة وتعتني بها.

وفي الباحة، تتكلم أسرار معهم وتلاطفهم، ويبدو أنّ خروجها من عزلتها وتحسّن صحة السيدة قد أعاد لها بعض الألق، إذ أصبح وجهها رائقًا، وعاد لغمازتيها الذكاء.

كان يوسف يتحاشى نظرات فيديا. لم يكن في وضع يسمح له بسلوك طريق الغواية أو حتى التفكير بذلك.

تحسّنت حالة السيدة، وصار بالإمكان السماح لها بالخروج للتريّض في الليوان، أو الجلوس قليلاً في الخارج لتحصل على دفقة هواء نقي، وحزمة شمس رقيقة.

أما فيديا، فقد حاولت مرارًا الاستفراد به، والتحدّث إليه، غير أنه كان يتهرّب، وقد طلب من أسرار أن تبقى بجانبه طوال الوقت، غير أنّ أسرار كانت تتهرب لأنّها كانت قد تعلقت بالرجل ذي السحنة الداكنة.

كانت تحدث حكاية حب صامتة في هذا القصر العاري بين أسرار وذلك الرجل الأسمر الذي يعد من علية القوم.

وذات صباح، افتقد أسرار. بحث عنها في الغرف والليوان وغرفة السيدة، فلم يجدها. وتبيّن أنها خرجت مع صديقها الأسمر في نزهة خارج المكان.

لم يكن يعارض تقربها من ذلك الرجل الذي يبدو طيّبًا وجادًّا، وربما أسعده التحوّل الذي بدأ يطرأ على مزاجها وسلوكها، ورأى أنّ

من حقّها أن تجد خيارًا يحدد مصيرها فيما لو طرأ طارئ على السيدة، أن تجد خيارًا غير خيار العودة إلى الحرملك.

وذات نهار، جاءت أسرار لتخبره أن السكّان الذين غادروا المدينة بعد المذبحة بدأوا يعودون إليها، وأنّ السكّان القريبين من القصر عادوا يحملون فراشهم وأثاثهم ويسوقون أغنامهم، ويصطحبون أطفالهم.

وتسنى له أن يرى البريق في عينيها، والسحر في غمازتيها. بل إنه لاحظ أنها تضع على خديها مساحيق خفيفة.

***

تحسّنت السيدة، ودخلت في مرحلة النقاهة. وحان الوقت الذي تتعيّن فيه مغادرة الضيوف، ليواصلوا رحلتهم إلى مصر.

أخرج الحكيم الصندوق الأنيق وبداخله الكتاب المرقّش، وقال ليوسف: هل ترافقنا إلى مصر؟ سنلتقي بساري العسكر وهو مهزوم، نتحدّث معه ندًّا لند.

أجابه يوسف محاولاً تخفيف حدة موقفه: لا كلام ولا صلح مع من ذبحوا والدي وأهل مدينتي.

– لقد ارتكب جريمة خارجة عن مبادئ الثورة الفرنسية. هذا ما سنقوله له. وسنقول له أيضًا إنّ غزو هذه الأرض المقدسة هو غزو لقلب الشرق.

وصمت الحكيم قليلاً، فلعلّ الحكمة التي يتحلى بها اهتــزّت. صمت وقلّب أمره ثمّ قال: غزو الشرق الأدنى هو غزو للشرق كلّه. هذه البلاد تدفع ثمن موقعها في قلب العالم، وتدفع ثمن قداستها؛ فمنها انطلقت الرسالات السماوية، ولقد عبرها حكماء وحاملو قناديـــل معرفة، وعبرها رماح وسيوف ومنجنيقات. لكنّ غزاتها مضوا وعبروا تاركين عمائرهم أطلالاً.

هذه المدينة تعرضت لغزوات على مدى القرون، ومــذابح لا تحصى، وستتعرض لغزوات أخرى في القرون القادمة، طالما أنّ الظلم قائم، والقلوب سوداء. إنّه الغرب الظالم الذي يفقد رشده.

يا بني، علينا أن نخاطب الغرب الذي يقسّم العــالم إلى شـــرق وغرب، وقد يقسم العالم إلى شمال وجنوب، وقد يعتبر نفسه المركـــز وشعوب العالم هي الأطراف. علينا أن نخاطبهم ونتحاور معهم بلغـــة الحكمة؛ لعلّنا نلتقي معهم عند منتصف الطريق.

يا بني، الطغاة يموتون، لكنّ الحكمة لا تموت.

***

الفصل الثالث والثلاثون

يافا في آخر أيام الربيع.

عاد المهجّرون، ودارت حركة الحياة. رحل الحاكم الفرنسي، ورحل معه الوباء.

بسط حاكم عكا نفوذه على يافا، وأرسل السفن التي تحمل الأغذية والمساعدات، وأمر بتنظيف الشاطئ، ودفن القتلى.

تحوّلت المدينة إلى ورشة إصلاح وترميم. فتحت الحوانيت أبوابها.

دبّت حركة في الأحياء والحارات، وفي دور العبادة والأسواق، وعلى الشاطئ والميناء، لكنّ خراب الأسوار والأبراج ما زال ماثلاً.

عاد يوسف لتوّه من البازار بعد ترميمه.

عاد عصرًا إلى المكان الذي كان قصرًا صغيرًا. وكانت السيدة قد أعادت فرش بعض غرفه وصالته الصغيرة.

عاد متعبًا وجائعًا، وكانت أسرار بالانتظار، والسيدة التي شُفيت تمامًا تستحم وتُعدّ نفسها للسفر.

كان جركس باشا قد أرسل باخرة لتقلّها مع نساء حرملك قصر الوالي إلى الأستانة وإزمير.

غسل وجهه، ونفض عن ثيابه الغبار.

خرجت السيدة من الحمّام تلف جسدها بالمنشفة نضرة تفوح من شعرها رائحة الصابون الممزوج بالعطر والزيوت الطبيعية.

عانقته بحرارة، فامتلأت حواسه برائحة ماء الورد الممزوج بالعسل المنبعث من منشفتها وأكتافها وصدرها. وعندما لاحظت أنّ ثيابه متّسخة، نادت أسرار، وقالت: أعدي الحمّام.

قالت له: ثيابك متّسخة، وعليك أن تغتسل. أريد أن أحتفظ بصورتك أثناء سفري وأنت في هيئة أمير.

وأكّدت أسرار على ذلك بهزّة من رأسها.

كانت أسرار تمرّ في مرحلة تحوّل. كان قلبها قد اكتشف دقّاته عندما عرفت الحب. أمضت حياتها تعطي ولا تأخذ، وحان الوقت الذي يتعيّن عليها أن تجد ما يستحق أن تأخذه من هذه الدنيا.

رحل صديقها ذو البشرة الداكنة، وأكّد لها أنّه سيعود.

ورحلت فيديا والحكيم وقالا إنهما سيعودان.

رحلوا يحملون كتاب الحكمة في صندوقه، مثلما يحمل تجّار طريق الحرير العطور في قواريرها.

***

قالت السيدة: أريد أن أراك بثياب الأمراء.

وغمزت أسرار بطرف عينها اليسرى، فهزّت رأسها وغابت قليلاً وعادت تحمل ثوب أمير.

نظر إلى الملابس التي فردتها أسرار؛ قميص موشّى بخيوط ذهبية، قفطان واسع بلون البن، صديري وعمامة فاخرة. إنّها الملابس التي أحضرتها السيدة من عكا ذات يوم، والتي نسيها أو تناساها، وبقيت في خزانة السيدة.

قالت أسرار: خبّأت السيدة الملابس في المكان الذي خبّأت فيه اللوحة. خبّأت أشياءك ولم تخبئ الجواهر والأساور.

دخل الحمّام، فيما دخلت السيدة غرفتها لاستكمال زينتها، ولحقت بها أسرار.

الحمام ما زال دافئًا، ما زال البخار يملأ أجواءه، وتفوح رائحة الصابون السائل، وعند الحوض الليفة، وعلى المشجب المناشف المعطّرة.

استحمّ بالماء الساخن، دعك جسده بالليفة. منذ زمن، لم يتح له أن يستحم بكل هذه البذاخة.

استحم ثمّ لف نفسه بالمنشفة. جفّف شعره، ولبس الثياب الجديدة، وأطلّ على المرآة، ورأى نفسه بالقميص والصديري والسروال والعمامة غريبًا وعجيبًا. لكنّه قبل بها إرضاء للسيدة التي يحب.

خرج، فكانت السيدة قد استكملت زينتها، ولبست ثوبها، ثوب اليلك من الكشمير، ترتديه فوق قميص من التفتا، مفتوح عند الصدر، وأكمامه طويلة حتى الرسغ، ويلف خصرها حزام من الحرير.

قالت: ها أنت مثل أمير جميل.

ضحك وقال: وأنت مثل ملكة.

ضحكت وأجابت: أريد أن أكون مثل سيدة بيت يافاوية بسيطة.

وردّ عليها: وأنا أحب أن أكون شيخ شباب. ألم تقولي ذلك في حينها؟

وانتقلا إلى مائدة الطعام، وكانت أسرار معهما. لقد انتهى وقت الإتيكيت والمظاهر، وألغيت المسافة بين السيدة والوصيفة. أكلوا جميعًا من قصعة واحدة طعامًا بسيطًا، وانتقلوا إلى الصالة.

قالت السيدة، بينما أسرار تعد القهوة: نريد أن نجلس مثل أيام زمان، تحكي لنا حكايات طريفة عن رحلتك أيها السندباد، لننسى الألم والمرض والسأم، أنا وأسرار وأنت. وها إنّك ترى أن أسرار زيّنت المكان بالزهور.

ودخلت أسرار تحمل اللوحة بدلاً من القهوة.

نظر إليها، كأنه يشاهدها لأول مرة، كأنّ سواه رسمها.

يا لبذخ الألوان، وانسياب الجسد، وانسياب الثوب السلطاني، والقبّعة السلطانية! يا للعينين والشفتين والأنف والرقبة والأقراط والحذاء!

أسندها إلى الحائط، فقال: كنت قد وعدت بتحويلها إلى فسيفساء، ولا بد أن أفعل.

أجابت: لا.. لن تكون بالفسيفساء أجمل من رسمها بروحك، الفسيفساء للأيقونات، وأنا لا أريد أن أكون أيقونة. أريد أن أكون روحًا هائمة في هذا الفضاء الفسيح.

قالت ذلك ثمّ جلست على حاشية مطرزة، فجلس قربها، وجلست أسرار قبالتهما.

قالت السيدة: أسرار هي الملكة، هيا أيتها الملكة.

قالت أسرار الملكة: والآن أيها السندباد، احك لنا حكاية غواياتك مع النساء في ديار الغربة، وعليك الأمان.

قهقه ضاحكًا، وقال ممازحًا: هل هذا فخ؟

أجابت: ليس فخًا. إنه البوح. ألا تملك الشجاعة لتبوح لنا بأسرارك.

اعتدل في جلسته، وبدا كأنه يقلّب أمره، ثم تنحنح، وسرد لهما، بكل صدق وخفّة ورشاقة، حكايته مع ذات السن الذهبية، المرأة المسكونة بالشبق والجنون. فهي مثل ملكة النحل تتلذذ بموت الرجال بين أحضانها موتًا لذيذًا. حكى عن جمالها ومكرها وشياطينها وغوايتها. وحكى كيف صعقها وأحرقها ما بين الحلم واليقظة، بل كيف صعقها بجمر شفتيه ذلك القرين الذي يسكن جسده، ذلك القرين اللعين الذي يستيقظ في وقت الحب ووقت الحرب، ذلك القرين الشهواني الذي يطلق طاقته النارية ويحرق خدود النساء ونحورهن، ويتحوّل إلى عملاق مدّمر إذا واجه عدوًا أو داس أحد على طرفه.

أصغتا بانتباه، وأشعل خياليهما لهب المرأة ونارها، وفي النهاية، أطلقتا ضحكات مجلجلة، وأطلقتا التعليقات المرحة.

ثمّ اكتست ملامح الملكة أسرار بالمرح، وقالت: بقي أن تحدثنا عن المرأة ذات النقطة الحمراء التي تعلو حاجبيها.

ضحك، وقال إن عِشرة النساء صعبة، وإنهما -السيدة والوصيفة- ماكرتان، وتريدان جرجرته إلى متاهات.

ثمّ قال: ننتقل من الهزل إلى الجد.

وقال إنّ القرين الذي كان يسكن جسده اشتهاها. لكنّه بعد أن تعالج بالطاقة، خرج القرين من جسده، واستطاع أن ينتصر عليه، ولم يعد يشتهيها، وإنّه يشعر أنها تديم النظر إليه، لكنّ الأمور لا تتعدى ذلك.

ضحكت السيدة وعلّقت قائلة: هي تكتفي بقول الشاعر: منكم الحسن ومن عيني النظر.

ضحكتا، وبعد ذلك، أعلنت الملكة أن الحديث الآن سيكون لها.

أبديا الحماس والإعجاب، فماذا ستقول أسرار؟

عندما تحدّثت، ذكّرتهما بالحكاية التي سردتها السيدة في جلسة طرد الملل والسأم، حكاية إيمي التي خطفها القراصنة من البحر وباعوها لداي الجزائر، وأهداها الداي للسلطان، وأحبّها السلطان وعاشرها وأنجبت منه ولدًا، فصارت سلطانة الشرق، وأصبح لها اسم

آخر، ألا وهو السلطانة نخشديل، وهكذا صدقت نبوءة العرّاف عليها. أما ابنة عمّها التي تنبأ لها العراف بأنها ستكون ملكة الغرب فهي ماري روز، التي هاجرت من جزر المارتنيك إلى باريس. وهناك، انغمست بالشهوات والرذيلة، وتزوجت من ضابط في الجيش، يومها، وظلّت تأمل أن تتحقق نبوءة العرّاف.

يومها، سألتنا السيدة وقالت: من منكنّ يا بنات يمكن أن تتخيّل نهاية لحكاية ماري روز؟

أستطيع أنا اليوم أن أخبركما بهذه النهاية: إنّ الضابط الذي تزوجته هو نابليون بونابرت، تزوّجها وأطلق عليها اسمًا جديدًا هو (جوزفين). نابليون غادر مصر عائدًا إلى فرنسا، وهذا الضابط الطموح إذا ما حكم فرنسا، فستصبح جوزفين، أعني ماري روز، ملكة فرنسا، أي ملكة الغرب، وبذلك، تتحقق نبوءة العرّاف.

استغرقت السيدة بالضحك، وقالت لها: ما أوسع خيالك! لنترك ماري روز جانبًا، وحدّثينا عن الحب الذي طرق بابك. حدثينا عن ذلك الرجل داكن البشرة. هل سيعود إليك حقًّا كما وعد؟

فكّرت أسرار قليلاً، وأجابت: لا يهمني إن عاد أو لم يعد. المهم أنّه أدخل الأشواق إلى قلبي، وجعل نبضاته تدق صباحًا ومساء.

ثمّ اكتسى وجهها بالجد وقالت: والآن، دور السيدة في الكلام.

تأهّبت السيدة للحديث، كان وجهها متورّدًا، وكانت تبدو مبهجة بفستان الليلك البني، وبالقميص الأبيض الموشّى بخيوط الذهب. دارت بمحجريها على جدران القاعة الصغيرة، الجدران

المعطّلة من الزينة والتزويق. فرغم الزهور التي نثرتها أسرار هنا وهناك، لم تعد هناك نباتات زينة تطل من النافذة، ولا نمنمات هندسية تمنح القاعة جمالاً، ولا كتب ومخطوطات في غرفة المكتبة، ولا خادمات بزي موحّد، ولا نماذج من أسلحة ودروع تزيّن الجدران. مسحت بعينيها الجدران، ثمّ نظرت إليهما، وتحدّثت: ربما يكون لقاؤنا هذا هو آخر لقاء لنا في هذا المكان. لكنني سأحفظ عن ظهر قلب كل أنفاس سكّانه، كل لحظة فرح عشناها، كل دقة قلب نبضت في العروق، وسأحتفظ بهذه اللوحة التي رسمها يوسف بيديه وعينيه ورموشه وروحه الجميلة.

سأقول ليوسف إنني أحبك من أعماق قلبي، وكل الدماء التي تسري في شراييني تحنّ إليك، فأنت من أعاد لي إحساسي بالحريّة والأمان، وأخرجني من عتمة الأحاسيس القديمة. الليلة تقلني الباخرة إلى مدينتي إزمير، أعود إلى عائلتي بقلب أبيض ناصع، أعود امرأة عادية، حرّة وتمتلك حق الاختيار وتقرير مصيرها ولا تترك الأقدار تحدد ذلك المصير.

ستكون أسرار معي حرّة، عائلتي عائلتها، وبيتي بيتها، ولها الخيار في أن تقرر ما تريد. نعيش معًا، نزرع الأرض معًا، ونقطف الثمار معًا، ونبيع الخضار والفواكه معًا، كما تفعل فلاحات يافا.

لا أريد أن أرى وجه نخشديل، ولا أريد حماية جركس باشا، وأريد أن أمسح من ذاكرتي كل ما يمت بصلة للحرملك ودسائسه وعنفه وقسوته.

أريد أن أفتح صدري في فضاء تلك الجبال لأستنشق الحريّة الصافية.

أما أنت يا يوسف، فإنك حصان، بل مهر من أمهار البراري، مهر غير مدجّن يرمح ويعدو على طريق البحث عن الحقيقة والمعرفة من خلال الرقش والتزيين والتوريق والتوشيح والتذهيب والترصيع والتزجيج والتشجير والتزهير، وفي طريقه البكر، يتعرّف على لذّة المغامرة، وحسن الغواية، ويركب الريح، ويعلو.. ويعلو.

أنت خلقت من ضلع هذه المدينة، وأنت عنوان جمالها وأساطيرها ومخزون ذاكرتها وتراثها، ولا عشق لك بعد الآن سوى عشق بحرها، ومآذنها، ومعمارها، ومنارتها، وأسواقها، وأسوارها، وأبراجها، وأروقة مساجدها.

عش كمهر غير مدجّن، فأنا أيضًا أرغب في أن أكون مهرة متحررة من العبودية، مهرة خارجة إلى الأبد من أسواق الرقيق، ومن عبودية الحرملك، ومن أقفاص القصور.

كان يوسف يستمع، وكان واقعًا تحت تأثير وجع الرحيل.

كان يتوقع مثل هذه النهايات. وكان يودّ ألا تكون النهايات حزينة.

أطلقت باخرة في الميناء بوقها، فعرف أنّ الوقت قد أزف.

كانت السيدة قد حزمت حقائبها، وكذلك أسرار.

كان مرتبكًا وحزينًا، لكن، يتعيّن على النهايات ألاّ تكون حزينة، فحاول أن يفعل ما من شأنه تخفيف وقع الأحزان والآلام على الجميع، فقال للسيدة ممازحًا: لي عليك دين، وحان سداده.

كانت أسرار لمّاحة، ومثله كانت ترغب في الهروب من أوجاع الفراق، فقالت بذكاء: له دين عليك، وعدتِه بقبلة لقاء أتعابه في رسم اللوحة.

عند ذاك، تغيّر الأسى الدفين الذي كان يطل من عينيها، فالتمعت عيناها ببريق أخّاذ، ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة، وقالت: تريد أن تترك على خدّي وشمًا؟

ضحك وقهقه، وأجاب: لقد رحل القرين. ذلك الجني، وانتصرت عليه، ولن تترك شفتاي أثرًا.

قالت أسرار: أعطيه خدّك.

قال: لا.. ليس الخد.

قالت السيدة: ماذا تريد.

وقف، وسدد نظراته على اللوحة التي تزهو بألوانها، والتي ينساب فيها جسد السيدة بالثوب السلطاني، ويبدو فيها الوجه متوردًا وساحرًا، ويبدو البؤبؤان سوداوين يحيط بهما حور شديد البياض، وقال: ألم تقولي إنّ كتب الحب الهنديّة تمجّد قبلة الحبيب لصورة حبيبته، ولا أدري ماذا يسمونها.

قالت السيدة: قبلة النوايا الحسنة.

اقترب من اللوحة، مدّ رأسه نحوها، ألصق شفتيه بشفتيها، وأطال التقبيل، ثم ابتعد، واستدار نحوها، وقال: هكذا تكونين قد سددت دينك.

اغرورقت عيناها، وجاء من جهة البحر بوق الباخرة من جديد.

قال: لا أحب الوداع. عمّا قريب، تأتيّ العربة التي تنقلكما إلى الميناء، وعليّ أن أغادر.

وقبل أن يمضي، التفت إليهما، وقال: يكفي أنّ لك قلبًا ينبض بالحب، ويكفي أن يكون لأسرار قلب ينبض بالشوق، ويكفي أن تكون لقلبي رعشة حنين، فهذا يجعل للنهايات زينة وتزويقًا.

قال ذلك، ومضى.

ركب حصانه وأرخى له العنان. كان الليل قد حل، وكانت بيوت يافا مضاءة، والمنارة مضاءة، والنسيم الآتيّ من البحر يحمل ندى ورائحة ريحان.

وفيما كان الحصان يعدو نحو وسط المدينة، والنسيم يتلاعب بشعر ناصيته، حدث نفسه: ما دمت تملك ريشة وفرشاة، وقلمًا وألوانًا، فارسمها جنّة الله على الأرض، وادخلها بسلام.

***

راكب الريح

يحيى يخلف

هذه الرواية - حكاية رجل وتاريخ

هذه رواية رجل يخرج من أساطير يافا وبحرها وأسوارها ، ومن حكايا الولاة والسلاطين والإنكشارية والحرملك والجواري والغواية ودسائس القصور . كانت يافا لؤلؤة البحر المتوسط ونافذة الشرق على الغرب ، وكان الرجل (يوسف) لؤلؤة المدينة وقمرها وفتى ذلك الزمن ، في روحه فن ورقش ورسم وخطوط وعشق وغواية ، وفي جسده نار وطاقة وقرين . رجل يسير بحثاً عن الحقيقة والحكمة وأسرار الحياة ، ويتنقل عبر الأمكنة مثقلاً بالحكايات والنزوات والمغامرات ، حاملاً يافا أيقونة تنوّعها وحنينها وأنينها وعبقرية مكانها ، وتوحش حكامها وغزاتها .

من عشق حارق ، إلى عشق وحشي ، ومن حلاوة الانسجام النفسي ، إلى مرارة القرين الذي يسكن داخله ، ومن إبداع الرسم والرقش والتزويق والتزيين والتذهيب والتشجير ، تولد حكاية ناره الملتهبة التي لا تنطفيء ، وحكاية ركوبه رياح المغامرة وعصفها . تتوالد الحكايات ، حكاية وراء حكاية ، تراجيديا السيدة عالية القامة القادمة من حرملك السلطان ، إلى المرأة ذات السن الذهبية المسكونة بالشياطين والأبالسة ، إلى المرأة الهندية ذات النقطة الحمراء على الجبين ، تتغير الأزمنة والمناخات والتضاريس والنهايات ، من نبوءة العرّاف التي تجعل إيمي سلطانة الشرق ، وابنة عمها ماري روز إمبراطورة الغرب ، إلى لعنة الطاعون التي أودت بحياة جنود نابليون على مشارف عكا .

من هذا وذاك ، ومن هنا وهناك ، يحصد يوسف ما تنثره الحياة أمامه على طريق العمر .

في محطته الأخيرة ، يتوقف عند التأمل والحكمة وبلاغة الرسالة ؛ رسالة الشرق إلى الغرب من أجل التعايش والسلام والمساواة واحترام كرامة الإنسان ، فهل تصل الرسالة ؟ .

هل يلتقي كتاب الحكمة الشرقي مع مدوّنة الثورة الفرنسية التنويرية ؟

هل تتقلص الفجوة بين الأنا والآخر ؟ أم تتسع حتى اللاتلاقي ؟

يموت الطغاة ، لكنّ الحكمة والتنوير لا يموتان .

إنها يافا التي خلق يوسف من ضلعها ، فكان عنوان جمالها وأساطيرها وغوايتها وتراثها وزخرفها .